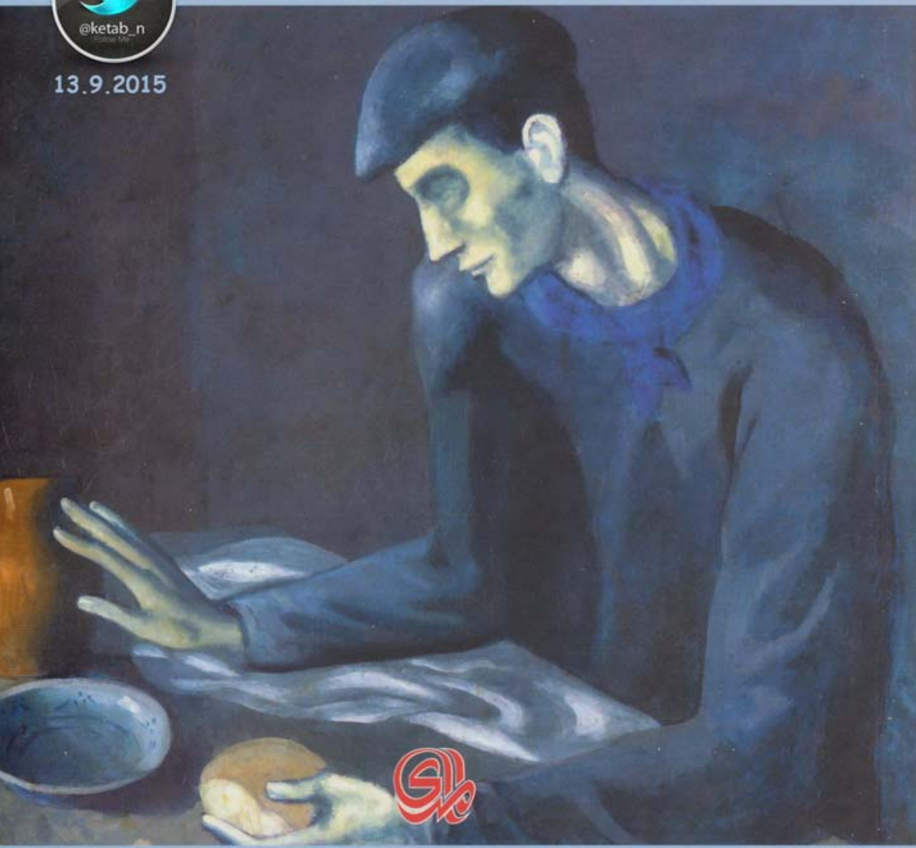
مكتبة نوبل ١٩٢٠

كنوت هامسون

الجـوع

ترجمة: محمود حسني العرابي



كنــوت هامــسون

الجـــوع

ترجمة : محمود حسني العرابي

الجـوع

روايـــة

Author: Knut Hamsun	المؤلف: كنوت هـامسون
Title: Famine	عنوان الكتاب: الجـوع
Translator: Mahmud Husni Al-Arabi	ترجمة: محمود حسني العرابي
Revision: George Gerdak	مراجعة: جورج جرداق
P.C. : Al-Mada	الناشر: دار المدى
Cover designed by: Majed Al-Majedy	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
First Edition: 1999	الطبعة الأولى: 1999
Second Edition: 2014	الطبعة الثانية: 2014

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بـغـداد : حـي ابـو نـؤاس - محلة 102 - شـارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بـيـروت: الحـمـرا- شـارع لـيـون- بناية منصور- الـطـابـق الاول

info@daralmada.com

+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمـشـق: شـارع كرجـيـة حـداد- مـنـفـرع مـن شـارع 29 أيـار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

الفصل الأول

حدث هذا في تلك الأيام التي كنت فيها مشرداً أتضور جوعاً في مدينة كريستيانا ، تلك المدينة العجيبة التي لا يغادرها أحد قبل أن تسِمَه بسِماتها وتترك عليه آثارها .

كنت راقداً متيقظاً في مخدعي الحقير الواقع تحت سَنَد السقف ، فسمعت تحتي ـ في الدور الأسفل ـ ساعة تدق ست دقات ، وكان الصبح قد تنفس وأخذ الناس يصعدون السلم ويهبطون . وهناك على مقربة من الباب ، كانت حيطان غرفتي مورّقة بنُسَخ عتيقة من جريدة « مورجنبلات » ، فاستطعت أن أبصر في وضوح إعلاناً لمدير المنارات ، وعن يساره بقليل إعلاناً بالخط الواسع العريض للخبّاز فابيان أولسن يخبر عن خبزه الطازج .

وفتحت عينيّ على اتساعهما وأخذت ، على عادتي القديمة ، أفكر باحثاً عما إذا كنت سأوفق في يومي هذا إلى شيء يسرني ، فقد ساءت أحوالي في الأيام الأخيرة ، وكل ما كان في حوزتي سار في طريقه إلى الهلاك في دور الرهونات بعضه إثر بعض ، وأصبحت نزقاً ضيّق الصدر سريع الانفعال . وقد اضطرني الدوار مرتين أو ثلاثاً قبل الآن إلى أن ألبث في

سريري طيلة النهار . وكنت إذا ساعدني الحظ بين الحين والحين أتمكن بشق النفس من الحصول على خمس كورونات[١] ثمناً لفصل أدبي أكتبه لهذه الصحيفة أو تلك .

وازداد الصباح وضوحاً فأخذت أقرأ الإعلانات على مقربة من الباب ، وتمكنت حتى من قراءة الحروف الدقيقة المغضنة بإعلان «الأكفان عند الآنسة أندرسن ، إلى يمين الباب الخارجي الكبير» . وقد استغرق ذلك مني وقتاً طويلاً ، فسمعت الساعة تحتي تدق ثماني دقات قبل أن أنهض لألبس ثيابي .

فتحت النافذة ونظرت إلى الخارج ، فأبصرت من مكاني حبلاً للغسيل ، وحقلاً بوراً في نهايته موقد مطفأ بقي من دكان حداد قد احترق ، وراح بعض العمال يعالجون بقاياه . اتكأت على مرفقي في النافذة وتفحصت بأنظاري السماء ، فلا ريب أن اليوم سيكون صحواً جميلاً ، فقد وافى الخريف ، الفصل البارد الرقيق الذي تتبدل فيه الألوان جميعاً وتجري من الحياة إلى السكون . وابتدأ الضجيج والجلبة في الشوارع ، مما جذب نفسي إلى الخارج . فلقد كانت هذه الغرفة الخاوية التي تتماوج أرضها الخشبية اهتزازاً كلما خطوت فيها ، أشبه بصندوق موحش متفكك ، فلم يكن فيها موقد ، وكان القفل في بابها معطلاً . وكان من عادتي أن أنام الليل على جواربي لكي تجف بعض الجفاف في صبيحة اليوم التالي . أما المتاع الوحيد الذي كان يمكنني أن أغتبط به ، فهو مقعد صغير أحمر كنت أجلس عليه في المساء حالماً مفكراً في ألف أمر وأمر . وحينما كانت الريح تهب بشدة فتفتح الأبواب في الطبقة السفلى ، كانت أصوات مختلفة من الصرير العجيب

---

(١) جمع كورون ، وهو ضرب من العملة النرويجية .

تُسمع من خلال أرض الغرفة وحيطانها ، فتحدث في صحيفة مورجنبلات فرجات بقدر كف اليد .

انتصبت واقفاً ومضيت إلى الزاوية أبحث في حزمة إلى جانب السرير لعلّيَ أجد فيها فضلة طعام للفطور . ولكني لم أجد فيها شيئاً ، فعدت أدراجي إلى النافذة ، وقلت في نفسي :

«الله وحده يعلم إذا كانت جهودي في البحث عن عمل ستثمر في يوم من الأيام ولو قليلاً!» .

فهذا الرفض المتكرر ، وهذه الوعود المتأرجحة ، وهذه الـ «لا» الجافة التي أقابل بها أبداً ، وهذه الآمال المتراوحة بين التحقق والفشل ، والمحاولات الجديدة التي لم تؤد مرة إلى شيء ، كل هاتيك الأمور أضعفت همتي وقضت على شجاعتي بالزوال . وكنت قد سعيت في المدة الأخيرة إلى عملٍ كموظف في المحاسبة ، ولكني حضرت متأخراً عن الموعد . وفوق هذا لم يكن في مقدوري الحصول على خمسين كوروناً ، هي قيمة الضمان المطلوب . وهكذا كنت أصطدم دائماً بهذه العقبة أو تلك . وتقدمت أيضاً إلى عمل في الإطفائية ، وكان المتقدمون إلى هذه الوظيفة خمسين رجلاً ، فوقفنا جميعاً في باحة المكان وأخذ كل منا ينفخ صدره لنظهر بمظهر القوة والجرأة العظيمة . وجال بيننا المفتش وأخذ يفحص عن حال الطالبين بعينيه ، ويجس أذرعهم ، ويوجه لهم هذا السؤال أو ذاك . ومرّ بي ، وهزّ رأسه قائلاً إني لا أصلح للعمل لأنني أضع منظاراً على عينيَّ . فعدت إليه مرة أخرى بغير منظار ووقفت مقطباً حاجبيَّ ، مرهفاً ناظريَّ كالنصل . وعاد الرجل فمر بي وابتسم ، فقد عرفني . وشر الأمور كلها أن ملابسي كانت قد رثت ولم يعد في مقدوري أن أظهر فيها بمظهر يليق برجل محترم يبحث عن عمل......

ومن عجبٍ أن الأيام كلها أخذت تنتقل بي من سيء إلى أسوأ ، حتى ضقت ذرعاً بحالتي في النهاية وأضحت يدي صفراء من كل شيء ، فلم يبقَ لديّ مشط ، ولا عندي كتاب أقرأه لأشغل نفسي به عن التفكير في سوء حالي . وأمضيت الصيف كله نازلاً إلى ساحات الكنيسة ، أو صاعداً في حديقة القلعة حيث كنت أجلس أعد مقالات للصحف ، فأكتب عموداً بعد عمود في مختلف الشؤون ، وحول الاختراعات العجيبة ، والفكاهات البريئة ، وما يجود به رأسي المضطرب من طرائف . وفي حالات اليأس كنت أتخير للكتابة موضوعات غير مطروقة كانت تكلفني من المجهود ساعات طوالاً ، ويكون نصيبها بعد ذلك الرفض . وكلما انتهيت من كتابة فصل بدأت الهجوم على آخر ، وقلما أوهنت عزيمتي كلمة «لا» من رؤساء التحرير ، وكنت أقول لنفسي : « لا بد أن تحسن الحال يوماً ما » . وكنت إذا حالفني الحظ وكتب لي التوفيق ، أحصل على خمسة ريالات أجراً لجهد عصر يوم من الأيام .

عدت أدراجي من النافذة واتجهت نحو الكرسي الذي كنت أستخدمه لأموري كافة . وبللت ركبة بنطلوني اللامعة بقليل من الماء كي أكسبها شيئاً من السواد وأجعلها تظهر بمظهر الجدة . وبعد أن فعلت هذا دسست في جيبي ، كعادتي ، قلم رصاص وورقاً وانصرفت . وكي لا أسترعي نظر صاحبة الدار إليّ ، انسللت بخفة في السلم ، فقد كان مضى يومان على استحقاق كراء الغرفة ولم يكن في يدي شيء لأدفعه .

كانت الساعة التاسعة وقد امتلأ الجو بجعجعة العجلات وبالضجيج واختلط وقع أقدام المارة بأصوات سياط الحوذية ، فكان منها ترنيمة صباحية عجيبة . وجددت نشاطي جلبة هذه الحركة القائمة في كل مكان ، وابتدأت

أشعر بتزايد السرور . ولم يكن هنالك ما هو أبعد عن خاطري من رياضة صباحية في الهواء الطلق ، فماذا عسى يفيد الهواء رئتي ؟ لقد كنت شديد القوة كالعملاق وقد أتمكن من أن أعطل سير عربة بمنكبي! وتملكني شعور ناعم عجيب ، وهو إحساس بكل هذه اللامبالاة البَهِجَةِ ، فأخذت أرقب الناس الذين أقابلهم والذين أمر بهم ، وأقرأ إعلانات الحيطان ، وأتلقى وقع نظرات ركاب «الترام» المار بي ، وأدع كل صغيرة تتغلغل في نفسي ، ولو كانت من أصغر الأشياء التي تقع في طريقي وتختفي .

ولكن ليت لديّ قليلاً من الطعام لآكله في مثل هذا اليوم الجميل ، فقد ترك فيّ هذا الصباح المرح أثراً عظيماً ، فاغتبطت نفسي اغتباطاً لا مزيد عليه ، وابتدأت من فرط السرور أدندن ولا أشعر . وقد وقفت أمام حانوت قصّاب امرأة في ذراعها سلة تتأمل «المقانق» تريدها طعاماً لغدائها ، ونظرت إليّ عند مروري بها . ولم يكن في فمها غير سن واحدة في المقدمة ، ولما كنت في الأيام الأخيرة حديد المزاج سريع التأثر ، فقد ترك وجه المرأة في نفسي أثراً سيئاً . فقد كانت هذه السن الصفراء الطويلة أشبه بإصبع صغيرة نتأت من الفك العظمي . وعندما التفتت إليّ كانت نظراتها مُشْبَعة بالمقانق ، ففقدت شهوتي دفعة واحدة ، وأحسست ضيقاً ، ولما بلغت السوق قصدت النافورة وشربت قليلاً من الماء ، ونظرت في ساعة الكنيسة فإذا هي العاشرة .

واستأنفت مسيري في الشوارع لا ألوي على شيء ، وخليّت الأمور تجري في مجاريها ، كما خليّت الصباح البهيج يحملني إلى حيث شاء ، أروح وأغدو وأنا خلوٌ من الهموم أترنح بين غيري من التاعسين . وكان الجو خالصاً وصحواً ، فراقت نفسي ، فلا كدر فيها .

وتقدمني شيخ أعرج سار أمامي نحو عشر دقائق ، وكان يحمل حزمة في يده ، وقد انطلق مدفوعاً بكل جسده باذلاً ما فيه من قوة ليسبقني . ورأيته يلهث من التعب ، فخيل إليّ أن أحمل عنه حزمته ، ومع ذلك فإني لم أفكر في الاسراع وراءه واللحاق به . وفي شارع غرنزا لقيت هانس بولي ، فحياني مسرعاً ، فقلت في نفسي : «ترى ، لماذا يسرع هكذا في خطاه ؟» وفاتني أن أسأله ريالا ، كما فاتني أن أعيد إليه في أقرب فرصة غطاءه الذي كنت استعرته منه منذ بضعة أسابيع . واعترفت في نفسي ألا أكون مديناً لأي مخلوق بغطاء ، عندما تتحسن حالي قليلاً ، وربما ابتدأت اليوم في كتابة مقال عن جرائم المستقبل ، أو عن حرية الإرادة ، أو أي شيء آخر ، شيء ذي قيمة أحصل من ورائه على عشرة ريالات على الأقل . وبالتفكير في هذا المقال أحسست مرة واحدة أنني أريد الفرار من الزحام لأبدأ العمل في الحال وأغترف من رأسي المملوء... وسرت كي أبحث لي عن مكان في «حديقة القلعة» فلا يهدأ لي بال حتى أنتهي من الكتابة .

ولكن ذلك الشيخ الذي يتقدمني على طول الطريق ، كان لا يزال يقوم بتلك الحركات الملتوية . فابتدأت في النهاية أتضايق من سير هذا الرجل العاجز أمامي طول الوقت ، وبدت لي رحلته كأنها لا نهاية لها . وقد يكون هو الآخر قد قصد المحلة نفسها التي أقصدها ، فكأنه قد كُتِبَ عليّ أن يقع ناظري عليه طول الطريق . وخُيِّلَ إليّ في ثورة غضبي أنه يتريث متردداً عند مفترق كل طريق ، ليرى الطريق الذي سأسلكه ، ومن ثم يعود فيطوح بحزمته عالياً في الهواء ، ثم يندفع في المسير بكل قوته ليلحق بي . وكلما جددت في المسير رأيت هذا المخلوق الكسيح . فملأ الحنق صدري ، وشعرت أنه أخذ يفسد عليّ بالتدريج صفو مزاجي ، وأن هذا الصباح الجميل الصافي قد انقلب دفعة واحدة صباحاً بشعاً ، فقد بدا لي الرجل كحشرة

ضخمة كسيحة تريد أن تنفذ بالقوة والإكراه إلى مكان في العالم ، وأن تقصر عليها وحدها رصيف الشارع . ولما بلغت المرتفع لم أشأ أن أترك الأمر يسير إلى أبعد من هذا ، فقصدت نافذة أحد الدكاكين ، وبقيت هناك واقفاً ، كي أعطيه فرصة يبتعد فيها عني . ولكنني لمّا هممتُ بعد انقضاء بضع دقائق أن أستأنف سيري ، وجدت الرجل مرة أخرى أمامي ، وكان كأنه قد سُمّر في مكانه . فتقدمت بدون وعي ثلاث خطوات أو أربعاً حتى لحقت به ، وضربته على منكبه ، فتوقف دفعة واحدة ، وتفرس كلانا وجه صاحبه .

وأخيراً قال الرجل وقد أمال رأسه إلى ناحية :

ـ شلناً أشتري به لبناً .

فأُسقِطَ في يدي . وأخذت أبحث في جيوبي ، ثم قلت :

ـ للبن! اي نعم! يظهر أن مسألة النقود في هذه الأيام عسيرة ، ولا أدري مقدار حاجتك إليها!

فقال الرجل :

ـ لم أذق في «درامن» طعاماً منذ أمس ، ولا أملك فلساً واحداً . وفوق هذا فإني لا أجد عملاً .

ـ أصانع يدوي أنت ؟

ـ نعم ، أنا صانع إبر .

ـ ماذا ؟

ـ صانع إبر ، وأستطيع أن أصنع الأحذية .

فقلت له :

ـ إن هذا قد غيّر وجه المسألة . انتظرني هنا بضع دقائق ، وسآتيك بشيء من النقود .

واتجهت منحدراً بسرعة فائقة في شارع «الصفصاف» حيث كنت أعرف محلاً للتسليف على رهن . ولم يكن قد سبق لي دخوله ، وعندما وطئت عتبة الدار خلعت صداري بأسرع ما يمكن وطويته ، ثم أخفيته تحت ذراعي ، وصعدت في السلم ودققت باب الغرفة ، ثم انحنيت وألقيت بالصدار على خوان المحل .

فقال الرجل : ريال ونصف ريال .

فأجبته : نعم ، نعم ، أشكرك .

ولولا ضيق ذات يدي لما أحببت أن أفارق صداري . وأخذت النقود والأيصال ، وعدت أدراجي .

ولا ريب أن فكرة الصدار كانت فكرة بديعة ، فسيبقى لديَّ نقود للحصول على فطور سخي ، وسيكون في مقدوري حتى المساء أن أنتهي من كتابة مقالي عن جرائم المستقبل . ومنذ ذلك الوقت ابتدأت أهش للحياة ، وأسرعت عائداً للرجل لأتخلص منه . وقلت له :

ـ تفضل فخذ هذا ، وإني لمسرور جد السرور من أنك قصدتني قبل أن تقصد غيري .

ترى ، ماذا جعله يقف مكانه يتأملني ؟ ودخل في ذهني أنه يتأمل بصفة خاصة ركبة بنطلوني ، فآلمتني هذه الوقاحة! أو يظن هذا الوغد أني فقير حقاً إلى هذا الحد الذي ينبىء عنه مظهري ؟ أو لم أبدأ كتابة مقال تقدر قيمته بعشرة ريالات ؟ أنا لا أخشى المستقبل البتة ، فالمادة لديَّ موفورة . وماذا

عسى يهم غريباً عني إن كنت أتفضل بشيء من النقود في يوم صحو كهذا اليوم ؟ إن نظرة ذلك الرجل تضايقني ، ولذا صممت على تأنيبه قبل أن أغادره ، فهززت كتفي وقلت له :

ـ إن فيك يا عزيزي خصلة قبيحة ، وهي تحديقك إلى ركبة من يعطيك ريالا .

فألقى الرجل برأسه إلى الحائط ، وفغر فاه . وتضاربت الأفكار في رأس هذا السائل ، وغلب عليه الظن أني أردت بهذه الطريقة أو تلك أن أهزأ به ، فناولني قطعة النقود ثانية .

فضربت الرصيف بقدمي ، وسببت وصخبت ، إذ كان لا بد للرجل من الاحتفاظ بالنقود . أو يحسب أني أردت أن أكابد كل هذه المشاق عبثاً ؟ الخطب يسير . ليفترض أني مدين له بريال ، وأنا بطبيعتي أذكر ما عليّ من الديون القديمة! وهو إنما يقف أمام إنسان شريف صادق حتى أخمص قدميه . وبالاختصار ، قد تكون هذه النقود نقوده...... آه ، عفواً! لا محل للشكر ، لقد كان لي في هذا العمل سرور عظيم . إلى الملتقى .

وأخذت طريقي بعد أن أبعدت هذا المشوه الظالم عني . وبذا صار في مكنتي أن أبقى في أمن وسلام ، واستأنفت السير في شارع الصفصاف ، ثم توقفت أمام محل للمأكولات ، وكانت واجهته ملأى بالأغذية ، فاعتزمت اقتحامه لأتزود منه في طريقي بعض الطعام .

وألقيت بنصف ريالي على المائدة قائلاً :

ـ قطعة جبن ، وقرصاً من الخبز الفرنسي .

فسألت المرأة متهكمة ، وبدون أن ترفع نظرها إليّ :

ـ أتريد خبزاً وجبناً بالمبلغ جميعه ؟

فأجبتها بدون تلعثم : نعم ، بالخمسين «أورا» كلها .

وتناولت حاجتي وحييت العجوز البدينة بغاية الأدب ، وأخذت طريقي صاعداً إلى مرتفع القلعة في الحديقة . فألفيت مقعداً غير مشغول أستطيع أن أشغله وحدي ، فبدأت أتناول الطعام بشره . وقد أفادني ذلك كثيراً ، فقد مضى عليَّ زمن طويل لم أتمتع فيه بغذاء وفير كهذا . وأخذت أحس بالتدريج ما يحسه الواحد من الطمأنينة الكاملة بعد طول البكاء . وأخذت شجاعتي تترعرع وتقوى ، ولم يعد يكفيني أن أكتب مقالاً واحداً عن أمر تافه بسيط كمقال «جرائم المستقبل» الذي في استطاعة كل واحد أن يكتبه : فإما أن يخترعه اختراعاً ، وإما أن يستخرجه من بطون التاريخ . شعرت أني كفء للقيام بمجهود أعظم ، وأحسست فيَّ استعداداً للتغلب على الصعاب ، فعقدت العزم على تنميق مقال من ثلاثة فصول عن «المعارف الفلسفية» فيه سأجد بالطبع فرصة لتفنيد «مزاعم» الفيلسوف كانط تفنيداً مؤلماً! وما كدت أخرج أدوات الكتابة وأبدأ العمل حتى عرفت أن قلمي الرصاص ليس معي ، فقد نسيته في محل الرهون حيث خلفته في جيب صداري .

يا لله! كيف تنعكس الأمور معي! وأخذت أسب وأصخب ، ثم نهضت من مقعدي وصرت أغدو وأروح في الطرقات ، وقد كان كل شيء ساكناً ، وعلى مسافة هناك بعيدة من دار «ملهى الملكة» كانت تجول مربيتان بعربتين فيهما طفلان ، ولم يكن يُرى إنسان غيرهما في الطريق . وتملكني الحنق في الصميم .

فأخذت أروح وأغدو أمام مقعدي . أوَ ليس عجباً أن تسوء الأمور من كل ناحية! مقال من ثلاثة فصول ، تكتب له الخيبة لأوهن الأسباب ، لمجرد

أني لا أملك في جيبي قطعة قلم رصاص ثمنه عشرة أورات! لو أني أعود إلى شارع الصفصاف فأسترد قلمي ، فسيبقى لديّ برغم ذلك وقت كافٍ لإنجاز جزء كبير من المقال قبل أن تبدأ الحديقة تغصّ بالمتنزّهين . فعلى مقال «بحث في المعرفة الفلسفية» هذا تتعلق أمور كثيرة ، فمن يدري! فلعله يكون لسعادة كثير من الناس . وقلت في نفسي : «ربما كان فيه عون عظيم لبعض الشبان!» ولما تدبرت الأمر لم أجدني في حاجة لمهاجمة « كانط » ففي الإمكان اللف حوله . ولست في حاجة عند معالجة مسألة الزمان والمكان إلا إلى عمل دورة غير ملحوظة . أما رينان ، هذا القس الريفي العجوز ، فإني لم أكن أحب أن أُأيده .

على أية حال ، كان من الضروري إعداد مقال من كذا من الأعمدة ، فكراء الغرفة الذي لم يدفع بعد ، ونظرة صاحبة الدار الطويلة في الصباح عندما ألقاها على السلم ، كانا يعكران صفوي طول النهار ، ويطفوان في ساعات ابتهاجي إذا ما خلا رأسي من الأفكار السوداء ، فكان من الضروري وضع حد لهذه الحال . فهرولت مسرعاً من الحديقة لأسترد قلمي الرصاص من دار الرهون .

وعندما نزلت من مرتفع القلعة التقيت بسيدتين . وبمروري عليهما لمست إحداهما ، وتطلعت إليها ، فإذا هي ذات وجه مملتىء شاحب بعض الشحوب . فاحمرت وجنتاها فجأة ، فبدت آية من الجمال ، ولم أدر سبباً لذلك . ربما كان ذلك لسماعها كلمة من أحد المارة . وربما كان لمجرد فكرة هادئة جالت في نفسها . أو لعله بسبب لمسي ذراعها . وأخذ صدرها المرتفع يعلو ويهبط بشدة عدة مرات ، وتشبثت يدها بعصا المظلة ، فيا ترى ، ما حدث لها ؟

بقيت واقفاً في مكاني وخليتها تتقدمني . ولم أكن في تلك اللحظة قادراً على المسير ، فقد كانت كل هذه الأمور غريبة بالنسبة لي ، وكنت هائج الخاطر ناقماً على نفسي بسبب حادث قلم الرصاص ، كما كنت في غاية الاضطراب من جراء مقدار الطعام الذي التهمته ومعدتي خالية . وفجأة خطر لي خاطر عجيب : أحسست في نفسي رغبة شديدة في مضايقة هذه السيدة باقتفاء أثرها وإغضابها بأية وسيلة ، فعدت ولحقت بها وجاوزتها ، وكررت بغتة عائداً فلاقيتها ، ثم واجهتها وجهاً لوجه كي أتأملها ، وحدقت إلى عينيها ، واستنبطت لها في الحال اسماً لم أسمع به من قبل ، اسماً خفيفاً ذا وقع عصبي : يلا يالي! ولما اقتربت مني نصبت قامتي وقلت لها في تطفل :

ـ أيتها الآنسة ، قد أضعتِ كتابك .

وما كدت ألفظ بهذا حتى سمعت دقات قلبي .

فقالت لرفيقتها : « كتابي ؟ » ثم استأنفت المسير :

فازداد حنقي وأقتفيت أثرها ، وكنت واثقاً أني أمزح في هذه اللحظة مزاحاً سخيفاً ، وأن لا سلطان لي على ضبط نفسي ، فقد جعلني ارتباك أحوالي جموحاً ، وأوحى إليّ أسخف الخواطر التي كنت أستمع إليها واحداً بعد واحد . ومع أني أعترفت في قرارة نفسي بأن مسلكي أحمق وأنه لا يؤدي إلى شيء ، فإني كنت على الرغم من ذلك أعوج وجهي من وراء ظهر السيدة ، وكلمّا مررت عليها سعلت عدة مرات بشدة . وعلى هذا النحو سرت أمامها متلكئاً وبيننا بضع خطوات . فأحسست عينيها مصوبتين إلى ظهري فانحنيت بدون وعي من الخجل ، لمضايقتي لها . وبالتدريج شملني إحساس غريب ، هو الرغبة في الابتعاد والتحول إلى مكان آخر ، فقد أدركت بعض الإدراك أني لست بالذي يسير على رصيف الطريق مطأطىء الرأس .

وبعد مضي دقائق بلغت السيدة مكتبة الباشا ، وكنت إذ ذاك قد وقفت عند أول واجهة بلغتُها . فلما مرت بي تقدمت إليها وأعدت عليها قولي :

ـ أيتها الآنسة ، قد أضعتِ كتابك .

فقالت غاضبة : لا . أي كتاب ؟ أتعرفين عن أي كتاب يتكلم ؟

ثم وقفت ، فتولاني سرور وحشي لارتباكها ، وسحرتني هذه الحيرة في عينيها . ولم يقوَ ذهنها على فهم عبارتي المتواضعة ، فلم يكن معها كتاب ، حتى ولا ورقة من كتاب . ومع ذلك أخذت تبحث في جيوبها ، وفتحت يديها وأعادت إليهما النظر مراراً ، وأدارت رأسها ، ونظرت إلى الشارع من ورائها ، وأجهدت رأسها الصغير السريع التأثر كل الإجهاد ، لتعرف عن أي كتاب أتكلم . وأخذ لون وجهها يتبدل ، فظهرت عليها التأثرات المتتابعة ، وأخذت تتنفس تنفساً مسموعاً ، وبدت لي الأزرار التي على ثوبها كصف من العيون الواجفة تحدق إليّ .

فجذبتها رفيقتها من ذراعها وقالت لها :

ـ دعيه وشأنه ، إنه سكران ، أو لم تلاحظي أنه سكران ؟

ومع أني كنت في تلك اللحظة غريباً حتى عن نفسي ، وفريسة لتأثرات غير ملحوظة ، فقد تحققت من كل شيء مر بي : فقد قفز كلب أسمر كبير في عرض الشارع ، قبالة المتنزهات ، ونزل صوب تيفولي ، وكان له طوق من المعدن المفضض . ورأيت هناك على بعد في أعلى الطريق نافذة مفتوحة في الدور الأول وقد انحنت عليها خادمة كشفت عن ذراعيها ، تنظف ألواح الزجاج من الخارج . لم يفتني شيء ، فقد كنت صافي الذهن حاضره ، فكان كل شيء أمامي واضحاً جلياً كما لو كان قد تفجّر نور قوي حولي بغتة .

وكان للسيدتين اللتين تسيران أمامي ريش على قبعتيهما ، ورباط حريري مخطط حول العنق . وخُيِّلَ إليَّ أنهما شقيقتان .

وانعطفتا ثم توقفتا عند دكان الموسيقي إيزلر وأخذتا تتحدثان معاً . فوقفت أنا الآخر في مكاني ، فعادتا فأخذتا الطريق نفسه الذي جاءتا منه ومرتا بي ، ووقفتا قليلاً عند ناصية شارع الجامعة ، ثم سارتا تواً إلى ميدان القديس أولافس . ولزمتهما طول الوقت على أعقابهما ، فالتفتتا إليَّ مرة وأرسلتا إليّ نظرة فيها شيء من الوجل وشيء من التساؤل . ولم ألحظ على وجهيهما أثراً للغضب أو التجهم ، فجعلني هذا الصبر الجميل على مضايقتي لهما أطرق برأسي من شدة الخجل . ولم أشأ مضايقتهما أكثر من ذلك ، ولكني أردت على سبيل الشكر الخالص أن أتبعهما بالعين وحدها ، بحيث لا تغيبان جملة عن ناظري ، وإلى أن تدخلا في أحد المحال وتختفيا عني .

وقصدتا مرة أخرى المنزل رقم ٢ وهو منزل كبير من ثلاث طباق ، ثم ولجتا فيه ، فاتكأت على عمود مصباح قرب النافورة وأصغيت إلى وقع أقدامهما في السلّم حتى خفي وهما عند الدور الأول . ثم ابتعدت عن المصباح وتطلعت إلى الدار ، وهنا حدث أمر غريب : فقد رفعت الستائر وفتحت النافذة وأطل منها رأس ، فوقعت عليّ عينان مشرقتان عجيبتان ، فقلت بصوت منخفض بعض الانخفاض : يلا يالي! وشعرت بالحمرة قد علتني . ترى ، لماذا لا تدعو إلى النجدة ؟ أو تلقي بأصيص الزهر عليَّ حتى يقع على رأسي ؟ أو تبعث ورائي من يطاردني ؟ ثم وقفنا ينظر الواحد إلى الآخر بدون حراك . واستمر هذا دقيقة ، وانطلقت الأفكار بين النافذة والشارع ، هنا وهناك بدون أن نلفظ كلمة واحدة . ثم تحولت إلى ناحية أخرى ، فانتفض جسدي ، فقد أصابتني بطعنة رقيقة في روحي إذ رأيت

الكتف التي أدارتها ورأيت الظهر الذي اختفى في الغرفة! إن هذا التحول عن النافذة ، وإشارة التوكيد هذه التي كانت في حركة كتفها ، كانا لي بمثابة إيماءة . وقد استمعت نفسي إلى هذه التحية الرقيقة وانشرح صدري في الحال ، فتحولت عن مكاني وأخذت طريقي .

ولم أقوَ على معاودة النظر إلى الوراء ، ولم أدرِ أكانت قد عادت مرة أخرى إلى النافذة أم لا . وكلما فكرت في هذه المسألة تزايد قلقي وهاجت أعصابي . وأكبر الظن أنها كانت واقفة في تلك اللحظة عند الشباك ، تتبع حركاتي تماماً . وأن تعرف أنك مراقب من وراء ستار ، لا يطاق بأية حال . فاستجمعت قوتي بقدر ما استطعت واستأنفت المسير ، فابتدأت ساقاي تلتويان ، وأصبح مشيي غير متزن ، لأني تعمدت أن أجعله متناسقاً . وحتى أظهر بمظهر المطمئن غير المكترث ، جعلت أطوح ذراعي بدون وعي ، وأبصق في الشوارع وألقي برأسي إلى الوراء . ولكن كل هذا لم يفدني شيئاً ، فكنت أحس على الدوام العينين اللتين تتبعاني من الوراء ، فسرت البرودة في جسمي . وأخيراً أنقذت نفسي بالدخول في شارع مجاور ، ومنه أخذت طريقي إلى شارع الصفصاف أقصد الحصول على قلمي الرصاص .

ولم أحتج إلى عناء كبير في استرداده ، فقد أحضر لي الرجل بنفسه الصدار ، ورجاني أن أتفقد جيوبه كلّها ، فوجدت بها كذلك بعض إيصالات الرهن ، فدسستها في جيبي وشكرت لهذا الرجل الأنيس حسن مجاملته . واشتد إعجابي به ، وأهمّني بغتة أن أترك في نفسه أثراً خاصاً طيباً ، فاتجهت إلى الباب ، ثم عدت ثانية إلى خوان المحل كما لو كنت نسيت شيئاً ، فقد تصورت أني مدين له ببعض الإيضاحات ، فابتدأت أدندن لأستلفت نظره ، ثم تناولت قلم الرصاص في يدي ورفعته عالياً في الهواء وقلت :

ـ إنه ليصعب عليَّ أن أدرك أن بعضهم يقطع طريقاً بعيدة من أجل بقية قلم رصاص . ولكنَّ لهذا القلم شأناً آخر تماماً . ومهما بدا لك الأمر تافهاً ، فإن قطعة قلم الرصاص هذه قد عملَت مني من تراه ، وهيأت لي مكاني في الحياة .

ولم أزد حرفاً . فاقترب الرجل من المائدة وأخذ يتأملني بفضول وقال :

ـ آه! آه!

فاستأنفت الحديث في هدوء وقلت :

ـ وبهذا القلم كتبت مقالي «بحث في المعرفة الفلسفية» في ثلاث مجلدات ، ولعلك سمعت بحديثها ؟

خُيِّلَ إلى الرجل بالفعل أنه سمع بهذا العنوان . وقلت :

ـ نعم ، هذا من قلمي هذا! ولا مجال للعجب اذ اردت استعادة بقية قلم الرصاص هذه ، إذ إن لها قيمة كبيرة في نظري . فهي عندي تقريباً بمثابة طفل صغير . بقي عليَّ أن أشكر لك رقتك مخلصاً ، وسأذكر هذا لك دائماً . نعم ، نعم . سأذكر لك ذلك حقاً ، فكلمتي كلمة شرف ، وإنك لتستحق الشكر ، فإلى الملتقى .

وسرت إلى الباب بقدم ثابتة كما لو كان في يدي أن أقلِّده وظيفة عالية . وما كدت أفارقه حتى حنى المرتهن الأنيس رأسه أمامي مرتين ، فالتفت إليه مرة أخرى وقلت : إلى الملتقى .

والتقيت في السلم بامرأة تحمل في يدها حقيبة ، فانتحت جانباً في وجل كي تفسح لي في الطريق لأني كنت أمشي متعجرفاً ، فدسست يدي بدون وعي في جيبي لأعطيها شيئاً ، ولما لم أجد شيئاً غضضت من

كبريائي ، ومررت بها خافضاً جناحي . وبعد قليل سمعتها تدق هي أيضاً باب محل الرهونات ، إذ كان على هذا الباب شبكة من الأسلاك ، فتعرفت في الحال إلى رجع الصدى الذي يحدثه عندما تلمسه عقدة إصبع .

وكانت الشمس قد وقفت في الجنوب ، وكانت الساعة حوالى الثانية عشرة . وابتدأت المدينة تقف على قدم وساق وقد اقتربت ساعة الاستراحة وأخذ أفواج الناس يروحون ويجيئون مسلمين باسمين في شارع كارل جوهان ، فضممت مرفقي إلى جسدي وزممت نفسي وانسللت غير ملحوظ من بعض معارفي الذين كانوا يشغلون إحدى الزوايا بالقرب من الجامعة لملاحظة السابلة ، وصعدت مرتفع القلعة وغرقت في بحر أفكاري .

كل هؤلاء الناس الذين لقيتهم يحركون رؤوسهم الشقراء الفارغة من الهموم في رفق ومرح ، ويترجحون في الحياة كما لو كانوا في مرقص ، ليس للهم أثر في عيونهم ، لا ولا على أكتافهم عبء من الأعباء ، بل ربما لم تسر أية فكرة محزنة ، أو أي أثر لأدنى ألم في احدى هذه النفوس المطمئنة . هناك سرتُ ملاصقاً لهؤلاء الناس وأنا في ميعة الشباب لم تكد تتفتح زهرة حياتي وإن كنت قد نسيت كيف تكون السعادة . ودارت هذه الأفكار في خلدي ، فوجدت أن ظلماً صارخاً قد حاق بي . ألا ليت شعري لماذا قست عليّ الشهور الأخيرة كل هذه القسوة ؟ ولم أعد أحسن التفكير فقد كنت أكابد من كل ناحية أشد الآلام . ولم يعد في طاقتي أن أجلس وحدي على أحد المقاعد ، أو أن أتحرك إلى أية ناحية بدون أن تقع حوادث صغيرة تافهة ، صغائر مؤلمة ، تنفذ إلى فكري فتمزق قواي كل ممزق : فكلب ينسل من جانبي ، أو وردة صفراء في عروة رجل ، كانا كافيين لإثارة خاطري ، وإلى أن يأخذا من وقتي زمناً طويلاً . ترى ، ماذا يضايقني ؟

أوَ كانت تعنيني المقادير ؟ ولماذا أكون أنا بالذات قصداً لها ؟ ولماذا لا يكون رجل آخر في أمريكا الجنوبية ، مثلاً ، إذا كان لا بد من ذلك ؟ تدبرت هذه الأمور جيداً ، فرأيتني عاجزاً عن إدراك السر في اختيار النعمة الإلهية لي وحدي كمحك لبلائها . والحق أنه من الغرابة بمكان أن تتخطى هذه «النعمة» العالم بأسره لتصل إليَّ ، فيما يكون تحت يدها الباشا بائع الكتب والأثريات ، مثلاً ، والشحّان البحري هينيشن .

استأنفت المسير أفكر في هذه الأمور ، فلم أستطع إدراكها إذ نهضت لي البراهين الدامغة على ظلم القدر لي بجعلي أكفر عن خطايا الناس جميعاً . وحتى بعد أن وجدت مقعداً جلست عليه عادت إلي هذه المسألة تشغلني وتعوقني عن التفكير في أي شيء آخر . ومنذ ذلك اليوم الذي ابتدأت فيه آلامي في شهر أيار ، أخذت ألحظ ضعفي يتزايد بوضوح يوماً بعد يوم ، وبت أضعف من أن أضبط نفسي أو أقودها إلى حيث أريد . ونفذت طائفة من الجراثيم الصغيرة المؤذية إلى قرارة نفسي وطفقت تفسد فيها . وإذا كان قد جرى في علم الله أن يقضى عليَّ القضاء المبرم ، فليت شعري كيف كان ذلك ؟ وانتصبتُ واقفاً وأخذت أسير أمام مقعدي ذهاباً وإياباً .

وبلغت نفسي في تلك اللحظة أشد درجات العذاب ، كما كان بذراعي ألم لم يكن من الهين معه إمساكهما كالمعتاد . وأحسست كذلك مضايقة كبيرة من ثقل الطعام الأخير ، فقد كنت متخماً متعب الرأس ، فأخذت أرتاض على قدمي بدون أن أرفع بصري ، وكانت الناس حولي تجيء وتذهب كأشباح تمر بي . وأخيراً جاء رجلان واحتلا مقعدي وأشعلا سيجارتيهما ، وأخذا يتحدثان بصوت عال ، فثارت ثائرتي وأردت أن أوجه لهما الحديث ، ولكني عدت فسرت إلى الناحية الأخرى من الحديقة حيث وجدت مقعداً آخر جلست عليه .

وعاد التفكير في الله يشغل وقتي ، فوجدت أنه ليس من الرحمة أن تسدّ وجوه الحياة أمامي فيقضى عليّ بالخيبة في كل مرة أبحث فيها عن وظيفة ، بل عن قوت يوم أطمع فيه . وتبين لي أني كنت كلما مرت بي مدة طويلة لم أذق فيها الطعام ، أحسّ كأن مخي يتطاير ببطء من رأسي ، وكأن رأسي صار خاوياً فلا أعود أحسّ ثقله فوق منكبي . وكنت أشعر بأني كلما نظرت إلى أحد ، تظل عيناي مفتوحتين تحدقان .

جلست على المقعد أقلب الفكر في كل هذا ، فزاد حنقي على الخالق بسبب تعذيبه المستمر لي . فلئن كان يحسب أنه بإيلامي ووضعه العقبات في طريقي ، يجذبني إلى حظيرته ويصلحني ، فإني أستطيع أن أؤكد له أنه قد أخطأ التقدير! ثم تطلعت إلى السماء وأنا أكاد أبكي من هذا التحدي . لقد قلت له هذا بهدوء في ضميري للمرة الأولى والأخيرة .

ومرت بخاطري بقايا معتقدات الطفولة ، ورنّ في أذني وقع أنغام الإنجيل ، فأخذت أكلم نفسي همساً ، وأملت رأسي ساخراً إلى ناحية : فيم كل هذا الاهتمام بما عساي آكله ، وبما عساي أشربه ، وبما عساي أكسو به جعبة الحشرات الحقيرة التي اسمها جسدي الفاني ؟ أو ليس الله رب السموات والأرض يرزقني كما يرزق الطير في الجو ؟ أفلم يتفضل عليّ فيشير إليّ بإصبعه عبداً مطيعاً له ؟ لقد أدخل الله إصبعه في شبكة أعصابي ، ولوى خيوطها بعض الليّ بحذر ورشاقة . ثم استرجع إصبعه فإذا فوقها خيوط أنسجة دقيقة من أنسجة أعصابي . وخلفَتْ إصبعه ثغرة مفتوحة ، إصبعه تعالى ، فبقيت ندوب في مخي من أثر إصبعه . ولكنه تعالى لمّا لمسني بإصبع يده تركني وشأني ، فلم ينزل بي مكروهاً ، فكم من مرة تركني أروح وأغدو في أمن ، أسير بهذه الثغرة المفتوحة فيْ رأسي ، ولم ينزل بي مكروهاً... هو الله السرمدي...

وحملت إليّ الرياح دقّات الموسيقى من دار الطلبة ، وكانت الساعة قد دقت الثانية ، فأخرجت أوراقي وعالجت كتابة شيء ، فسقط مني في الوقت نفسه دفتر اشتراكي عند الحلاق . ففتحته وعددت قسائمه ، فكان لا يزال باقياً به ست قسائم ، فقلت من غير تفكير : «الحمد لله! فإنه ما زال في استطاعتي أن أحلق بضعة أسابيع أظهر فيها بمظهر مناسب» . وسرعان ما سرَت عن نفسي هذه الثروة الصغيرة التي بقيت في حوزتي ، فسوّيت القسائم بعناية ، وحفظت الدفتر في جيبي .

أما الكتابة فلم يكن في مقدوري معالجتها إذ بعد كتابة بضعة سطور عدمت التفكير ولم أقوَ على بذل أي مجهود آخر لتشتت أفكاري . وكان كل شيء يؤثر فيّ ويربكني ، فكل ما وقع عليه نظري كان يترك في نفسي أثراً جديداً . فقد ضايقني الذباب وصغار الناموس اللواتي حَطّتْ على الورق وتشبثتْ به ، فكنت أنفخها لإبعادها ، أنفخها بشدة مرة أخرى ، ولكن بدون جدوى ، فقد أمالت هذه الحشرات الصغيرة أجسامها إلى الوراء فعززت نفسها ، واستقتلت في الكفاح ، حتى اتسعت الفرجة بين سيقانها الدقيقة ، فلم يكن في الطاقة زحزحتها من مكانها . وكانت تجد على الدوام شيئاً تتعلق به ، فتثبت أعقابها في فاصلة في الكتابة ، أو قلقلة في الورقة ، وتبقى ساكنة مطمئنة حتى تجد هي من نفسها ميلاً إلى الرحيل .

واستمرت هذه الحشرات الصغيرة تشغلني زمناً طويلاً ، فوضعت ساقاً على ساق وأخذت أراقبها مدة غير قصيرة . وبغتة دوى في المتنزه نغم عالٍ منبعث من مزمار أو مزمارين ، فكان بمثابة صدمة جديدة لأفكاري . فأعدت الورق إلى جيبي حانقاً لعدم تمكني من تحرير مقالي ، وعدت فأتكأت على المقعد . وكان ذهني في تلك اللحظة من الصفاء بحيث كنت أستطيع أن أذكر

أدق الخواطر بدون أي إجهاد . وبينما أنا على هذه الحال مرسلاً نظراتي إلى صدري وقدميّ ، لحظت الحركات المضطربة التي كانت تقوم بها ساقي عند كل نبضة ، فاعتدلت بعض الاعتدال وألقيت نظرة على ساقي ، فتولاني عندئذٍ إحساس خيالي عجيب لم أحسه من قبل ، وسرت في أعصابي هزة رقيقة عجيبة كما لو سرى فيها شؤبوب نور . وعندما ألقيت النظر على حذائي خيل إليّ أني التقيت برفيق قديم ، أو كأنما رُدَّ إليَّ عضو كان قد فصل مني ، فأرعشني إحساس التعرف إليه ، ودمعت عيني أو كادت وأحسستُ كأن حذائي نغم ضعيف صافر ينفذ الى أعماق قلبي ، فقلت في نفسي : «هذا ضعف!» وكوّرت يدي ودعوت نفسي بسبب هذه الاحساسات السخيفة أحمق ، وسخرت منها بحق ، وأخذت أتكلم بعنف وبصوت عالٍ ، وعصرت عيني بشدة كي أسترجع الدموع مكانها . ولما كنت كمن لم ير حذاءه من قبل ، فقد انشغلت به في ذلك الوقت وأخذت أدرس منظره الخارجي وتقاطيعه عندما أحرّك قدمي : قالبه وجزأه الأعلى البالي! فلحظتُ أن التثنيات والخيوط البيضاء قد خلعت عليه طابعاً خاصاً ، فقد كان في هذا الحذاء شيء من طبيعتي قد تسرب إليه . فأثر فيّ تأثير النفَس في نفسي ، فكان مني بمثابة عضو من أعضاء التنفّس .

وجلست أداعب هذه التأملات زمناً طويلاً ربما استغرق ساعة كاملة . ثم جاء رجل قصير مسن وأخذ مجلسه على الطرف الآخر من المقعد . وعند جلوسه أخذ يشهق بشدة مرة بعد الأخرى ، ثم قال :

ـ نعم ، نعم ، نعم ، نعم ، نعم ، نعم ، آه! نعم .

وما سمعت صوته حتى كان كريح تعصف في رأسي ، فتركت الحذاء كما هو ، وبدا لي بالفعل أن أفكاري المضطربة التي كنت أحيا فيها ، ترجع

إلى زمن بعيد... ربما ترجع إلى عام أو عامين ، وأنها على وشك أن تمحى بالتدريج من ذاكرتي ، فهيأت نفسي للتحقق من هذا الشيخ العجوز .

وماذا عسى يعنيني من أمر هذا الرجل القصير ؟ لا شيء مطلقاً ، إلا أنه كان يمسك بنسخة من صحيفة قديمة ظهر منها قسم الإعلانات ، فخيل إليَّ أنه قد لف فيها شيئاً . فتحرك الفضول في نفسي ولم أستطع صرف نظري عن الصحيفة . وتواردت عليّ أفكار رعناء ، فربما كانت هذه الصحيفة ذات لون خاص ، والوحيدة من نوعها! وتزايد فضولي وصرت قلقاً في مكاني... فربما كان بها مستندات ، أو ملفّات خطرة قد سُرقت من خزانة ما . وطافت برأسي فكرة اتفاق سري... فكرة مؤامرة .

جلس الرجل صامتاً يفكر . ترى ، لماذا لا يحمل الرجل الصحيفة وعنوانها إلى الخارج كما يحملها كل إنسان آخر ؟ أي نوع من الحيلة هو هذا ؟ إنه ليظهر عليه أنه لا يود أن يترك الحزمة من يده ولو سُووِمَ على ذلك بالعالم! بل ربما لم يجازف مرة واحدة بأن يستودعها جيبه... وإني لأراهن بحياتي على أن شيئاً ما يختفي وراءها .

فنظرت في الخلاء ، ولكن استحالة التدخل بصفة خاصة في هذه المسألة الغامضة جعلتني من الفضول في شدة القلق ، فنقبت في جيوبي لعلِّيَ أجد شيئاً أعطيه الرجل فأجد سبيلاً للتحدث معه ، فأمسكت يدي دفتر اشتراكات الحلاقة ، غير أني أعدته إلى مكانه . وفجأة خطر لي خاطر في نهاية الجرأة ، فضربت جيبي الخاوي بيدي وقلت :

ـ أتسمح لي بأن أقدم لك سيجارة ؟

ـ أشكرك ، أنا لا أدخن ، إذ اضطررت للانقطاع عن التدخين صيانة لنظري ، فقد كنت على وشك العمى . شكراً لك على أية حال .

فسألته : هل مضى عليه زمن طويل وهو يشكو ألم عينيه ؟ وهل هو غير قادر حقاً على المطالعة ، حتى ولا في الصحف ؟

- آسف يا سيدي ، حتى الصحف لا أستطيع قراءتها .

وحدّق الرجل إليّ .

وكان على كلتا العينين المريضتين غشاوة رقيقة فبدتا جامدتين ، وكان لنظراتهما أثر كريه . ثم قال :

- أغريب أنت هنا ؟

- نعم . ترى ، أليس في مقدورك قراءة عنوان الصحيفة التي تمسكها في يدك ؟

- بصعوبة . وعلى العموم ما كدت أسمعك حتى عرفت في الحال أنك غريب ، فقد كان في نبرات صوتك ما ينبىء بذلك . ولمثل هذا لا أحتاج إلى كبير عناء ، فأنا حاد السمع أستطيع أن أسمع في جوف الليل أنفاس النائمين في الغرفة المجاورة عندما يسكن الجميع . إنما أريد أن أسألك أين تسكن .

فحضرتني في الحال أكذوبة ، فأجبته كاذباً من غير عمد ، وبدون قصد ولا تدبر :

- في رقم ٢ بميدان القديس أولافس .

- أصحيح هذا ؟

فقد كان الرجل يعرف كل حجر في ميدان القديس أولافس . هناك نافورة ، وبعض أعمدة للمصابيح ، وبضع أشجار ، وهو يذكر هذا كله... وما رقم دارك ؟

فأردت أن أضع حداً لهذه الفكرة الراسخة في رأسي بشأن الجريدة ، وذلك بالذهاب إلى أبعد ما يمكن الذهاب إليه ، إذ كان لا بد لي من كشف هذا السر مهما كلفّني .

ـ وإذا كنت لا تستطيع قراءة هذه الصحيفة فلماذا...

فاستأنف الرجل كلامه بدون أن يتنبه إلى قلقي :

ـ أنت تقول رقم ٢ ؟ ما اسم صاحب الدار ؟ فأنا كنت أعرف فيما مضى كل سكان الدار رقم ٢ .

ولكي أتخلص منه اخترعت على عجل اسماً ركبته في لحظة واحدة وألقيت به إليه...

فطأطأ الرجل رأسه وقال :

ـ نعم ، هابولاتي .

ولم ينتقص ولا مقطعاً واحداً من هذا الاسم الصعب .

فنظرت إليه متعجباً ، فإذا هو يجلس في مكانه جاداً ، وكانت عليه إمارات التفكير . ولم أكد ألفظ هذا الاسم السخيف الذي حضرني حتى وجد الرجل طريقه وتصنّع كما لو كان قد سمعه من قبل . فأحسست أعصابي تهتز من الفضول ، ولاحظت أن في الصحيفة بعض بقع من الدهن . وسألني :

ـ أليس صاحب الدار هذا ملاحاً ؟ إني على ما أعتقد أذكر أنه ملاح!

ولم يبدُ أيَّ أثر للتهكم في صوته .

ـ ملاح ؟ عفواً . ربما تعني أخاه الذي يعنون اسمه هكذا : ي . ا . هابولاتي . وسيط .

وظننت أن هذا سيضع حداً للمسألة ، ولكنه سايرني مغتبطاً إلى أبعد من هذا ، وقال وكأنه يتلمس طريقاً للكلام :

ـ لا بدّ أن يكون رجلاً نشيطاً ، فكذلك سمعت عنه .

فأجبته : إنه رجل داهية! رجل أعمال ماهر! وسيط لكل عمل ، فمن توت بري من بلاد الصين ، إلى ريش وزغب من بلاد روسيا ، إلى جلود وخشب وحبر...

فقاطعني الرجل وهو في أشد درجات الابتهاج :

ـ ها ، ها ، ها! قاتله الشيطان!

فابتدأ يلذ لي الحديث ، ولم أعد قادراً على ضبط نفسي فأخذت تنبت في رأسي أكذوبة تلو أخرى . وعدت وأخذت مجلسي ونسيت الصحيفة والمستندات العجيبة ، وأخذتني الحمية فصرت أقاطع محدثي ، وقد جعلتني سهولة تصديق هذا القزم الصغير لي نزقاً ، فأحببت أن أبالغ في الكذب عليه بدون أي اعتبار له وأن أصرعه بقوة في هذا الميدان .

ـ أسمعت عن العمل الكهربائي الذي اكتشفه هابولاتي ؟

ـ ماذا ؟ الكهـ.. ؟

ـ الإضاءة بحروف كهربائية في الظلام! مشروع هائل! ملايين من الريالات تتحرك ، مسابك ومطابع تعمل ، جيش من الموظفين الميكانيكيين المنكبين على العمل يقدر بسبعمائة رجل... كما سمعت...

فقال الشيخ في خفوت :

ـ نعم ، أظن ذلك ، نعم!

ولم يزد حرفاً واحداً ، فقد صدّق كل كلمة قلتها ، ولم يأخذه مع ذلك العجب ، فخيب رجائي بعض الشيء ، فقد كنت أتوقع أن تربكه مفاجآتي .

واخترعت بعض أكذوبات جرينة تكاد تلمس باليد ، فهمست إليه بأن هابولاتي كان وزيراً في العجم مدة تسعة أعوام... وسألته إذا كانت لديه أية فكرة عما ينطوي تحت كلمة «وزير في السجم» . إنه أكثر من ملك عندنا ، ويكاد يساوي سلطاناً ، إذا كان يعلم ما هو السلطان . ولكن هابولاتي قد تغلب على الصعاب ولم يقع في ورطة طول حياته! ثم حدثته عن ابنته يالايالي... تلك الحورية الأميرة التي تملك من الرقيق ثلاثماية ، والتي تجلس على مقعد من الورود الصفراء ، إنها أجمل مخلوق رأيته في حياتي... وقاتلني الله إن كنت في حياتي قد شاهدت مرة طلعة تشبه هذه الطلعة!

فقال الشيخ وهو غائب الذهن ينظر إلى الأرض :

ـ أحقاً هذا ؟ أهي جميلة إلى هذا الحد ؟

ـ جميلة ؟ هي آية في الجمال ، فاتنة! عينان كالحرير الخام ، وذراعان صيغتا من الكهرمان! نظرة واحدة منها فيها من الغواية ما في القبلة . وإذا ما دعتني يسري صوتها إلى أعماق قلبي سريان شعاع الخمر . ولم لا تكون آية الحسن ؟ لعلك تتصورها أحد السعاة ، أو واحداً من عمال المطافىء! إنها ، باختصار ، فتنة السماء . وأستطيع أن أقول لك : إنها تكاد تكون خرافة .

فقال الرجل وقد ارتبك بعض الشيء : نعم ، نعم .

فضايقتني سكينته ، واحتدّ صوتي وأخذت أتكلم جاداً كل الجد . ولم يبق أثر في ذهني لمسائل الأرشيف المسروقة! ولا للمعاهدة المعقودة بين هذه القوة الأجنبية أو تلك . وكانت الحزمة الصغيرة المسطحة موضوعة بيننا

على المقعد ، ولكن لم تعد لديَّ أية رغبة لفحصها أو النظر إلى محتوياتها . وكنت من أفكاري الخاصة في شغل عنها ، فقد كانت تمر أمام عيني أشباح غريبة ، فصعد الدم إلى رأسي وأخذت أضحك ملء أشداقي .

وعندئذ بدت على الرجل الرغبة في الانصراف حيث أخذ يتلمس ما حواليه ، وقد سألني حتى لا يفارقني في جفاء :

ـ لا بد أن يكون هذا الهابولاتي من كبار الملاّك ؟

ترى كيف استطاع هذا الشيخ الأعشى البغيض أن يغامر بمعالجة هذا الاسم الذي اخترعته ، كما لو كان اسماً مكتوباً على لوحة كل صاحب دكان في المدينة ؟ إنه لم يتلعثم في حرف منه! لا ، ولم يغفل مقطعاً واحداً ، فقد نقش الاسم في ذهنه كما ثبتت أصوله فيه ، فأخذني الغضب وبدأت تترعرع الحفيظة في نفسي ضد هذا الرجل الذي لم أستطع أن أربكه ، والذي لم يبد أثراً لعدم الثقة بي . فأجبته متحدياً :

ـ هذا مالا أعرفه . لا أعرف شيئاً عن هذا بالضبط . دعني أقول لك ، على أية حال ، للمرة الأولى والأخيرة : إن الرجل يدعى يوحنا ارندت هابولاتي ، طبقاً للحروف الأولى من اسمه .

فردد الرجل الاسم متعجباً من عنفي : يوحنا أرندت هابولاتي! ثم صمت .

فاندفعت في الحديث وقلت بحنق :

ـ يلزمك أن ترى زوجته ، فهي مخلوقة بدينة... نعم ، إنك ربما لا تصدق البتة أنها جد بدينة إلى هذا الحد ؟

ولم ينازع كذلك في أن رجلاً مثل هذا يمكن أن تكون زوجته كذا بدينة .

وأجاب الشيخ عن حملاتي كلها بلطف وهدوء . وأخذ يتلقى الألفاظ كأنما كان قد أخذ على عاتقه إهانتي وإغضابي . فصرخت من الحنق :

ـ قاتلك الشيطان أيها الإنسان! أو ربما حسبتني أجلس هنا أصب الكذب في أذنيك صباً ؟ وربما كنت لا تصدق البتة وجود رجل باسم هابولاتي ؟ إني لم أرَ في حياتي تحدياً وحقداً كهذا من شيخ مثلك! أي شيء بك ، قاتلك الشيطان ؟ وربما حسبت في نفسك أني فوق ذلك فتى معدم مثل أيوب أعيش في بلادكم العظيمة ولا أملك في جيبي علبة لفائف ؟ أحب أن أقول لك إني غير متعود مثل تلك المعاملة التي تعاملني بها . وأقسم بالله أني لن أتحملها منك ولا من أي إنسان آخر . هذا ما يلزمك أن تعرفه!

فنهض الرجل من مكانه ووقف فاغراً فاه لا ينبس ببنت شفة ، يستمع إلى هذياني حتى النهاية . ثم سار فتناول حزمته عن المقعد وسار صعداً في الطريق على عجل ، بخطوات الشيخوخة القصيرة .

وبقيت في مكاني أنظر إلى ظهره الذي كان آخذاً في التواري شيئاً فشيئاً . ولا أدري كيف ترك في نفسي هذا الأثر ، ولكنه كان يبدو لي كما لو كنت لم أرَ في حياتي ظهراً معيباً كظهره هذا ، ولذلك لم أندم على تأنيبي له قبل مغادرته لي .

ومال ميزان النهار وغربت الشمس وابتدأ حفيف الأشجار يسمع حواليها ، وأخذت مربيات الأطفال اللواتي كنّ يجلسن عند الأراجيح طريقهن إلى البيوت ومعهن العربات الصغيرة . فاطمأنت نفسي وسُرّي عنها ، فقد أخذت الثورة التي كنت فيها تمحى بالتدريج . ثم أخذت أنكمش وتراخت أعصابي وابتدأت أحس حاجتي إلى النعاس ، ولم تعد تثقلني كثيراً مقادير الخبز العظيمة التي تناولتها . وعلى هذه الحال اتكأت على المقعد وأغمضت

عيني واستغرقت في النوم ، ولكن ما كاد يغلبني النعاس حتى وضع خفير الحديقة يده على منكبي قائلاً :

ـ ممنوع النوم هنا .

فقلت : «نعم» . ونهضت في الحال ، فتمثلت لي حالتي السيئة أمام عيني جلية واضحة . فقلت لا بد لي من عمل شيء . لا بدّ من القيام بأي عمل . أما البحث وراء وظيفة فلم يفدني شيئاً ، فالتوصيات التي قدمتها لم يكن لها الأثر المطلوب لمضي الزمن عليها ، كما أنها كانت مكتوبة من أناس مجهولين . وعدا هذا فإن الرفض المتتابع طول فصل الصيف قد جعلني وجلاً . والآن وقد استحق كراء الغرفة ، فعليّ أن أجد لي مخرجاً من هذا المأزق . وما عدا ذلك ففي الوقت فسحة له .

وعدت بدون وعي وتناولت في يدي القلم الرصاص والورق وجلست أكتب آلياً في أطراف الصحيفة هذا الرقم ١٨٤٨ . لو أن فكرة واحدة ، فكرة واحدة فقط ، تواتيني وتفيض عليّ بقوة فترسل بالكلمات إلى فمي! فإن هذا ما كان يحدث لي فيما مضى . حدث بالفعل أن واتتني الأفكار في مثل تلك الساعات ، فتمكنت من كتابة قطعة مطولة بدون عناء وأتممتها على أحسن ما يكون .

وهنا على المقعد جلست أكتب هذا الرقم ١٨٤٨ عشرات المرات . كتبته متقاطعاً ، ومنحرفاً . كتبته بكل صورة ممكنة متوقعاً أن تواتيني فكرة قيمة . وطافت برأسي طائفة من الأفكار المرسلة ، وهد من عزيمتي انصرام اليوم وجعلني سريع التأثر سوداوي المزاج . وكان الخريف قد أتى ، فكنت ترى كل شيء آخذاً في الركود ، فالذباب وصغار الحشرات قد أصيبت منه بالصدمة الأولى . وفي الأشجار وعلى الأرض يسمع الإنسان

صوت تنازع الحياة صاخباً جياشاً يعمل في قلق اتقاء للفناء . والحشرات تتحرك مرة أخرى فتمد رؤوسها الصفراء من الطحلب ، وترتفع أرجلها ، وتدب إلى الأمام بخيوطها الطوال ، ثم تنكمش في نفسها فجأة وتنقلب وتدير بطنها إلى الخلاء . ويأخذ كل نوع من الزرع طابعه الخاص به ، فله نفس رطب رقيق ، نفَس القرّ في بدايته . وتتطلع سيقان النبات الذابلة إلى الشمس ، ويسمع لحفيف الأوراق المتساقطة على الأرض صوت كالذي يسمع من ديدان الحرير الهائمة . هذا هو فصل الخريف القائم وسط كرنفال الفناء ، فحمرة الورود سقيمة لها تورّد الداء العجيب فوق لونها الأحمر القاني .

فأحسست نفسي كحشرة حقيرة في حالة النزع قد كتب عليها الهلاك في وسط هذا العالم الوسنان ، فنهضت مأخوذاً من الذعر وخطوت خطوتين جبارتين في الطريق ، وكورت يدي ، وصرخت : «لا بد لي من وضع حد لهذا!» وعدت فجلست وتناولت القلم في يدي وأردت أن أكتب بجدٍ مقالاً ، إذ لا فائدة ترجى من الاستسلام ما دام كراء الغرفة المستحق قائماً أمام العين .

وابتدأت أفكاري تتجمع ببطء فنسقتُها ، وكتبت بعض صفحات في أناة وتدبر كعجالة لأي موضوع كان تصلح أن تكون تقدمة لكل شيء ، لوصف رحلة ، أو مقال سياسي . كانت تقدمة بديعة لكثير من الموضوعات ، حسب اعتقادي .

ثم بدأت أبحث وراء موضوع خاص يمكنني أن أطرقه ، عن شخص أو شيء أو أمر من الأمور يمكن معالجته . ولكني لم أوفق إلى شيء ، وأصبت بفوضى جديدة في أفكاري من جراء هذه الجهود العقيمة ، فشعرت بمخي

وقد فارقني ، وأقفر رأسي وخف فوق كتفي . وبقيت بلا إدراك ، وأحسست بكل جسدي هذا الفراغ الشاغر في رأسي ، وخيل إلي أني بت مفرغاً من قمة رأسي حتى أخمص قدمي .

فصرخت من شدة الألم : «سيدي ، إلهي وأبي!» ورددت هذا النداء عدة مرات في نَفَس واحد ، بدون أن أزيد عليه حرفاً واحداً .

وعصفت الريح بأوراق الشجر وتكاثف السحاب ، وبقيت زمناً أحدق تائهاً إلى أوراقي . ثم جمعتها ودسستها ببطء في جيبي . وكان الجو بارداً ، ولم يكن لديّ صدار ، فزررت ردائي حتى أعلى عنقي ودسست يدي في جيوبي ، ثم نهضت واقفاً وسرت في الطريق .

آه لو حالفني الحظ مرة واحدة ، هذه المرة! اضطررت مرتين للإنسحاب مطأطىء الرأس أمام صاحبة الدار ، محيياً إياها في تلعثم عندما عاودت مساءلتي بطرف عينيها عن أجرة الغرفة ، وليس في طاقتي أن أعيد الكرة مرة أخرى . وإذا أنا لقيت هاتين العينين مرة أخرى فسأشرح لصاحبتهما بصدق حقيقة حالي ، وأغادر الغرفة فوراً ، فليس في الطاقة الاستمرار على مثل هذه الحال .

ولما بلغت مخرج الحديقة رأيت القزم العجوز مرة أخرى ، ذلك الرجل الذي أقصيته عني في ثورة غضبي . وكانت حزمة الجريدة الغامضة مفتوحة إلى جانبه على المقعد ، وكانت مفعمة بمختلف أنواع الأغذية التي كان يلتهمها التهاماً . وأردت فجأة أن أقصده لأسأله المعذرة عن مسلكي معه ، ولكن طريقته في الأكل استوقفتني . فإن أصابع يده التي خلع عليها الكبر ثوبه ، والتي كانت أشبه بعشرة مخالب مغضنة الأديم ، كانت تمسك الخبز المطلي بالزبد بصورة تعافها النفس ، أحسست معها ضيقاً ، فمررت به بدون

أن أتحدث إليه . وحدّقتْ عيناه الجامدتان إليّ ، ولكنه لم يتعرفني فإن صحيفة وجهه لم يبد عليها أثر للتغير .

واستأنفت طريقي .

وكنت ، تبعاً لعادتي ، كلما مررت في الطريق بصحيفة منشورة ، أقف أتأمل إعلانات الوظائف الشاغرة . واغتبطت نفسي عندما وجدت إعلاناً بوظيفة يمكنني الحصول عليها ؛ تاجر في ضواحي غرونلاند يبحث عن رجل يحذق مسك الدفاتر ، لبضع ساعات في المساء والأجر يتفق عليه . فقيدت عنوان الرجل ، وسألت الله في هدوء أن يمن عليّ بهذه الوظيفة ، واعتزمت أن أطلب أجراً عن العمل يقل عما يطلبه أي إنسان . فخمسون « أورا » تكفي وتزيد ، لا بل ربما تكفي أربعون أورا . هذا سأتركه للتقادير .

وعدت إلى البيت فوجدت رسالة على المائدة من صاحبة الدار ترجو مني فيها أن أدفع كراء الغرفة مقدماً أو أتركها إلى غيرها بأسرع ما يمكن . وليس لي أن أغضب لهذا الطلب ، فإنها مكرهة عليه . والرسالة تنتهي بهذه العبارة : «المحبة لك كثيراً ، مدام غوندرسن» .

فكتبت طلباً للتاجر كرستي في غرونلاند رقم ٣١ ، وغلقته وألقيت به في صندوق البريد عند الناصية ، ثم عدت فصعدت إلى غرفتي وجلست على الكرسي الهزاز وبدأت أفكر وقد أخذ الليل يسدل ستاره شيئاً فشيئاً . وأصبح من المتعذر ضبط النفس على مثل هذه الحال .

وفي صباح اليوم التالي استيقظت مبكراً . وعندما فتحت عيني كان الظلام سادلاً رواقه . وبعد مرور مدة طويلة سمعت الساعة في الدور الأسفل تدق الخامسة ، فحاولت أن أنام ثانية ، ولكني لم أدرك بغيتي ، فقد كانت حواسي آخذة في التنبه . فرقدت يقظاً أفكر في آلاف المسائل . وأخيراً

حضرتني جملتان جميلتان أو ثلاث جمل موفقة العبارة دقيقتها لم أر لها نظيراً في حياتي ، تصلح لوصف مختصر ، أو مقال أدبي . فبقيت مستلقياً على سريري واستعدت هذه الكلمات لنفسي ، فألفيتها آية في الإبداع . وسرعان ما تكاثرت الخواطر عليّ ، فتيقظ ذهني دفعة واحدة . فنهضت وقبضت على القلم والورق اللذين كانا موضوعين على المائدة خلف سريري . كنت كما لو أن عرقاً من عروقي قد انفجر . فكانت كلمة تتلو الأخرى ، وراحت الكلمات تنتظم وتتماسك تماسكاً منطقياً ، وتهيء المناسبات ، وتؤلف من نفسها المواقف . وتراكمت المناظر بعضها فوق بعض ، وتواثبت في ذهني فصول وإجابات ، فتولاني شعور من الطمأنينة عجيب . فكنت أكتب كالمأخوذ ، فأملأ صحيفة بعد الأخرى بدون أن أتوقف لحظة واحدة ، وتواتيني الأفكار بغتة ، وتفيض عليّ بغزارة حتى أني كثيراً ما كنت أغفل نوافل الكلام لعجزي عن تقييدها بسرعة ، مع أني استخدمت كل ما لديّ من قوة للكتابة ، وما فتئت ساعة الإلهام تلح عليّ حتى غصصت من وفرة المادة ، وكانت كل كلمة أخطها كأنما تُملى عليّ إملاءً .

واستمر الحال على هذا النمط الموفق مدة طويلة قبل أن ينقطع حبل هذه المصادفة العجيبة . وأخيراً عندما وقفت عن الكتابة ، وألقيت بقلمي ، كان على ركبتي نحو خمس عشرة أو عشرون صحيفة مكتوبة أمامي . والآن ، لو أن لتلك الصحف المكتوبة قيمة تذكر ، فإني قد نقذت! وقفزت من السرير وارتديت ملابسي ، وكان الضياء قد أخذ في الانتشار فتمكنت بعض الشيء من تمييز بيان مدير المنارة عند أسفل الباب . وكان الضوء عند النافذة أكثر وضوحاً حتى إني لحاجتي إلى الكتابة كنت أستطيع أن أرى فيه . فشرعت تواً في تبييض أوراقي .

فتولد من هذه التخيلات بخار كثيف عجيب مشبع بالضوء واللون . وكنت أتطاول بعنقي مندهشاً كلما عنّت لي فكرة صالحة تلو الأخرى ، وأقول لنفسي كل مرة : هذه الفكرة هي أبدع ما قرأت للآن! وسكرت من الإغتباط ، ونفخ السرور أوداجي ، وأحسست أني قد صرت عظيماً . ووزنت كتاباتي في يدي وقدرتها في الحال بخمسة ريالات ، على وجه التقريب ، وقلت إنه لن يتنزّل أحد فيساومني عليها بخمسة ريالات ولا بد من التسليم بأن الحصول على هذا المقال بخمسة ريالات ليس إلاّ مجرد ابتزاز إذا ما حسب حساب لمادته ، وليس في نيتي أن أقدم عملاً بديعاً كهذا مجاناً ، فمبلغ ما أتصوره أن الإنسان لا يجد في الطرقات روايات من هذا النوع . وقضيت لنفسي بعشرة ريالات أجراً على هذا المقال .

وأخذ النور ينتشر في الغرفة شيئاً فشيئاً ، فألقيت نظرة إلى أسفل الباب ، فتمكنت من أن أقرأ بدون عناء ، إعلان الأكفان ذا الحروف الدقيقة الرفيعة ، عند الفتاة أندرسن على يمين الداخل . وكانت قد انسلخت فترة من الزمن ليست بالقصيرة منذ دقت الساعة سبعا .

فنهضت من مكاني وبقيت واقفاً في وسط الغرفة . ولما تدبرت كل شيء جيداً ، وجدت أنه يحسن بي أن أخبر مدام غوندرسن بعزمي على الانتقال من دارها . فالحق أن غرفة كهذه لم تكن لتصلح لي ، فثم ستائر خضر في غاية البساطة معلقة على النوافذ ، كما أنه لم يكن في الحيطان مسامير كافية لتعليق الثياب عليها ، والكرسي الهزاز الحقير القائم في الزاوية لم يكن في الواقع إلا سخرية الكراسي الهزازة ، وإن الواحد ليكاد يهلك ضحكاً منه ، فهو شديد الانخفاض بالنسبة لفتى يافع ، فضلاً عن أنه من الضيق بحيث يلزم للجالس عليه آلة لانتزاعه منه . وبالاختصار ، فإن هذه الغرفة فوق ذلك غير مجهزة

بالأثاث الذي يعين على الاشتغال فيها بالأعمال الذهنية ، ولم يكن في نيتي البقاء فيها طويلاً ، وليس في العالم قوة تحملني على الاحتفاظ بها بعد الآن ، فلقد عشت صاغراً في هذا الاصطبل ، وطال فيه صمتي وانتظاري .

وامتلأت نفسي بالأمل وعمرت بالرضى وأنا مشغول الفكر طول الوقت بالوصف المختصر العجيب ، فكنت أستخرجه من جيبي في كل لحظة لأقرأه . وأحببت أن أجد في إنفاذ مشروعي والأخذ في الانتقال من هذه الغرفة . فتناولت حزمتي ، وهي خرقة حمراء تحتوي بضع ياقات نظيفة ، وصحفاً مغضنة كنت حملت فيها الخبز إلى داري . وطويت الملحفة ، وأخذت معي ذخيرة من ورق الكتابة الأبيض . ومن باب الاحتياط فتشت زوايا الغرفة لأتحقق من أنني لم أترك شيئاً خلفي ، ولما لم أجد شيئاً سرت إلى النافذة وأطللت منها . وكان صباحاً معتماً مطيراً ، ولم يكن أحد في الخارج عند دكان الحدادة المحترق ، كما أن حبل الغسيل المشدود تحت في صحن الدار بين حائطين كان متقلصاً من الرطوبة . ولما لم تكن كل هذه الأشياء جديدة بالنسبة لي ، ابتعدت عن النافذة وأخذت الملحفة تحت ذراعي وانحنيت أمام بيان مدير المنارة ، وانحنيت أمام إعلان الأكفان عند الفتاة أندرسن ، وفتحت الباب .

وفجأة مرّت صاحبة الدار بذهني ، وكان لا بد لها أن تأخذ علماً بانتقالي كي تعلم أنها كانت تتعامل مع رجل يعرف الواجب ، كما كنت أريد أن أشكرها برسالة على الأيام التي شغلت فيها غرفتها . وألح عليَ إيماني بأن صاحبة الدار أنقذتني مدة من الزمن ، أن أعدها بخمسة ريالات عند مروري بها في الأيام المقبلة ، إذ أردت أن أريها أي رجل شريف كان يقيم تحت سقف دارها .

وخلّفت لها على الخوان مكتوباً بذلك .

ووقفت مرة أخرى عند الباب ، ثم تحولت عنه وقد سرى عني ذلك الإحساس المنير بالنهوض مرة أخرى ، وجعلني شاكراً لله وللعالم بأسره ، فخررت راكعاً بجانب السرير ، وشكرت بصوت عالٍ فضل الله تعالى عليَّ في هذا الصباح . الآن أدركت ، آه ، أدركت أن الإلهام الذي غمرني ، والذي دونته على الورق ، إنما كان صنيعاً سماوياً عجيباً له أثره في نفسي ، هو جواب على صرخة أمس ، فصحت : «هو الله! هو الله!» وبكيت من الحماسة لكلماتي . وكنت بين الوقت والآخر أضطر أن أتوقف وأرهف الأذن برهة من الزمن أتسمع لعلي أجد في السلم أحداً . وأخيراً نهضت وأخذت طريقي ، وقد انزلقت نازلاً بدون صوت ، وبلغت الطريق من غير أن يراني أحد .

وكانت الطرق تلمع من المطر الذي نزل في الصباح الباكر ، ودنت السماء من المدينة باردة مبلولة ، وتدلت فوقها في غير استواء ولم يكن ثمّ أثر لأشعة الشمس . ترى ، كم تكون الساعة . ثم سرت كالعادة في اتجاه دار البلدية ، فإذا بنا في منتصف التاسعة ، فكان لا يزال أمامي بضع ساعات ، إذ لا فائدة ترجى من الذهاب إلى قلم التحرير قبل منتصف العاشرة ، بل الحادية عشرة ، فعليَّ أن أتسكع في هذه الفترة وأفكر كيف أستطيع الحصول على فطور أو جزء من فطور . وفي كل حال لم أكن أخشى أن أضطر في يومي هذا إلى الذهاب مساءً إلى سريري بدون طعام . فتلك أيام قد انصرمت والحمد لله! إنها مرحلة طويناها ، هي حلم مزعج . أما بعد الآن ، فإني أسير إلى الأمام .

وفي الوقت نفسه ابتدأت الملحفة الخضراء تضايقني ، فالحق أنه لم يكن في مكنتي أن أظهر أمام الناس بمثل هذه الحزمة . فماذا عساهم يظنون بي ؟

واستأنفت المسير أفكر في مكان يمكنني أن أحفظها فيه مدة يسيرة ، فخطر لي الذهاب إلى «سَمْبْ» وهناك ألفها في الورق فتظهر بصورة مقبولة ، لا يعود حملها مزرياً . فدخلت المحل ، وأعربت لأحد المستخدمين عن حاجتي .

فحدق إلى الملحفة أولاً ، ثم حدق إليّ ، فخيل إليّ أنه عند تناوله للحزمة هز كتفيه في سكون ، استخفافاً بي ، فجرحت هذه الحركة عواطفي ، فصحت به :

ـ قاتلك الشيطان وقتلك! احترس بعض الشيء! إن بها أصيصين ثمينين من الزجاج ، وهذه الحزمة مرسلة إلى أزمير .

وقد أفاد هذا ، أفاد فائدة كبيرة ، فكانت كل حركة من حركاته اعتذاراً لي عما بدر منه ، إذ لم يكن يعلم أن فيها أشياء ثمينة كهذه . وعندما انتهى من الحزم شكرت له مساعدته ، كمن سبق أن أرسل إلى أزمير أشياء ثمينة ، وفتح لي الباب عند انصرافي .

تنقلت بين الناس في ستورتورف ، ثم فضلت البقاء على مقربة من النسوة اللواتي يبعن أصص الأزهار ، فقد أثارت شهوتي الورود الحمراء القانية اللون تتوقد في الصباح الندي ، واستهوتني لأرتكب جريمة سرقة واحدة منها ، فسألت عن الثمن لمجرد الاقتراب بقدر الإمكان ، ولو أن معي شيئاً من النقود باقياً لاشتريتها ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، وفي استطاعتي فيما بعد الاقتصاد في نظام المعيشة من هنا أو هناك حتى أعيد ميزانيتي إلى التوازن .

وكانت الساعة العاشرة ، فصعدت إلى إدارة الجريدة ، فوجدت هناك رجلاً يدعونه بالمقص ، ينقب كومة من الصحف القديمة ، ولم يكن رئيس

التحرير قد أتى بعد . وعندما طلب الرجل مني أن أسلمه مقالي الضخم ، أدخلت في ذهنه أن المسألة أكبر مما يتوهم ، وألححت عليه في الرجاء أن يسلمها يداً بيد لرئيس التحرير عند عودته ، لأني أود أن أحصل على الجواب في اليوم نفسه .

فقال المقص : «حسناً!» وعاد إلى صحفه .

وألفيته قد تلقى المسألة بشيء من الهدوء ، فلم أقل شيئاً ، وحنيت له رأسي قليلاً بدون اكتراث ، وانصرفت .

إن لديّ الآن وقتاً طويلاً ، فلو أن الغيوم تنقشع! فلقد كان الجو في غاية الرداءة ، فلا ريح فيه ولا نسيم ، وكانت النساء تستخدم مظلاتهن من باب الحيطة ، كما كانت قبعات الصوف على رؤوس الرجال تبدو مضحكة وكئيبة معاً . فعدت ودرت في السوق ، وحدقت إلى الخضروات والورود ، وشعرت بيد فوق كتفي ، فالتفت فإذا «بالرقيع» يحييني تحية الصباح .

فرددت عليه التحية متشوقاً لمعرفة غرضه . فالرقيع هذا لم يكن خفيف الظل على نفسي .

فنظر بفضول إلى الحزمة الجديدة الكبيرة التي أتأبطها ، وسألني :

ـ ماذا تحمل في هذه الحزمة ؟

فأجبت بصوت غير المكترث :

ـ كنت عند سَمْبْ ، فاشتريت منه قماش بذلة ، إذ لم يعد يليق بي أن أسير أكثر من هذا في ثياب رثة كهذه . لقد كنت حقيراً بالنسبة لمظهري الخارجي .

فنظر إليّ مبهوتاً ، وسألني في تمهل :

ـ كيف حالك على العموم ؟

ـ فوق ما أنتظر .

ـ هل لديك عمل ؟

فأجبته متعجباً غاية العجب :

ـ عمل ؟ نعم ، أنا كاتب حسابات في محلات كريستي تجار الجملة .

فقال وقد تراجع إلى الوراء بضع خطوات :

ـ كذا ، كذا! يا لله! ما أشد غبطتي بك! ويا ليتك لا تبذر النقود التي تربحها بجدك على كل سائل! عم صباحاً .

وأخيراً تحول عني ثم عاد وأشار بعصاه إلى حزمتي ، وقال :

ـ إني أشير عليك بخياطي ، فلن تجد أفضل من إساكسن . وبحسبك أن تقول له إني مرسلك إليه .

لماذا يتدخل في شؤوني ؟ أو يعينه الخياط الذي أختاره ؟ وغضبت لذلك ، وأثار حنقي مظهر هذا المخلوق الفارغ المتأنق المفتون ، فذكرته بشيء من الجفاء بالعشرة الريالات التي كان اقترضها مني . وقبل أن يتمكن من الإجابة ندمت على تذكيري إياه بها ، وارتبكت ، فلم أقو على رفع بصري إلى بصره . ومرت سيدة عليّ في اللحظة نفسها ، فتراجعت بسرعة لأخلي لها السبيل ، وانتهزت الفرصة وأخذت طريقي .

ماذا عساي أصنع الآن في فترة الانتظار وليس في استطاعتي أن آخذ مجلسي في مقهى ؟ فجيوبي خاوية ، ولم أكن أعرف لي صديقاً يصح أن أذهب إليه في مثل ذلك الوقت . فتسكعت بالغريزة في المدينة ، صارفاً جانباً

من الوقت على الطريق ما بين السوق وشارع غرانسن ، وقرأت جريدة المساء التي علقت حديثاً على اللوح ، ودرت دورة إلى شارع كارل جوهان ، ثم عدت فأخذت طريقي رأساً إلى مدفن المخلص ، حيث وجدت مكاناً هادئاً على المرتفع بقرب المعبد .

وهناك في السكون الشامل ، والهواء الرطب ، جلست أفكر نصف يقظ ونصف مقرور . وأخذ اليوم ينصرم . أحقاً إن مقالي آية مصغرة من وحي الفن ؟ الله يعلم ما إذا كان فيه أخطاء في هذا الموضوع أو ذاك! واذا كان كذلك ، فسينتهي الأمر بعدم قبوله ، لن يقبل بالمرة! وقد يكون مقالاً عادياً أو سخيفاً . وتزعزعت غبطتي ، وقفزت مندفعاً إلى الخارج من فناء المدفن .

وفي آخر شارع «آكر» نظرت إلى نافذة دكان فوجدت الساعة اثنتي عشرة إلا قليلاً ، فضايقني ذلك ، فقد كنت على ثقة من أن الوقت قد تعدى الظهر بكثير ، إذ لا معنى للسؤال في قلم التحرير قبل الساعة الرابعة . وملأني مصير مقالي غماً وقلقاً ، فكنت كلما فكرت فيه صعب عليَ أن أصدق أن في الإمكان كتابة شيء ذي قيمة على حين فجأة ، وفيما يقرب من النوم ، مع امتلاء الرأس بالحمى والأحلام . ولا شك أني خدعت نفسي بنفسي ، وطربت طول الصباح للا شيء ، ولا شك!... فخففت مندفعاً في طريق أولليفال ماراً بمرتفع القديس هانس هوجن حتى بلغت حقولاً فسيحة ، فالزواريب الضيقة الغريبة في حي «سييري» ، قاطعاً حقولاً بوراً ومروجاً ، وأخيراً وجدت نفسي في طريق لا ترى العين له آخر .

وهنا توقفت واعتزمت العودة ، وقد سرت حرّان من كثرة المشي ، فأخذت أسير متباطئاً مرهقاً ، فالتقيت بعربتين تحملان تبناً وقد استلقى السائقان على الحمل يغنيان ، وكان كلاهما عاري الرأس ، كما كان كلاهما

ذا وجه لا أثر للهم فيه . فاستأنفت السير وقد حسبت في نفسي أنهما سيتحدثان إليّ ، أو يشيران إليّ بإشارة ، أو يسخران مني . ولما اقتربت منهما ناداني أحدهما وسألني عما أحمله تحت إبطي . فأجبته :

ـ ملحفة سرير .

فسألني : كم الساعة ؟

ولم أكن أعرف الوقت بالضبط ، فقلت : أظنها الثالثة .

فضحكا ومرا بي . وفي اللحظة نفسها شعرت بوقع سوط على أذني نزع قبعتي من على رأسي ، ذلك أن الشابين لم يطيقا أن يتركاني بدون أن يسخرا مني! فأمسكت بأذني حانقاً ، ورفعت قبعتي من حفرة في الطريق ، واستأنفت سيري . وهناك عند قدم مرتفع القديس هانس هوجن التقيت بمن قال إن الساعة الرابعة قد انصرمت .

فاتت الساعة الرابعة! فاتت الساعة الرابعة! فضاعفت الخطا قاصداً المدينة إلى إدارة التحرير . ليس بعيداً أن يكون رئيس التحرير قد أتى ، وعاد فخرج! وأخذت أسير وأقفز ، وأتعثر وأصطدم بالعربات ، مخلفاً ورائي جماعات المتنزهين ، منافساً الخيل في سرعتها ، باذلاً جهداً هائلاً لأصل في الوقت المناسب . وعرجت على الباب ، وصعدت في السلم أربعاً أربعاً ، ودققت الباب .

فلم يجب أحد .

قد خرج! قد خرج! هكذا ظننت . فعالجت الباب ولم يكن مقفلاً ، ودققت عليه مرة ، وتقدمت ، وكان رئيس التحرير جالساً إلى مكتبه ، ووجهه قبالة النافذة ، والقلم في يده ، مستعداً للكتابة . ولم يكد يسمع

تحيتي المقطوعة النَفَس ، حتى استدار إليَّ نصف استدارة ، ونظر إليَّ نظرة قصيرة ، ثم هز رأسه قائلاً :

ـ لم يتسع وقتي حتى الآن لقراءة رسالتك .

ومن فرط سروري لعدم رفضه إياها جملة ، قلت له :

ـ لا يا سيدي العزيز ، أنا أفهم هذا جيداً ، ولا محل للعجلة . أيمكن بعد يومين أو... ؟

ـ نعم ، سأرى . ومع ذلك فعندي عنوانك .

ونسيت أن أقول له إني بتّ بلا عنوان .

وانتهت المقابلة ، وخطوت متراجعاً بعد أن انحنيت ، وعادت الآمال فاشتعلت في نفسي ، فلا خسارة بعد ، بل على العكس ، فمن الجائز ربح كل شيء . وابتدأت أتخيل في ذهني مجمعاً كبيراً علوياً قائماً في السماء قد كتب لي ضرورة الربح ، ربح عشرة ريالات على التمام ، أجراً لمقالي...

لو عرفت لي ملجأ الليلة! وأعملت الفكر في البحث عن مكان يحسن الانزواء فيه . وشغلتني هذه المسألة حتى بقيت واقفاً في منتصف الطريق ، ونسيت أين أنا . بقيت واقفاً كشمندورة فريدة في وسط البحر والماء يعج ، ويتدفق من حولها ، فناولني صبي بائع جرائد نسخة من جريدة فيكينغ الهزلية . « إنها مسلية! » ورفعت بصري فارتعشت... لقد رأيتني مرة أخرى أمام دكانة سمب .

فعجلت بالعودة محاولاً إخفاء الحزمة بقدر ما أستطيع ، وأسرعت منحدراً في شارع الكنيسة خائراً وجلا ، حذر أن يتمكن الرجل من رؤيتي من نافذة محله . ومررت أمام مطعم انجبرت وأمام المسرح ، وعرجت على

النادي ثم انحدرت إلى البحر والقلعة ، وعدت فأخذت مجلسي على أحد المقاعد ، وابتدأت أفكر من جديد .

أنّى لي أن أجد في هذا العالم مأوى في ليلتي هذه! أوَ لا يوجد جحر إليه أنزلق ، وفيه أتمكن من الانزواء حتى يصبح الصباح ؟ وحالت كبريائي دون العودة إلى غرفتي ، فلم يكن ليدور في خلدي أن أسحب كلمتي . ولذلك طردت هذه الأفكار من رأسي حانقاً . وبعد تفكير هادئ أخذت أضحك من الكرسي الهزاز الصغير الأحمر . وبغتةً وجدت نفسي ، عن طريق تداعي الأفكار ، في غرفة واسعة ذات نافذتين ، تطل على شارع «هاجدي» كنت أسكن فيها فيما مضى ، ورأيت صينية مملوءة بكثير من الخبز المطلي بالزبد . ثم ما لبث هذا الخبز أن تبدل منظره فانقلب شرائح من لحم البقر المغري ، وإلى جانبه فوطة سفرة بيضاء ناصعة البياض ، وخبز كثير ، وشوكة طعام من الفضة . وفتح الباب ، وجاءت صاحبة الدار وقدمت لي شاياً مرة أخرى .

أوهام وأحلام! وقلت لنفسي : لو أن طعاماً جاءني الآن لشوش ذهني وأصاب مخي بالحّمى عينها وبكثير من الأفكار الحمقاء التي يلزمني محاربتها ، فأنا لا أقوى على تحمل أي طعام ، فلا شهوة عندي له ، وسيكون بالنسبة لي شاذاً ومستهجناً .

ربما وجدت حيلة لملجأ آوي إليه إذا جن الليل ، فلا داعي للعجلة . وفي أسوأ الحالات يمكنني أن أبحث لي في الغابة عن مكان ما ، فجميع ضواحي المدينة تحت تصرفي ، ولم يهجم البرد بعد .

وهناك في الخلاء كان البحر يتماوج في سكون عميق ، وكانت السفن والقوارب الثقيلة ذات المقدم العريض تشق لها خطاً في صفحته الرصاصية

فينتثر شريطان عن اليمين وعن الشمال وينزلقان إلى مدى بعيد . وكان الدخان يتلوى لدى خروجه من المداخن كزغب المراتب ، ودقة كبّاس الآلات تدق في ضعف بسبب رطوبة الجو ، ولم يكن هناك شمس ولا ريح . وكانت الأشجار خلفي مبللة كما كان المقعد الذي أجلس عليه بارداً رطباً . وأخذ الوقت يمضي ، ورنقت عيناي من النعاس وأحسستُ بعض التعب والبرودة في مؤخر ظهري . وبعد فترة من الزمن شعرت بأن عينيّ تحاولان الإغماض ، فتركتهما تغمضان...

وعندما تيقظت كان الليل قد أرخى سدوله حوالي ، فقفزت أرتعد من البرد ، وأمسكت بحزمتي وابتدأت أسير . وأخذت أسرع في المشي طلباً للدفء ، وأضرب بذراعيّ ، وأجري يدي على ساقيّ من عل إلى أسفل ، فلم أكد أحس وجودهما . وبلغت مخفراً للحريق ، وكانت الساعة التاسعة ، إذن فقد نمت عدة ساعات .

والآن ماذا عساي أصنع بنفسي ؟ لا بد لي مع كل ذلك من مكان أنزل فيه! فوقفت هناك أصعد النظر في مخفر الحرائق ، وأفكّر هل في الإمكان بلوغ أحد الأروقة! وما هي إلا لحظة واحدة راقبت فيها الديدبان عندما يدير ظهره ، وصعدت في السلم طامعاً أن أتحدث إلى الرجل ، فرفع في الحال بلطة رمزاً للاحترام ، وانتظر أن أقول شيئاً . فسرت قشعريرة في أعصابي من هذه البلطة المرفوعة ، الموجّه حَدُّها إليّ وكأنني أحسست ضربتها التي تحمل الصقيع . صعقت من الرعب أمام هذا الرجل المسلح ، فتقهقرت عن غير إرادة ولم أقل شيئاً ، وابتعدت عنه . ولكي أخفي أثر ذلك أجريت يدي على جبهتي ، كما لو كنت نسيت شيئاً ما ، ثم انسللت بعيداً . ولما وجدتني فوق الرصيف مرة أخرى شعرت بالنجاة ، كأنني أفلت من خطر هائل ، ثم أسرعت إلى الهرب .

وظللت مندفعاً إلى الأمام في شارع كارل جوهان جائعاً مقروراً ، وطفقت أسب وأصخب ، فلم أعد أخشى أن يسمعني أحد . وهناك عند عمارة ستورتنغ على مقربة من الأسد الأول ، تذكرت فجأة ، عن طريق تداعي الأفكار رساماً أعرفه هو فتى في مقتبل العمر كنت قد خلّصته من لطمة على وجهه في تيفولي ، وكنت قد زرته مرة . فشمرت عن ساعدي وانكفأت منحدراً في شارع توردن سكيلد فوجدت باباً عليه بطاقة باسم س . زكريا بارتل ، فدققت عليه .

فخرج بنفسه ، وكانت تفوح منه رائحة الدخان والجعة إلى حد الكراهية ، وقلت :

ـ مساء الخير .

ـ مساء الخير! هو أنت ؟ لا ، يا للشيطان! لماذا جئت هكذا متأخراً ؟ إنها لا تظهر جيدة في ضوء المصباح ، فقد أضفت إليها أشياء ، بعد أن زرتني ذات مرة ، وعملت فيها بعض تغييرات . يلزمك أن تراها في ضوء النهار ، أما الآن فلا فائدة بالمرة .

ومع أني لم أدر عن أية صورة يتكلم ، قلت له :

ـ دعني على رغم ذلك أراها الآن!

فأجاب :

ـ هذا محال بالمرة! فسيظهر كل شيء أصفر! وثم يوجد شيء آخر في الطريق ـ واقترب مني هامساً ـ عندي الليلة بنية صغيرة ، وهذا يحول دون دخولك .

ـ نعم ، مادام الأمر كذلك فلا معنى للكلام .

وانسحبت قائلاً : مساء الخير . وانصرفت .

ولم يبق أمامي إلا الذهاب إلى أي مكان في الغابة . آه ، لو أن الأرض لم تكن مبللة هكذا! وضربت على ملحفتي ، وجعلت أبث في نفسي على الدوام فكرة ضرورة النوم في الخلاء . وأما وقد عانيت البلاء في الحصول على مأوى في المدينة حتى بتّ كليلاً متبرماً بكل شيء ، فقد بدت لي الطمأنينة والغبطة في الوصول إلى الراحة وتسليم الأمر للقضاء ، والتسكع في الطرقات بدون أن أشغل رأسي بشيء ، فسرت ماشياً حتى بلغت ساعة الجامعة ، فإذا الساعة العاشرة قد فاتت ، فأخذت طريقي من هناك مصعّداً في المدينة . وعند نقطة ما في شارع «هاجدي هوجن» وقفت جامداً أمام محل للأغذية ، قد وضع في نافذته بعض أصناف الأغذية . وهناك بجوار إحدى الفطائر المدورة البيضاء رقدت قطة ، وخلفها تماماً كان قدر من الدهن السائل وعدة زجاجات من الخشكار المقشور . فوقفت برهة أتأمل هذه الأغذية . ولما لم أكن أملك شيئاً من النقود لشراء بعضها ، أدرت ظهري واستأنفت المسير . وسرت متباطئاً جاداً في السير ساعة بعد ساعة ، حتى بلغت في النهاية غابة بوخشتات .

وهنا انعطفت من الطريق ، وأخذت مجلسي أنشد الراحة . ثم درت بعيني أبحث عن مكان مناسب ، ولممت بعضاً من نبات الخلنج والعرعر ، وهيأت لي مكاناً فوق مرتفع ضيق به شيء من الجفاف . وفتحت حزمتي وأخرجت الملحفة . وكنت تعباً ضيق الصدر من طول الطريق ، فاستلقيت في الحال طلباً للنوم ، وبقيت أتقلب ذات اليمين وذات الشمال حتى صادفت في النهاية الوضع المناسب للنوم . وكانت أذني تؤلمني بعض الألم ، وقد ورمت قليلاً من ضربة الرجل الذي كان يركب عربة التبن ، ولم أكن أستطيع أن أنام

عليها . فخلعت نعلي ووضعتها تحت رأسي بعد أن غطيتها بورقة الحزمة الكبيرة .

كانت الظلمة تشمل ما حولي وكان كل شيء ساكناً . نعم ، كل شيء كان ساكناً . بيد أنه فوق ، في العلى كانت ترن الأغاني الأزلية : الهواء ، الطنين البعيد الذي لا نغم له ، والذي لن ينقطع أبداً . فأصغيت طويلاً لهذا النغم الضعيف الموصول ، حتى أخذ يبلبلني . وإنه لا شك ألحان خارجة من العوالم المحيطة بي ، من الأجرام السماوية التي ابتدأت توقع أناشيدها .

ولكي أشجع نفسي قلت مقهقهاً : إنه الشيطان! إنها طيور البوم تنعق في أرض كنعان!

ونهضت واقفاً ثم عدت فاعتدلت ولبست حذائي واندفعت أسير في الظلام . ثم عدت من جديد ، فرقدت وأخذت أجالد والخوف حتى انبلج الصباح ، وغلبني النوم في آخر الأمر .

وفتحت عيني على ضوء النهار ، فرجَحتُ في نفسي أن الظهر قد حان ، فلبست حذائي ، وحزمت الملحفة ثانية وعدت قاصداً المدينة . ولم تكن الشمس لترى في هذا اليوم . وكنت أرتعد كالثعلب من هول البرد ، وماتت ساقاي ، ودمعت عيناي كأنهما كانتا لا تقويان على مقاومة ضوء النهار .

الساعة الثالثة الآن ، وقد ابتدأت وطأة الجوع تشتدّ عليّ وخارت قواي وأخذني الغثيان فصرت أقيء خلسة هنا وهناك وأنا أمشي . ثم انعطفت إلى ناحية «المطعم الشعبي» وأخذت أقرأ قائمة الطعام ، وهززت منكبي لافتاً إليّ النظر ، كأن اللحم القديد وشحم الخنزير ليسا بالطعام الذي يليق بي . ثم أخذت طريقي إلى محطة المسافرين .

وسرى فجأة دوار في رأسي . فاستأنفت السير ، وأردت ألا أعيره شيئاً من الاهتمام . ولكن الحال ازدادت سوءاً على سوء . فاضطررت في النهاية إلى الجلوس على إحدى درجات السلم ، وحدث انقلاب في كل نفسي فكنت أحس كأن شيئاً قد انسل إلى ناحية من أعماق كياني أو كأن ستاراً أو نسيجاً في دماغي قد تمزق أو انشطر شطرين ، فزفرت بضع زفرات عميقة وبقيت هناك مبهوتاً . ولكني لم أفقد صوابي ، فقد كنت أحس في جلاء كيف كانت أذني تؤلمني كما أني عرفت في الحال أحد معارفي بمجرد مروره بي ، ونهضت واقفاً وحيّيته .

أي إحساس جديد ، أي عذاب مؤلم هو هذا الذي جاء ضغثاً على غيره من الموجعات ؟ ترى ، أهو نتيجة لنومي على الأرض الرطبة بالعراء ؟ أم نشأ من عدم حصولي على طعام الفطور بعد ؟ الواقع أن الحياة على مثل هذه الحال سخافة ، وإني وحق آلام المسيح المقدسة لا أستطيع أن أتصور ما أستحق عليه كل هذه الآلام المصبوبة عليّ! وخطر في ذهني فجأة أنه ربما كان من المناسب أن أنقلب شريراً ، فأذهب بالملحفة إلى دار الرهون ، إذ من الممكن رهنها على ريال أحصل به على ثلاث وجبات كاملة أستطيع بها إمساك رمقي حتى أجد لي مخرجاً . وأما هانس بولي فسألفق له أي شيء . ووجدتني في طريقي إلى هناك . ولكني توقفت عند المدخل ، وهززت رأسي متردداً ، ثم عدت إدراجي .

ومع كل خطوة أبتعدها كان يتضاعف سروري ، لانتصاري على هذه الفتنة الشديدة . وتصاعد الإحساس في رأسي بأني رجل شريف فأفعم نفسي بشعور جليل أنني على خُلق... أنني منارة بيضاء في وسط بحر الإنسانية العكر ، بين الحطام والبقايا العائمة . ملكية شخص آخر تُرهن من أجل وجبة

طعام... ويفتَرس الطعام ، ويُكرع الشراب ، ويُنزل الإنسان بنفسه العار ، ويدعى في وجهه بالوغد ، ولا مفرّ له من الإغضاء على هذه المهانة ؟ هذا لن يكون! فما اعتزمت هذا يوماً ما في جدّ ، وكل ما هنالك أنه مرّ بخاطري مروراً عابراً . والواقع أن الانسان لا يمكنه أن يكون مسؤولاً عن خواطر مبهمة عابرة ، ولا سيما إذا كان مصاباً بدوار فظيع وهو على وشك الهلاك يجر ملحفة تخص غيره .

ومع ذلك فالمؤكد أني سأجد حلاً بمرور الوقت! فلم يزل أمامي التاجر الذي في شارع غرونلاند ، فهل ترددت عليه مرة بعد أخرى وأزعجته منذ وجهت إليه طلبي ؟ هل قرعت جرس بابه في الصباح والمساء فردّني خائباً ؟ إنني لم أحضر إليه لأعرف الجواب . وليس حتماً أن يكتب الإخفاق التام لهذه المحاولة ، فربما حالفني الحظ هذه المرة . وكثيراً ما اتخذ الحظ له طريقاً ملتوياً عجيباً . وانطلقت قاصداً شارع غرونلاند .

ونهكني بعض النهك ذاك الاضطراب الأخير الذي أصاب رأسي ، فسرت في بطء شديد أفكر فيم عساي أقول للتاجر... قد يكون الرجل ذا خلق كريم فيعطيني ، إذا ما صفا مزاجه ، ريالاً دون أن أسأله أجراً مقدماً على عمل . وأمثال هؤلاء الناس قد تخطر ببالهم مثل هذه الفكرة بين وقت وآخر .

انسللت إلى باب خارجي كبير في إحدى الدور ، وسودتُ بلعابي ركبة بنطلوني كيما أظهر بمظهر مناسب ، ووضعت الملحفة في زاوية مظلمة وراء صندوق ، ثم اجتزت الطريق بخطوات واسعة ودخلت في الدكان الصغير .

فوجدت هناك رجلاً واقفاً يلصق أكياساً صنعها من ورق الصحف القديمة ، فقلت له :

ـ أود أن أخاطب السيد كريستي .

فأجاب الرجل : هأنذا .

ـ حسناً . اسمي فلان ، وقد قدمت إليكم طلباً ، ولا أدري ماذا تم بشأنه .

فأعاد الرجل اسمي عدة مرات ، وطفق يضحك ، ثم قال : « أصغ إلي » . وسحب طلبي من جيبه وتابع قائلاً : « هل لك أن تتفضل يا سيدي فترى بنفسك كيف أنك تخطىء في الحساب ؟ لقد أرخت خطابك بعام ١٨٤٨ » .

وضحك الرجل ملء شدقيه . فقلت بانكسار :

ـ نعم هذا مؤلم ، هذا سهو... انشغال بال... أسلّم بذلك!

فقال : إعلم أني لا بد لي من رجل لا يخطىء البتة في الحساب . أتأسف كثيراً . إن خطك من الوضوح بحيث أعجبني خطابك ولكن...

فانتظرت واقفاً مدة من الزمن ، إذ لا يمكن أن تكون كلمات الرجل هذه هي آخر ما يقوله لي . وعاد الرجل فأخذ يعمل في أكياسه .

وعلى ذلك قلت :

ـ آسف كل الأسف ، وأؤكد لك أن هذا لن يتكرر مرة أخرى . ومثل هذه الغلطة التافهة لن تجعلني غير صالح لمسك الدفاتر .

فأجاب : لا ، أنا لم أقل ذلك . غير أني لسبب ما ، أعلق عليها شيئاً كثيراً من الأهمية ، ولذا اعتمدت بالفعل شخصاً آخر في الحال .

فسألته : أشغلت الوظيفة إذن ؟

ـ نعم .

ـ يا لله! أوَ ليس في الأمر حيلة بعد ؟

ـ لا ، آسف ، ولكن...

فقلت : إلى الملتقى .

وغلى الحقد في صدري وانقلبت وحشاً ثائراً . استعدت حزمتي من مدخل الباب ، عاضاً على أسناني ، وأخذت أجري فوق أرصفة الطرق في عكس المارة المسالمين وأصدمهم دون أن أسألهم معذرة . وما كاد يقف أحد المارة يعنّفني بشيء من الحدة على مسلكي ، حتى التفت إليه ، وفي شدة ثورتي العمياء التي أفلت زمامها من يدي ، صرخت في أذنه ،كلمة واحدة ، كلمة مجنونة ، وكورتُ يدي وقرّبتها تحت أنفه ، ثم استأنفت المسير . فنادى أحد الشرطة ، ولم يكن أحب إليّ من وقوع شرطي بين يدي ولو لحظة من الزمن ، فسرت متباطئاً عن عمد كي أتيح له فرصة للقبض عليّ . ولكن أحداً لم يأت . ترى ، هل ثم حكمة في أن يكتب الإخفاق التام على كل محاولاتي التي أبادر إليها في جد وحماسة ؟ ولأي سبب كتبت الرقم ١٨٤٨ ؟ وماذا يعني هذا الرقم المشؤوم ؟ إنني الآن أتضور جوعاً فتتعقد أمعائي في داخلي وتتلوى كالأفعى ولا أرى أنه كتب عليّ أن أذوق لقمة واحدة قبل أن ينصرم هذا النهار . وقد كنت كلما طال عليّ هذا ، أزداد خفة في عقلي وجسمي حتى أخذت أسفُّ بالتدريج يوماً بعد يوم ، فكذبت بدون أن يعتريني الخجل ، وخدعت أناساً فقراء من أجل كراء الغرفة ، وكافحت بذهنية حقيرة لأغتصب ملحفة أحد الناس . كل هذا بدون أن أشعر بندم أو توبيخ ضمير! لوثات عفنة تغلغلت في صميم نفسي وكمآت سوداء أخذت باستمرار تتمدد ، وفي السماوات يرقبني المولى بعين يقظة ويسهر على أن يكون انحداري انحداراً منظماً مستمراً ، وعلى مهل ، وبدون أن يصطدم بتقديرات الزمن . غير أن الشياطين اللعينة

كانت تطوف في قرار الجحيم تتطلع من القلق ، لأنني تأخرت طويلاً في ارتكاب إثم عظيم لا يغتفر ، فتلقي بي من أجله عدالة الله في الجحيم...

فحثثت السير مندفعاً ، ثم انعطفت فجأة إلى جهة الشمال فوصلت إلى باب دار مزخرف بهي ، وكنت ساعتئذ في حالة غضب وحنق ، فلم أقف مكاني ، ولا توقفت لحظة واحدة بل دخلت وقفزت في السلم صاعداً ، ومع ذلك فقد أخذت بلبي زخرفة الباب في مجموعها . وقامت جلبة أمام عيني كل صغيرة بالأبواب ، أو في الزخرف ، أو على الجص . ودققت جرس الدور الأول بشدة ، وليتني أدري لماذا قبضت خاصة على حبل الجرس الذي كان أبعد الحبال عن الدرج!

ففتحت الباب سيدة في مقتبل الشباب ، في ثوب رمادي ذي حاشية سوداء . وتأملتني فترة قصيرة في دهشة ، ثم هزت رأسها قائلة :

ـ لا ، ليس لدينا اليوم شيء!

وظهر عليها أنها تهم بإغلاق الباب .

ترى ، لماذا خسأتني أيضاً هذه الفتاة ؟ إنها تحسبني بلا شك متسولاً! ودفعة واحدة هدأت نفسي وأصبحت لا أبالي بشيء ، فخلعت قبعتي وانحنيت أمامها باحترام ، وقلت في أدب كأنني لم أسمع كلماتها :

ـ معذرة أيتها الآنسة لدقي الجرس هكذا بشدة ، فلم يكن لي علم به من قبل ، لقد حسبت أنه هنا يسكن سيد مريض كان قد أعلن في الصحف عن حاجته لرجل يجر كرسيه ذا العجلات .

فوقفت برهة تتأمل هذه الاختراعات الملفقة ، وظهرت على محياها الحيرة والشك في شخصي . ثم قالت :

ـ لا ، لا يسكن أحد مريض هنا .

ـ تقولين لا ؟ هو سيد متقدم في السن... مدة الرياضة ساعتان في اليوم ، بأجر أربعين «أورا» للساعة .

ـ لا .

فقلت : إذن أسألك المعذرة مرة أخرى . ربما كان في الدور الأرضي ، إنما أردت أن أوصيه برجل أهتم بشأنه ، وقد عرفته صدفة ، اسمي فيديل يارلسبرغ . وانحنيت مرة أخرى وانصرفت ، فالتهبت وجنتا البنت بالحمرة ، ولم تستطع حراكاً من مكانها لشدة ارتباكها ، ووقفت تحدق إليَ وأنا أنزل على الدرج .

وعادت إليَ طمأنينتي وصفا رأسي فقد كانت كلمات السيدة : «ليس لدي شيء لك اليوم» أشبه بسقوط الماء البارد عليَ . وهكذا ساءت الأمور إلى حد أنه كان في استطاعة كل من يراني أن يقول في نفسه : «هوذا متسول واحد من أولئك الذين يحصلون على قوتهم من الناس بقرع أبواب المساكن» .

وفي شارع مولر وقفت أمام مطعم أستنشق الرائحة الشهية ، رائحة اللحم الذي يُشوى في داخل المكان ، ثم أعملت يدي في مزلاج الباب أريد الدخول بدون أن يكون لي عمل هناك . ولكني ضبطت نفسي في الوقت المناسب وانصرفت . وعندما بلغت السوق الكبير أخذت أبحث عن مكان أستريح فيه قليلاً ، إلا أن المقاعد كانت كلها مشغولة فصرت أطوف حول الكنيسة بدون جدوى ، أنقب عن مكان هادىء يمكنني أن آوى إليه ، وقلت لنفسي في أسى : «بالطبع! بالطبع! بالطبع!» ثم استأنفت السير وجلت جولة حول النافورة القائمة عند ناحية السوق ، وشربت جرعة من الماء ، ثم سرت

من جديد إلى الأمام أنقل قدماً عن قدم ، مضيعاً وقتاً طويلاً عند واجهة كل حانوت ، ثم أقف وأتبع بعيني كل عربة تمر بي . وأحسست حرارة تشتعل في رأسي ، وضرباً غريباً في صدغي ، وقد أضرَّ بي الماء الذي شربته ضرراً بليغاً ، فأخذت أقيء في الطريق عن الشمال وعن اليمين ، حتى بلغت مدفن المسيح ، فأخذت مجلسي وأسندت مرفقي إلى ركبتي وأخذت رأسي بين يديَّ . وعلى هذا الوضع الملموم خفت آلامي ولم أعد أحس في صدري ذلك اللذع المتواصل .

وقد انبطح حجَّار بجواري على بطنه فوق حجر من الصوان ، ينقش عليه أحد الأسماء ، وكان يضع على عينيه نظارة زرقاء ، فذكَّرني في الحال بصديق كدت أنساه ، وكان يعمل في أحد المصارف ، وكنت قد التقيت به منذ مدة طويلة في مقهى اوبلاندسكي .

ليتني أتغلب على حياتي فأقصده وأقص عليه الحقيقة كما هي ، فأقول له إن حالي الراهنة قد بلغت من السوء مبلغاً عظيماً ، وإنه بات من المتعذر عليَّ أن أمسك حياتي! وفي استطاعتي أن أعطيه دفتر اشتراكي عند الحلاق... إلى الجحيم يا دفتر الحلاقة! قسائم بما يقرب من الريال! وأخذت أبحث عن هذا الكنز الثمين باهتمام شديد . ولمّا لم أجده في الحال انتصبت واقفاً أبحث عنه وأنا غارق في بحر من عرق الوجل . وفي النهاية وجدته في قعر جيبي مع أوراق أخرى لا أهمية لها ، مكتوبة وغير مكتوبة ، فعددت هذه القسائم الست عدة مرات ، من المقدمة ومن المؤخرة ، وكأني لم أكن في مسيس الحاجة إليها . وربما كان ضرباً من الشذوذ أو هاجساً من الهواجس ، اعتقادي بأني لم أعد في حاجة للحلاقة . وتصور لي أنني لا بد قابض على عنق ريال أبيض من فضة كونسبرغ... ولما كان المصرف يغلق

أبوابه في الساعة السادسة فقد كان لا يزال في مكنتي مقابلة الرجل في مقهى أوبلاندسكي بين السابعة والثامنة .

وجلست هناك مدة طويلة وقد أسكرتني هذه الفكرة . وأخذ الوقت ينصرم ، وكانت الريح تلعب بشجرة القسطل حولي ، وقد مال ميزان النهار . ترى ، أأشعر بشيء من الخجل أن آتي موظفاً في مصرف بست قسائم للحلاقة ؟ فمن يدري ، فقد يكون في محفظته دفتران غليظان للحلاقة أجمل وأبهى بكثير من قسائمي هذه . وأخذت أبحث في كل جيوبي لعلَّيَ أجد أشياء أخرى يمكن أن أقدمها له مع القسائم ، ولكني لم أجد شيئاً . لو أني أستطيع أن أقدم له رباط رقبتي... ففي طاقتي الاستغناء عنه إذا أنا زررت سترتي حتى أعلى العنق . وفوق ذلك لا حاجة لي به لأنني بدون صدار .

وفككت رباط الرقبة وكان رباطاً كبيراً يغطي نصف صدري ، ونظفته بعناية فائقة ولففته مع دفتر الحلاقة في قطعة ورق غير مكتوبة ، وغادرت المدفن منحدراً إلى مقهى أوبلاندسكي .

وكانت الساعة السابعة بدار البلدية ، فسرت على مقربة من المقهى أتمشى ذهاباً وإياباً على طول الحاجز الحديد ، وألقي بنظرات حادة على كل من يلج الباب أو يخرج منه . وحوالى الثامنة أبصرت الفتى قادماً في الطريق ، في أناقة ونشاط ، وقد مال على باب المقهى ، قفز قلبي في صدري كالعصفور الصغير عندما تلتقيه ، ووقعت عليه في غير حيطة وبدون أن أحييه ، وقلت له وقد تظاهرت بالجرأة :

- نصف ريال أيها الصديق القديم ، وهاك قيمته .

ودسست هذه الصرَّة الصغيرة في يده . فقال :

ـ ليس لديَّ . لا ، الله يعلم أن ليس لديَّ!

وقلب كيس نقوده أمام عيني وتابع يقول :

ـ لهوت أمس ، فأنا اليوم صفر اليدين ، أرجو أن تصدقني أني لا أملك شيئاً .

فأجبته وقد صدقت كلامه : لا ، لا ، لا يا عزيزي . فالمسألة أهون من ذلك ، ولا داعي للكذب من أجل شيء زهيد كهذا .

وبدا لي كأن عينيه الزرقاوين قد دمعتا عندما بحث في جيوبه ولم يجد شيئاً ، وانسحبت قائلاً : أرجوك المعذرة! إنما كنت في ورطة بسيطة .

وكنت قد انحدرت مسافة بعيدة في الشارع عندما ناداني من أجل صرتي الصغيرة ، فقلت له :

ـ إحتفظ بها لك ، احتفظ بها لك وليبارك لك فيها! إن فيها أشياء تافهة ، أشياء زهيدة القيمة تكاد تكون كل ما أملكه على ظهر الأرض!

واضطربت عند تلفظي بهذه الأقوال ، فقد رنَّ فيها صوت عدم العزاء في ذلك المساء المظلم ، وأخذت أبكي .

وتحركت الريح وجرى السحاب في السماء ، وكلما ازداد الظلام ازداد البرد ، فسرت أبكي طول الطريق وأخذت الشفقة على نفسي تتزايد ، فأخذتُ أردّد مراتٍ جملةً واحدة ، وهي صرخة كانت تُرسل بدموعي كلما أرادت أن تتوقف : «مولاي وإلهي ، ما أسوأ حالي! مولاي وإلهي ، ما أسوأ حالي!» .

وانقضت ساعة ، ولكنها انقضت ببطء وفتور لا حد له . وقطعت زمناً طويلاً في شارع «تورف» فكنت أجلس على المدرجات ، وأتسلل إلى الأبواب إذا مرَّ بي أحد ، ثم أقف وأحملق شارد الفكر في الحوانيت المضيئة

التي كان يسير فيها الناس بالبضائع والنقود . وفي النهاية وجدت لي محلاً أميناً وراء كومة من الألواح بين الكنيسة والسوق .

لا ، ليس في مقدوري الليلة أن أبلغ الغاية ، وليكن ما يكون! ليس لي قوة على هذا ، فالشقة بعيدة لا نهاية لها! ورأيت أن أقضي ليلتي هنا بقدر المستطاع ، فأبقى حيث أنا ، وإذا أشتد البرد ففي المكنة أن أدور قليلاً حول الكنيسة إذ لم أعد أهتم بشيء . وعدت فأسندت رأسي وأغفيت إغفاءة بين اليقظة والمنام .

وأخذت الضجة التي حولي تتناقص ، وأغلقت الحوانيت أبوابها وقلّ وقع خطوات السابلة ، وأظلمت النوافذ شيئاً فشيئاً .

ولما فتحت عينيَّ إذا بشبح واقف أمامي يحدّق إليَّ . ولم أستطع أن أتبين وجهه ، ولكني رجحت أنه شرطي ، من أزراره اللامعة التي كانت تضيء قبالتي .

قال : عم مساءً!

فأجبته في وجل : عم مساءً!

وانتصبت واقفاً مرتبكاً ، ووقف الرجل مكانه فترة بدون حراك . ثم سألني : أين تسكن ؟

فذكرت له ، تبعاً لعادتي القديمة ، وبدون تفكير ، عنواني القديم ، عنوان غرفتي العليا الصغيرة التي تركتها . وبقي مدة من الزمن واقفاً أمامي ، فقلت له في خوف : هل أتيت أمراً مخالفاً ؟

فأجاب : لا ، معاذ الله . ولكن عليك أن تعود الآن معافى إلى دارك فالجو هنا بارد جداً لا يصلح للرقاد .

نعم ، الجو رطب ، وقد أحسسته...

وقلت : عم مساءً .

وأخذت طريقي بالغريزة إلى غرفتي القديمة . إذا أنا تقدمت في حذر فلا شك أني بالغها بدون أن يسمعني أحد ، فالمسألة كلها ثماني درجات ، والدرجتان الأخيرتان هما وحدهما اللتان تفرقعان تحت الأقدام .

وخلعت نعلي في أسفل الدار ، ثم صعدت في السلم ، وكان كل شيء هادئاً . وسمعت في الدور الأول دقات الساعة البطينة وطفلاً يبكي ، ثم لم أعد أسمع شيئاً . ووجدت باب غرفتي ، فرفعته قليلاً عن مفصله وفتحته بدون مفتاح ، كما هي عادتي ، ودخلت الغرفة ورددت الباب بدون أن يسمع له صوت .

كان كل شيء على حاله كما تركته ، فستائر النوافذ مشدودة إلى ناحية ، والسرير خال . وتمكنت من أن أتبين ورقة على المائدة ، فظننتها رسالتي إلى صاحبة الدار ، فربما لم تأت صاحبة الدار إلى الغرفة منذ غادرتها . وتلمست بيدي الشيء الأبيض ، ولشد ما دهشت عندما رأيت أنه كتاب . كتاب ؟ وأخذته إلى النافذة وتأملت حروف خطه الرديئة بقدر ما سمح الظلام . وأخيراً وجدت اسمي عليه... وقلت في نفسي : «لا شك أنه ردّ من صاحبة الدار تحرم فيه عليَّ أن أخطو خطوة واحدة إلى هذه الغرفة إذا ما وجدتني مضطراً للجوء إليها» .

عدت فخرجت من الغرفة متباطئاً كل التباطؤ ، أحمل حذائي في يد وأحمل الكتاب في اليد الأخرى ، متأبطاً الملحفة ، أسير بخفة وأعض على أسناني عند الدرجات ذات الفرقعة . ونزلت في الدرجات كلها ووصلت سالماً ، إلى أن وجدت نفسي من جديد عند الباب .

وعدت فلبست حذائي وأخذت وقتاً طويلاً في ربطه . وبعد الفراغ منه جلست فترة ساكناً ، ثم حدّقت ببصري أمامي بدون وعي وأنا ممسك الخطاب بيدي .

ثم نهضت وسرت .

هناك في الشارع كان يشع ضوء مصباح ناري وهّاج ، فسرت إليه ووقفت تحته وأسندت حزمتي إلى قائمته وفتحت الكتاب ، وقد تم كل ذلك في غاية البطء .

وسرى في صدري مثل فيض من نور سمعت له صوتاً ، وسمعت لصوته رنّة رخيمة ، رنّة الغبطة التي لا توصف.. فقد كان الكتاب من رئيس التحرير : قبلت مقالتي وأرسلت في الحال للصف : «بعض تصحيحات يسيرة... صححت بعض زلات قلمية... كتبت بحذق... ستطبع غداً... عشرة ريالات...» .

فضحكت وبكيت ، ورجعت أقفز في الطريق ، ثم أقف وأضرب على ركبتي ، وأسب وأصخب في شدة وبلا تدبر ، لا لشيء ولا لسبب!

وأخذت الساعات تمضي .

وطفقت أصيح طول الليل في الطرقات حتى وضح الصباح ، مأخوذاً من الفرح ، أعيد في سري : « كُتب بحذق... هي آية صغرى... وميض العبقرية... عشرة ريالات! » .

الفصل الثاني

وبعد مرور بضعة أسابيع وجدت نفسي ذات مساء في العراء وعدت إلى أحد المدافن لأكتب مقالاً لإحدى الصحف . ودقت الساعة عشراً وأنا منهمك في الكتابة . وهجمت جيوش الظلام ، فكان لا بد من إغلاق الأبواب . وكنت جائعاً ، بل أتضور جوعاً ، فقد نفدت العشرة ريالات للأسف بأسرع ما يمكن ، ومضى عليَّ الآن يومان وأوشك اليوم الثالث أن ينصرم منذ تناولت قليلاً من الطعام . وأحسست ضعفاً وشيئاً من الإجهاد من جراء الكتابة بالقلم الرصاص ، وكان كل ما في جيبي نصف سكين وحلقة مفاتيح ، ولم يكن لديَّ فلس واحد .

وعندما أغلقت أبواب المدافن كان عليَّ أن أذهب إلى مسكني ، وهو معمل صفيح مهجور سُمِحَ لي أخيراً بالإقامة فيه فترة من الزمن . ولكن لخوف غريزي فيَّ من غرفتي التي كان كل شيء فيها مظلماً ، أخذت أتسكع بعيداً عنها . وقد انسقت بدون قصد إلى أن بلغت مستودع الميناء ، وتجاوزته إلى البحر ، وهناك أخذت مجلسي على مقعد فوق رصيف السكة الحديد .

ولم يخطر ببالي في تلك الحظة أي خاطر مكدر ، فقد نسيت بأساني وشعرت بالاطمئنان لمشهد البحر الساكن البديع في ديجور الظلام . وتبعاً لعادتي القديمة أحببت أن أتمتع بقراءة القطعة التي كنت قد كتبتها ساعتئذ والتي بدت لذهني المكدود كأفضل ما كتبته حتى الآن ، فتناولت الأصول من جيبي وقربتها من عينيَّ كي أتمكن من رؤيتها جيداً ، وتصفحتها واحدة بعد الأخرى وأخيراً ظهر عليَّ التعب ، فدسست المخطوطة ثانية في جيبي . وكان كل شيء حولي ساكتاً ، فالبحر كان كالصدفة الزرقاء ، وصغار الطيور كانت تطير أمامي من مكان إلى مكان بدون أن يسمع لها حس . وما عدا الشرطي الذي كان يجول على بعض المسافات ، لم يكن يُرى أحد ، فكان الميناء في سكون عميق .

وعدت فعددت ثروتي : نصف سكين ، وحلقة مفاتيح ، وليس عداهما فلس واحد . ووضعت يدي بغتة في جيبي وسحبت المخطوطة مرة ثانية! عملية آلية... هزّة عصبية بدون وعي! ثم بحثت بينها عن ورقة بيضاء غير مكتوبة - ويعلم الله وحده كيف خطر لي هذا الخاطر- وصنعت منها بوقاً ، وأحكمت إقفاله بحيث يبدو كأنه ملآن ، وألقيت به بعيداً على الأسفلت ، فحملته الريح إلى مسافة أبعد ، وهناك بقي في مكانه .

وابتدأ الجوع يعضني بأنيابه ، فجلست مكاني أنظر إلى هذا البوق الأبيض الذي خُيِّلَ إليَّ أنه مليء بالعملة الفضية البيضاء وأخذت أعمل على إقناع نفسي بأن فيه شيئاً بالفعل ، فاعتدلت في جلستي وأخذت أغالط نفسي لأحزر مقدار ذلك المبلغ ، وأقول لها : «إن أنا صدقت في حزري ، فالمبلغ لي!» وتصورت القطع ذات العشرة أورات[1] الصغيرة الدقيقة في

(١) جمع أورا ، وهو عملة نرويجية .

القعر ، وفوقها الريالات السميكة المضلعة! خلت البوق بأسره مملوءاً بالعملة فجلست أنظر إليه بعينين مفتوحتين وأحرّض نفسي على الذهاب إليه واختلاسه .

ثم سمعت الشرطي يسعل ، ولا أدري كيف خطر لي أن أفعل فعلته ، فانتصبت واقفاً من مقعدي وسعلت ، وكررت هذا ثلاث مرات كي يسمعه ، فما أبدعه يقع على البوق إذا بلغه! وطربت لهذه المهزلة وأخذت أقلب يدي من الجذل ، وأسب وأصخب وأقول : «فليلوِ وجهه ، الكلب! ومقره قاع الجحيم من جراء حيلة الخبيث هذه!» وكنت ثملاً من الجوع ، فقد أصبت منه بنشوة .

وبعد بضع دقائق جاء الشرطي يدب بعقبه الحديد على بلاط الطريق ويعس في جنباته . وكان يمشي على مهل لأن الليل أمامه كان طويلاً ، فلم ير البوق إلا عندما اقترب منه . وتوقف عنده وطفق يتأمله ، فظهر له في موضعه ناصع البياض وذا قيمة نفيسة ، فما عسى يكون به ؟ ربما كان به مبلغ يسير ، فكم يكون ؟ أمبلغ يسير من العملة الفضية ؟... ثم رفعه ، فوجده خفيفاً ، في منتهى الخفة! لعل به ريشاً نفيساً مما تحلى به القبعات!... وفتحه بعناية بيديه الضخمتين ، ونظر فيه ، فضحكت... أخذت أضحك وأضرب ركبتي! ضحكت ضحك المخبول ، ولكن لم يخرج صوت من حلقي ، فقد كان ضحكاً مكتوماً ، ضحكاً في القرارة أشبه بالبكاء .

ثم عدت أسمع دبيبه على بلاط الطريق ، وعرج إلى الميناء . وجلست مكاني أشهق والدمع في عينيَّ من فرط السرور ، وابتدأت أتكلم بصوت عال ، فأقص على نفسي شيئاً من قصة البوق ، مقلداً حركات ذراعَي الشرطي المسكين ، محدّقاً إلىٰ كفي ، ومكرراً هذه العبارة المرة بعد المرة وبدون

انقطاع : «سعل عندما رمى البوق! سعل عندما رمى!» وزدت على هذه العبارة شيئاً جديداً وأضفت إليها إضافة رائعة ، ثم أصلحتها وهذبتها في النهاية كما يلي : «سعل مرة... هؤ ، هؤ!» .

وكددت ذهني في تبديل هذه العبارة وإصلاحها . وانقضى هزيع من الليل قبل أن تقف غبطتي عند حد ، وغلب عليَّ سكون النعاس : تراخٍ ناعم لم أقوَ على مقاومته . وساد الكون شيء من الظلام ، وشق النسيم العليل طريقه من البحر ، وبدت السفن القائمة سواريها تجاه السماء مع هياكلها السوداء وحوشاً هائلة صامتة وقف شعرها وقد رابطت تنتظرني! ولم أحس أثراً للآلام ، وخمد الجوع وأحسست مكانه راحة الخلو ، وأطربني أني كنت منقطعاً عن كل ما حولي لا يراني أحد ، فمددت ساقي على المقعد وأسندت رأسي إليها ، فوجدت بهذا الوضع الطمأنينة التي تغمر المرء في الوحشة الكبرى . ولم يكن في نفسي أية غضاضة ، ولا إحساس بالأسى ، وبقدر ما أستطيعه من التفكير لم تكن لديَّ شهوة أو رغبة لم أشبعها ، فرقدت بعينين مفتوحتين في حالة غيبوبة ، ووجدتني في عالم آخر معافى!

وظل السكون عميقاً فلم يصل إلى أذني صوت يزعجني ، وقد أخفى الظلام الرطب العالم بأسره عن عينيَّ ودفنني هنا في سكون تام . وليس ثمة غير صخب الوحشة يرن في أذني على وتيرة واحدة . وإذا جن الليل ستجذبني إليها هذه الوحوش السوداء القائمة في العراء ، وستحملني بعيداً عن البحار إلى أرض نائية لا يقطنها إنسان ، ثم يأتون إلى قصر الأميرة يلايالي حيث ينتظرني نعيم لم يمر ببال بشر ، وستجلس بنفسها في بهو مضاء صُنع جميعه من البلور الملون ، على عرش من الورود الصفراء ، وستمد لي يدها عند مقدمي ، وتحييني وتؤهل بي عندما أقترب منها وأركع

أمامها وتقول لي : «وجدت أهلاً ونزلت عندي وفي بلادي سهلاً أيها الفارس! لقد انتظرتك منذ عشرين صيفاً ، وفي الليلات الوضيئة ناديتك! وما ضاقت بك الدنيا مرة إلا كنت أبكي هنا! وعندما كنت تنام كنت أنفث فيك الأحلام الطيبة... » .

وتتناول الحسناء يدي ، فأتبعها ، فتقودني في مداخل مستطيلة حيث تناديها جيوش من الناس : «طوبى! طوبى! » وتأخذني إلى حدائق مضيئة حيث يوجد ثلاثماية حسناء يلعبن ويتضاحكن . وتدخل في قاعة أخرى حيث كل شيء من الزبرجد الوضّاء . وتغمر الشمس المكان ، وتسمع جوقات المرنمين في الأروقة والقاعات ، وتصدمني هبات من العطر ، فأمسك يدها بيدي ، فأحس بقوة عظيمة من السحر تسري في دمي ، فأطوّقها بذراعيّ ، فتهمس قائلة : «ليس هنا ، إتبعني! » فندخل القاعة الحمراء حيث كل شيء من العقيق الأحمر ، فأرى نعيماً كبيراً أغرق فيه إلى الآذان . وعند ذاك أحس بذراعها تطوقّ عنقي وبأنفاسها تلهب وجهي ، وتهمس قائلة : «أهلاً بك أيها الحبيب! قبلني! زدني... زدني... » .

ورأيت من مقعدي نجوماً أمام عينيّ ، وسرحت أفكاري في إعصار من النور...

وكنت غارقاً في النوم ، فأيقظني أحد الشرطة ، فجلست وكأني بعثت بعنف إلى الحياة والشقاء . وكانت دهشتي لوجودي في العراء دهشة جمود في أول الأمر ، ولكن سرعان ما انقلبت خيبة مُرَّةً ، فكدت أبكي أسفاً لأني لا أزال على قيد الحياة . وكانت السماء قد أمطرت في أثناء نومي فنفذ الماء إلى ملابسي ، وأحسست ببرودة قاسية في أضلاعي . وأخذ الظلام يمد رواقه فتمكنت بصعوبة من رؤية ملامح الشرطي الواقف أمامي . قال :

ـ مالك ؟ قم فانهض!

فنهضت في الحال . ولو أمرني أن أعود فأرقد لأطعته أيضاً ، فقد كنت ضيِّق الصدر خائر العزيمة ، أضف إلى هذا أني ابتدأت في هذه اللحظة أحس بالجوع من جديد . وصاح بي الشرطي :

ـ إنتظر قليلاً . يا لك من أحمق! أتنصرف دون قبعتك ؟ الآن سر!

وقد بدا لي كذلك كأني نسيت شيئاً... بالفعل... فغمغمت متلعثماً وفي حالة غيبوبة ، أشكرك ، مساء الخير!

وعدت إلى التسكع ثانية .

لو أني أملك كسرة صغيرة من الخبز ، فقط ، أضعها بين أسناني! رغيفاً صغيراً من خبز الجويدار العظيم الذي يمكن القضم منه في أثناء المسير في الطرقات! واستأنفت السير ، وأخذت أتصور هذا النوع العجيب من خبز الجويدار الذي يكون الأكل منه الآن شيئاً عظيماً . وكنت أتضور من الجوع فتمنيت لو أني مت وعُفِّيَ أثري . وتحركت عواطفي ، فبكيت ، فإن شقائي لم يشأ أن يقف عند حد! ووقفت فجأة في الطريق وأخذت أضرب بلاطه بقدميَ وأسب بصوت عال . بأي شيء دعاني الشرطي ؟ غبي ؟... سأري هذا الشرطي ماذا تكلفه دعوتي بالغبي! وعدت أدراجي أجري ، وكنت أتقد غضباً ، فعثرت عند نهاية الشارع ، فسقطت على الأرض ، ولكني لم أهتم لذلك وعدت أثب جارياً . ولم أكد أبلغ ميدان المحطة حتى صرت تعباً بحيث وجدتني في حالة لا تسمح لي بالعودة ثانية إلى الميناء ، كما أن ثائرتي قد هدأت أثناء جريي ، فوقفت أستعيد نَفَسي . وأخيراً ، أليس ما قاله الشرطي كلاماً لا يقصده ولا يعنيه ؟ بلى... ولكن مع ذلك لن أترك المسألة تمر كذلك...

وقاطعت نفسي بنفسي قائلاً : «أنا على حق... ولكن هذا هو مبلغ فهمه!» ووجدت هذا الاعتذار مرضياً كافياً فأعدت على نفسي : «هذا هو مبلغ فهمه!» وعلى ذلك عدت أدراجي .

وأخذت أفكر غاضباً : «إلهي ، ما الذي تشاء اختراعه أيضاً! وكيف لي أن أسير في هذه الطرقات المبللة بالمطر كالمخبول في حلك الليل!» وعضّني الجوع بلا رحمة وبغير انقطاع ، فأخذت أبلع ريقي المرة بعد المرة لعلي أشبع نفسي بهذه الطريقة ، وقد ظهر فيها شيء من العون . وقبل أن تصل بي الحال إلى هذا الحد ، كان قد مضى عليَّ عدة أسابيع لم أتناول فيها إلا قليلاً جداً من الطعام ، فتناقصت قواي في الأيام الأخيرة تناقصاً كبيراً . وكنت إذا حالفني الحظ وحصلت بشق النفس على خمسة ريالات بهذه المحاولة أو تلك ، لم تكن تكفي قط لإنعاشي قبل أن تهاجمني المجاعة من جديد فتشلني . وآلمني ظهري ومنكبي جد الألم ، وأما ذلك الحز البطيء الذي يحز في صدري ، فقد كان في استطاعتي مكافحته موقتاً إذا أنا سعلت بشدة أو انحنيت بانتظام ، ولكن ألم الظهر والمنكبين لم أجد لي معه حيلة . ليتني أدري لماذا كتب عليَّ ألا أرى يوماً صحواً ؟ أوَليس لي كذلك حق في الحياة كأي إنسان آخر ؟ كالباشا بائع الكتب القديمة ، أو هينيشن الشحّان ؟ أوليس لي ، مثلاً ، منكبان كمنكبي الجبار ، وذراعان قويتان للعمل ؟ أوَتراني لم أبحث عن عمل في قطع الأخشاب في شارع مولر لأكسب قوت يومي ؟ أوْ كنت كسلان ؟ أوْ لم أبذل جهدي في الحصول على وظيفة ؟ ألم أستمع للمحاضرات ، وأكتب مقالات للصحف ، وأدرس وأشتغل ليل نهار كالمخبول ؟ أوَ لم أحيَ حياة شحٍ على الخبز واللبن في اليسر ، وعلى الخبز وحده في العسر ، وإذا صفرت يدي تضورت جوعاً ؟ ترى ، هل سكنت يوماً في فندق ؟ أوْ اتخذت لي جناحاً في الدور الأول في إحدى الدور ؟ لقد سكنت

في مخزن ، وفي معمل صفيح فرَّ الناس منه في الشتاء الماضي هرباً من قسوة برده وزمهريره! الحق أني لم أعد أستطيع إدراك كل هذا!

فكّرت في كل ما مرَّ بي ، غير أنه لم يكن ثم ذرة من الضغينة أو الحقد أو الغضاضة في نفسي .

ووقفت عند حانوت صبّاغ ، ونظرت في نافذته ، وحاولت أن أقرأ عناوين بعض الصناديق المحكمة السد ، ولكن الظلام كان مخيماً ، فحنقت على نفسي لهذا الخاطر الجديد وضربت النافذة في ثورة غضبي لأني لم أستطع أن أتبين مخبّآت هذه الصناديق . واستأنفت المسير ، وفي أعلى الشارع رأيت شرطياً ، فأسرعت الخطى نحوه حتى صرت قريباً منه ، وقلت له بدون أدنى سبب :

ـ الساعة الآن العاشرة .

فأجاب مندهشاً : كلا ، إنها الثانية!

فقلت : لا ، إنها العاشرة . الساعة الآن هي العاشرة .

وتقدمت إليه بضع خطوات مزمجراً غاضباً وكورت يدي وقلت :

ـ إسمع ما أقول لك : الساعة الآن هي العاشرة!

فوقف مكانه يفكر ملياً ، ثم تأمل شخصي ، وحدق إليَّ مذهولاً ، وأخيراً قال وهو هادىء غاية الهدوء :

ـ على أية حال ، حان الوقت الذي تذهب فيه إلى بيتك . أتحب أن أصحبك إليه ؟

فكسرت رقتّه من حدّتي وأحسست الدموع في عينيَ ، فأسرعت بالجواب وقلت :

ـ لا ، أشكرك! إنما تأخرت قليلاً في أحد المقاهي . أشكرك كثيراً .

فوضع يده على قبعته عند انصرافي . وغلبتني رقته على أمري ، وبكيت لأني لا أملك خمسة ريالات أعطيها له! وبقيت واقفاً أنظر إليه وهو يقطع الطريق متباطئاً ، ولطمت جبهتي ، وكلما ابتعد عني زاد بكائي . وعنّفت نفسي على الفقر الذي أعانيه ، وخلعت عليها صفات تهكمية وسميتها بأسماء الطيور ، واخترعت لي ألقاباً جارحة وأمطرت نفسي بهذه الاختراعات الطريفة من ألقاب التعنيف ، وبالشتائم الفظة . ولبثت على هذه الحال حتى اقتربت من مسكني . ولما بلغت بابه اكتشفت أني فقدت مفاتيحي .

فقلت لنفسي ممروراً : نعم... طبعاً... لماذا لا أفقد المفاتيح ؟ ألست أسكن هنا في منزل تحته اصطبل وفوقه مصنع للصفيح ، وبابه يغلق في الليل فلا يمكن لأحد فتحه ؟ فلماذا لا أفقد المفاتيح ؟ ألست مبللاً كالكلب وبي شيء من الجوع ، شيء قليل... وبركبتي بعض التعب الذي لا يؤبه له... فلماذا لا أفقد المفاتيح أيضاً ؟ وفوق ذلك ، لم لا ينتقل هذا البناء بأسره إلى حي « آكير » من هذه المدينة حتى يضيع بكليته عني حينما أريد الدخول إليه ؟... وضحكت على حالي وقد جمدت في مكاني من الجوع والبرد والانحطاط!

وسمعت حوافر الخيل داخل الاصطبل ، وتمكنت من رؤية نافذتي العليا ، غير أني لم أقوَ على فتح الباب والولوج فيه ، فعقدت العزم على العودة إلى الميناء رغم تعبي ومرارة نفسي لأبحث عن المفاتيح .

وعادت السماء تمطر ، وشعرت بالماء يخترق سترتي ويجري على كتفي . وخطر لي خاطر طيب عند مستودع الميناء ، وهو أن أسأل رجل البوليس أن يفتح لي باب مسكني . وفي الحال قصدت شرطياً ورجوت منه في إلحاح أن يأتي معي لمساعدتي على فتح الباب إذا كان ذلك في مكنته .

وقال الشرطي :

ـ إذا كان ذلك في مكنتي ؟ نعم ، إنه في مكنتي ، ولكن المفاتيح ليست معي... مفاتيح البوليس ليست هنا... إنها في مكاتب البوليس السري .

ـ ماذا أفعل إذن ؟

ـ إذهب إلى أحد الفنادق ونم .

ـ أذهب إلى أحد الفنادق ؟ ولكن هذا ليس في مقدوري إذ ليس لديَّ نقود ، فقد تأخرت الليلة في المقهى... ومفهوم جيداً أن...

ووقفنا برهة قصيرة على درج المستودع المسقوف ، وأخذ الشرطي يفكر ويتدبر الأمر ويتأملني ، والمطر يهطل سيولاً . ثم قال :

ـ وعليه ، يلزمك أن تذهب إلى مركز الحراسة وتذكر لمن فيه أنك بدون مأوى .

بدون مأوى ؟ هذا لم يخطر لي على بال . أي نعم ، يا للشيطان! إنها لفكرة طيبة والله! وشكرت في الحال للشرطي نصيحته الثمينة هذه وقلت له :

ـ إذن فكل ما أحتاج إليه هو أن أذهب إلى هناك وأقول إني بدون مأوى ؟

ـ بمنتهى البساطة .

وسألني المفتش المسؤول : ما اسمك ؟

ـ طانجن . أندريا طانجن .

ولا أدري لماذا كذبت ، فقد كانت أفكاري مشتتة في الفضاء ، وهدتني

إلى عدة تصورات كان في مكنتي استخدامها ، فتذكرت في الحال هذا الاسم المستبعد ، وألقيت به دون حساب ، كذبت بدون حاجة للكذب .

ـ المهنة ؟

فسد هذا السؤال عليَّ الباب! وفكرت في أول الأمر أن أعمل مني صانع صفيح ، ولكني لم أجرؤ ، لأنني أعطيته اسماً لا يحمله صُنَّاع الصفيح . وعدا ذلك فإني أحمل نظارة فوق أنفي فرأيت أن أتواقح ، فتقدمت خطوة إلى الأمام وقلت في ثبات وثقة :

ـ صحفي .

فانكمش المفتش في نفسه قبل أن يكتب ، ووقفت بعظمة أمام الحاجز كأني عضو في مجلس البلاط لا مأوى له . ولم أثر في نفسه أي شك ، فقد فهم الرجل السبب في ترددي بالجواب... إذ كيف تكون حالة صحفي في المستودع ، بدون نار وبدون مأوى!

ـ بأية صحيفة يا سيد طانجن ؟

فقلت : بصحيفة المورجنبلات... وآسف لتأخري الليلة قليلاً...

فقاطعني وقال : «نعم ، لا نود أن نتكلم في هذا الموضوع» . ثم زاد على ذلك وهو يبتسم : «إذا خرج الشاب للتسلية... نفهم ماذا يحدث...» والتفت إلى أحد الشرطة ، وقال وقد نهض واقفاً وانحنى في أدب أمامي :

ـ أرشد السيد إلى القسم المخصوص . عم مساءً .

فأحسست ببرودة تسري في ظهري لجرأتي . ولكي أتشجع ، كورت يدي عند الانصراف.

وقال الشرطي وهو لدى الباب :

ـ الغاز يظل يشتعل مدة عشرة دقائق .

ـ ويطفأ بعد ذلك ؟

ـ نعم ، يطفأ بعد ذلك .

جلست على السرير وسمعت صوت المفتاح يدار في الباب . وبدت لي الحجرة الوضيئة مليحة باشة ، فانتعشت باللجوء إليها وأخذت أصغي بلذة واطمئنان إلى المطر في الخارج ، وما كنت لأتمنى شيئاً أفضل من حجرة جميلة كهذه! وتزايد اغتباطي ، وأخذت أستعيد وأنا جالس على السرير وقبعتي في يدي وعيني على ضوء الغاز المثبت في الحائط ، اللحظات الأولى من أول احتكاك لي مع البوليس! أول احتكاك لي معه... وكيف دهورته!! اسمي طاجن... وأنا صحفي... لقد أرضاه ذلك!... ثم المورجنبلات! ويالي كيف أصبت الرجل في قلبه بالمورجنبلات! وقال : «لا نريد أن نتحدث في هذا الموضوع! لقد بقي طانجن ـ أي أنا ـ في رئاسة مجلس الوزراء حتى الساعة الثانية ، ونسي المفتاح ومحفظة نقوده مع بضعة آلاف من الريالات في منزله . أرشد السيد إلى القسم المخصوص...» .

وانطفأ الغاز فجأة ، فجأة بدون أن يتناقص أو يتقلص . وبقيت في ظلام دامس لا أستطيع أن أرى يدي ، لا ولا الحيطان البيضاء التي حوالي . عدت لا أرى شيئاً ، فلم يبق أمامي سوى الدخول في الفراش ، فخلعت ملابسي .

ولكني لم أستطع النوم . وبقيت مدة طويلة راقداً أحدق إلى الظلام ، إلى قطعة الظلام الكثيفة التي لا غور لها ، والتي لا أستطيع إدراكها ، وتقصر أفكاري عن تصورها : فلقد كانت ظلمة فوق كل الظلمات . فشعرت بانقباض

في نفسي ، فأغمضت عيني وألقيت بنفسي على السرير ، وابتدأت أغني بصوت خافت كيما أسري عني . ولكني عبثاً حاولت . فقد تملكت الظلمة أفكاري ولم تتركني لحظة واحدة في أمن ، فكنت كأني قد ذبت فيها وصرت وإياها واحداً ، فاعتدلت في السرير وأخذت أضرب بذراعيّ حواليّ .

وطغت العصبية عليّ فأخذت أعالج الدفاع عن نفسي بكل قواي . ولكن هذا لم يجدني نفعاً ، إذ كنت فريسة للتخيلات الغريبة . وأردت أن أطمئن نفسي وأدخل عليها الأمن ، حتى سال عرقي من شدة الجهد . فحطت أنظاري على الظلام ، ولم أر في حياتي ظلمة كهذه من قبل ، ولم أشك في أني أواجه نوعاً خاصاً من الظلام ، عنصراً غير مألوف لم يلحظه أحد قبل الآن . وشغلتني الأفكار السخيفة ، وأخافني كل شيء ، فأخذ جانباً عظيماً من وقتي ثقب صغير في الحائط قرب سريري ، وتصورت ثقب المسمار الصغير ، هذا الذي وجدته في الحائط ، علامة على شيء ما ، فتحسسته ونفخت فيه ، وأخذت أحزر عمقه . إنه ثقب غير بريء...لا ، لا ، إنه ثقب مملوء بالأسرار وعليّ أن أحمي نفسي منه! وذهبت بي الأفكار بشأن هذا الثقب كل مذهب ، فكان عليّ في النهاية أن أنهض من فراشي في ثورة من الخوف والفضول وأبحث عن نصف سكيني كي أسبر به عمقه ، وأتحقق من أنه لا ينفذ إلى الحجرة المجاورة .

وعدت فرقدت محاولاً أن أنام ، وفي الواقع معاوداً الكفاح مع الظلام . وانقطع المطر في الخارج ولم أعد أسمع أي صوت . وبقيت زمناً طويلاً أنتظر أن أسمع وقع الأقدام في الشارع ، ولم يهدأ لي بال حتى سمعت وقع قدم أحد المارة ، فأمكنني الحكم من خطواته على أنه أحد الشرطة . وفجأة أخذت أفرقع بأصابعي مراراً متتابعة وعلى عجل ، وطفقت أضحك إلى

الشيطان هو أيضاً! ثم تصورت أني قد وجدت كلمة جديدة ، فاعتدلت في سريري وقلت : « كوبوءا » . هذه كلمة لا توجد في معاجم اللغة... قد اخترعتها... إنها تتألف من حروف هجائية ككل كلمة أخرى ، فيا للنعمة السماوية! لقد وفقت لاختراع كلمة « كوبوءا » وإنها لذات أهمية كبرى في النحو .

وقامت هذه الكلمة أمامي في الظلام في غاية الوضوح .

وبقيت مكاني بعينين مفتوحتين مندهشاً لاختراعي ضاحكاً من طغيان الفرح عليّ . ثم ابتدأت أهمس : « ربما يسمعني أحد ، مع أني أفكر في الاحتفاظ باختراعي سراً » . وكنت في ذلك الوقت قد وقعت في هذيان الجوع ، وشعرت بخلو المعدة وخلوي من الآلام ، كما كانت أفكاري بلا ضابط ، وأخذت أتشاور مع نفسي في هدوء وأبحث بين تقلبات الفكر العجيبة عن معنى أضعه لكلمتي الجديدة . ليس هناك من داع لأن تعني هذه الكلمة الجديدة «الله» أو «تيفولي» . وفي حنقي كورت يدي ورددت قائلاً : «من ذا الذي قال إنه لا بد أن يفهم منها «معرض حيوانات ؟» ولما قلّبتها على جميع النواحي لم أجد أنها تدل على «قفل» أو على «مطلع الشمس» وأنه ليس من الصعب إيجاد معنى لكلمة كهذه ، فلأتمهل قليلاً ، ولا بد أني واقع على المعنى المطلوب ، وفي خلال ذلك أستطيع أن أنام .

رقدت على السرير أضحك في خفوت ولا أقول شيئاً ، متجنباً القطع في الأمر وانقضت بضع دقائق صرت بعدها عصبي المزاج ، فقد ضايقتني الكلمة الجديدة بدون انقطاع ، وأخذت تعودني باستمرار ، وملكت عليّ حواسي ، ومع كل ذلك لم أقطع بعد فيما يجب أن تدل عليه . وقلت بصوت عالٍ : هذه مسألة ثانوية! وأمسكت ذراعي ورددت قائلاً : هذه مسألة ثانوية ، المهم أن

هذه الكلمة قد وجدت والحمد لله . ولكن التفكير قد ضايقني إلى ما لا نهاية ، وعاقني عن الرقاد ، ولم يرضني شيء لهذه الكلمة النادرة . وأخيراً جلست وأسندت رأسي إلى راحتي وقلت : «لا ، من المستحيل أن تعني هذه الكلمة «حجرة» أو «مصنع دخان» . ولو صح أنها تفيد شيئاً من ذلك لقضيت به من زمن طويل وتحملت المسؤولية على عاتقي . لا ، ففي الواقع أنه يفهم منها شيء نفساني... عاطفة... حالة نفسية... أفليس في مقدوري إدراك ما تعنيه ؟» وأخذت أفكر في إيجاد شيء نفساني ، وخيل إليَ فجأة أن أحداً يتحدث إليّ ويتدخل في شؤوني ، فأجبت غاضباً : «من فضلك ، ماذا ؟... لا ، إن الدهر لن يسمح بأحمق مثلك! تقول إن الكلمة الجديدة تعني «صوف الحياكة ؟» ليكن مثواك الجحيم! فلأضحك ، ومن ذا الذي يضطرني لأن أعطيها معنى «صوف الحياكة» ما دمت لا أرضى هذه التسمية ؟ أنا وحدي قد اخترعت هذه الكلمة ، فمن حقي وحدي أن أصوغ لها المعنى . وهذا ما أريد . وعلى ما أعلم ، فإني لم أقطع في المسألة بشيء بعد» .

ولكن ذهني أخذ باستمرار يزداد ارتباكاً ، فقفزت في النهاية من السرير أبحث عن حنفية الماء ، ولم يكن بي ظمأ ، ولكن رأسي كاد يحترق من الحمى ، وأحسست بالغريزة إلحاحاً نحو الماء . ولما شربت عدت إلى السرير وحاولت بالقوة أن أنام ، فأغمضت عيني واضطررت نفسي إلى السكون ، ورقدت على هذه الحال بدون حراك عدة دقائق ، فغرقت في بحر من العرق ، وأحسست الدم يندفع في عروقي بشدة . لا لقد كان مليحاً حقاً أن يبحث عن نقود في البوق!... لقد سعل مرة واحدة... تراه ذهب إلى هناك وجلس على مقعدي ؟... الصَدَفة الزرقاء... السفن...

وفتحت عينيّ ، وأنى لي أن أثبت على إغماضهما وأنا لا أستطيع الرقاد! وخيمت حولي الظلمات ، تلك الظلمات الأبدية الحالكة البعيدة الغور التي اغتاظ منها فكري دون أن يقوى على إدراكها . ويا ليت شعري ، بأي شيء يمكن مقارنتها ؟ بذلت جهوداً يائسة لأجد لفظاً يكون من السواد بحيث يمكنه أن يصف هذه العتمة ، لفظاً أسود قاتماً يسود فمي عند النطق به! رباه! كم كانت الدنيا مظلمة! وعدت فتذكرت الميناء والسفن ، هذه الوحوش السوداء الجاثمة هناك في انتظاري! لقد كادت تجذبني إليها ، وتبتلعني ، وتقلع بي فوق الأرض ، وعبر البحر ، في ممالك مظلمة لم يرها إنسان . وأحسست أني على ظهر السفينة يجذبني الماء إليه ، وأترجح في العراء هابطاً ، هابطاً... فصدرت عني صرخة ضيق وفزع خشنة ، وتشبثت بالسرير! فقد قمت برحلة خطرة كنت فيها كحزمة في مهب الرياح! وعندما ضربت بيدي على السرير الخشن أحسست النجاة ، وقلت في نفسي : «هذا هو الموت ، فلأمت الآن!» ثم اعتدلت في فراشي أتساءل في شدة : «من ذا الذي قال إنه لا بد لي أن أموت ؟ إذ أنا اخترعت هذا اللفظ فمن حقي وحدي أن أقرر مدلوله... وأدركت أني أسرح في عالم الخيال... أدركت ذلك حتى قبل أن أنتهي من مناجاة نفسي . لقد كان خبلي ناتجاً عن هذيان الضعف والهزال ، ومع ذلك لم أفقد رشدي . وصدمتني فكرة مفاجئة ، وهي أنني قد صرت مخبولاً ، فغادرت السرير وقد تملكني الرعب ورحت أترنح نحو الباب أحاول فتحه ، وألقيت بنفسي عليه عدة مرات كيما أزحزحه عن مكانه ، ونطحت الحائط برأسي وولولت بصوت عال وعضضت أصابعي وبكيت وشتمت .

وكان كل شيء ساكناً . ولم يكن من حس سوى صوتي ترجعه الحيطان . فخررت على الأرض عاجزاً عن الاستمرار في ثورة غضبي في هذه

الزنزانة . ولمحت فوقي وقبالة نظري مربعاً رمادياً ذا لون أبيض... لمحت وميضاً... هو ضوء النهار... وما كدت أشعر به أنه ضوء النهار حتى تشربته بكل مسام جسدي ، وتنفست في هدوء ، وانطرحت على الأرض أبكي من الفرح لوميض الضياء المبارك ، وولولت من الشكر ، وطفقت أرسل القبلات في الهواء قبالة النافذة وتصرفت كالمخبول .

وكنت في تلك اللحظة أعي كذلك ما أصنع ، وقد انصرف عني كل وهن دفعة واحدة ، وتوقف كل يأس وألم . ولم يكن لديّ في تلك اللحظة أية أمنية لم تشبع ، فاعتدلت على الأرض وشبكت يديّ أنتظر بفارغ الصبر طلوع النهار .

وأخذت أفكر مندهشاً : يا لها من ليلة! تلك التي لم أسمع فيها صوتاً! ولكنني كنت برغم ذلك في القسم المخصوص ، فوق كل المساجين . كنت وزيراً بلا مأوى ، إذا جاز لي أن أستخدم هذا التعبير ، وفيما أنا ملقٍ بنظري على زجاج النافذة الذي أخذ يظهر لي جلياً شيئاً فشيئاً ، أخذ مزاجي يصفو باستمرار ، فأخذت أسري عن نفسي بتمثيل دور الوزير ، ودعوت نفسي طانجن ، وخلعت على حديثي أسلوب الدواوين . ولم تقف تصوراتي عند حد ، غير أن عصبيتي قَلَّتْ عما كانت عليه من قبل! لو لم يكن لديَّ عادة السهو المؤسفة ، فأنسى محفظة نقودي في الدار!... أو يسمح لي بالتشرف بأن أقدم لحضرة الوزير فراشاً ؟ وبمنتهى الجد ، وفي كثير من الحفاوة ، ذهبت إلى الفراش ورقدت عليه .

ووضح النهار بحيث كان في استطاعتي أن أرى إلى حد ما شكل الزنزانة ، وسرعان ما تمكنت من رؤية قبضة الباب الثقيلة ، فسرَى عني هذا ، فقد تحطمت هذه العتمة المملة الكثيفة المثيرة التي عاقتني عن النظر ، وأخذ دمي يهدأ ، وسرعان ما أحسست عينيّ تغمضان!

وأيقظتني بضع طرقات على الباب . وبأسرع ما يمكن قفزت من فراشي وارتديت ملابسي ، وكانت لا تزال مبللة من مساء أمس .

قال الشرطي : لا بد لك من مقابلة المفتش في الدور الأسفل .

ففكرت منزعجاً : إذن توجد رسميات أخرى لا بد من إتمامها!

ودخلت في الدور الأسفل غرفة فسيحة يجلس فيها ثلاثون أو أربعون شخصاً ، كلهم بلا مأوى . وكان ينادى عليهم واحداً بعد واحد من دفتر القيود ، ليأخذ كل واحد منهم قسيمة بوجبة طعام . وكان المفتش يقول باستمرار للشرطي الذي إلى جانبه :

ـ هل أخذ قسيمته ؟ نعم ، لا تنس أن تعطيهم القسائم . يظهر عليهم أنهم في حاجة إلى وجبة من الطعام .

ووقفت مكاني أنظر إلى هذه القسائم ، وتمنيت واحدة منها .

ـ أندريا طانجن ، الصحفي!

فتقدمت إلى الأمام وانحنيت .

ـ ولكن قل لي يا عزيزي : من جاء بك إلى هنا ؟

فشرحت له القصة بأكملها ، وأعدت قصة أمس ذاتها على أحسن ما يكون ، وكذبت بعينين مفتوحتين لا يطرف لهما طرف . كذبت بإخلاص : «آسف ، فقد تأخرت قليلاً في أحد المقاهي وفقدت مفتاح الباب» . فقال مبتسماً :

ـ نعم ، مثل هذا يحدث أيضاً! ولكن هل طاب لك النوم ؟

فأجبت : نمت نوم وزير! نوم وزير!

فقال وقد هم واقفاً : لقد سرّني ذلك . عم صباحاً .

وانصرفتُ .

قسيمة واحدة ، قسيمة واحدة لي أيضاً! فمنذ ثلاثة أيام وثلاث ليال طوال لم أتناول شيئاً من الطعام . رغيف واحد! ولكن أحداً لم يقدم لي قسيمة ، ولم أجرؤ على طلب واحدة منها حذر أن أثير الريبة حولي ، فقد يتدخل بعضهم في شؤوني الخصوصية ، فيتعرف حقيقة أمري! وغادرت مستودع الميناء ويدي في سترتي وأنا رافع الرأس أسير سير صاحب الملايين .

وكانت الشمس قد نشرت حرارتها وأصبحت الساعة العاشرة والحركة في ميدان يونغ على أشدها ، فإلى أين أذهب ؟ وضربت يدي على جيبي أتحسس مخطوطة مقالي ، فقد كنت أريد أن أعالج مقابلة رئيس التحرير في الساعة الحادية عشرة . ثم وقفت فترة فوق السور أراقب الحياة من تحتي ، وفي غضون ذلك أخذت ملابسي تتبخر ، وعاودني الجوع ، وقرضني في صدري وتحرّك في أحشائي وأصابني بقرصات صغيرة دقيقة أوجعتني! أحقاً أنه ليس لي صديق واحد يمكنني أن أقصده ؟ وبحثت في ذاكرتي لعلّي أجد رجلاً يمكن أن يقرضني عشرة «أورات» فلم أجد . ومع ذلك كان اليوم يوماً بهيجاً ، فالشمس والضوء يغمرانني من كل ناحية ، وقد تماوجت السماء كالبحر الهادىء فوق الجبال .

وأخذت طريقي إلى مسكني عن غير قصد .

وكنت في شدة الجوع الهائلة ، فتناولت قطعة خشب من الطريق ألوكها في فمي . وقد أفادتني بالفعل ، فكيف أني لم أفكر فيها من قبل!

وكان الباب مفتوحاً ، فحياني خادم الاصطبل تحية الصباح كعادته .

وقال : جو بديع!

فأجبته : «نعم» . ولم أعرف شيئاً آخر أقوله . ترى هل في المكنة أن أسأله في لطف أن يقرضني ريالا ؟ إنه سيصنع ذلك بلا شك عن طيبة خاطر إذا قدر عليه . وعدا هذا ، فإني كنت قد كتبت له مرة من المرات رسالة .

ووقف مكانه يتبلّع ريقه على شيء كان يريد أن يقوله .

ـ جو جميل أيها السيد! أي نعم ، لا بد لي أن أدفع اليوم كراء الدار فهل تتفضل وتقرضني خمسة ريالات ؟ ماذا ؟ خمسة ريالات لبضعة أيام . وقد سبق لك أن صنعت معي معروفاً .

فأجبته : لا ، الواقع أني لا أقدر يا يَنْس أولاف . الآن لا أقدر ، ربما بعد الساعة... ربما قدرت على ذلك عند العصر .

وعلى ذلك صعدت في السلم إلى غرفتي وأنا أترنح . وهناك ألقيت بنفسي على السرير ضاحكاً . أي حظ سعيد هو حظي بأن يبدأني هو بالسؤال! لقد أنقذ شرفي . خمسة ريالات... حفظك الله يا صاحبي! لقد كان يجمل بك أن تسألني خمسة أسهم في أسهم المطعم الشعبي ، أو داراً في حي آكير!!

وكلما فكّرت في هذه الخمسة ريالات تعالى ضحكي بدون انقطاع... أوَ لم أكن حقاً أخاً للشيطان ؟ أوَ لم أكن ؟ خمسة ريالات! نعم ، لقد عرف صاحبي ممن يطلب مالاً! وتزايد مرحي واستسلمت له! أف للشيطان ، أية رائحة طعام هذه التي أشمها هنا! إنها رائحة ضلع طازج حقيقي من طعام الظهر! ودفعت النافذة كي أصرف الرائحة الكريهة «يا غلام ، عليّ بنصف شريحة من لحم البقر!» واستدرت إلى المائدة ، تلك المائدة الشوهاء التي

كان لا بد لي أن أسندها بركبتي عندما أكتب عليها ، وأغرقت في الانحناء ثم سألت : «أوَ تطلب قدح نبيذ ؟ لا ؟ أنا طانجن ، طانجن مستشار البلاط . آسف ، فقد تأخرت قليلاً في حفلة لهو... مفتاح باب الدار...» .

وعادت أفكاري فشردت في كل ناحية ، وكنت في وعي على الدوام بحيث لم ألفظ كلمة بدون أن أسمعها وأفهمها . وقد قلت لنفسي : «أنت الآن تعود فتتكلم بدون اتساق في حديثك» . غير أني لم أكن قادراً على مقاومة ذلك ، وكنت كالراقد اليقظان الذي يتكلم في النوم ، وكان رأسي خفيفاً لا ألم فيه ولا ضغط ، وكانت نفسي صافية . وجارت بي الحال وأفلت مني زمام أمري بدون أن أبدي أية مقاومة . «أدخلي! نعم إلا دخلت! كل شيء كما ترين من العقيق . يلايالي! يلايالي! الديوان الحريري الأحمر المنقوش! ما أشد تنفسها! قبليني يا حبيبتي... زيديني... زيديني! إن ذراعيك كالكهرمان ، وشفتيك من نار... يا غلام ، أنا طلبت شريحة من لحم البقر...» .

وطلعت الشمس على نافذتي ، وسمعت الخيل في الدور الأسفل تلوك القرطم ، فجلست مكاني ألوك قطعة الخشب ، جذلان طرباً كالطفل . وكنت أتحسس على الدوام مخطوطة المقال بدون أن أفكر فيه لحظة واحدة . وحدثتني الغريزة أنه موجود ، وذكّرني به مزاجي فاستخرجته من جيبي .

وكان قد أصيب بالبلل ، فطرحته في الشمس بعد أن نشرته ، وأخذت أقطع غرفتي ذهاباً وإياباً : كم كان كل شيء بها قابضاً للنفس ، فعدا بقايا قطع الصفيح الملقاة على الأرض ، لم يكن يوجد فيها كرسي للجلوس ، ولا مسمار واحد في حيطانها العارية ، فقد ذهب كل ما فيها واستُنفد . وكان كل ما أمتلكه بضع طلحيات من الورق موضوعة على المائدة ومغطاة بطبقة

سميكة من الغبار . وأما الملحفة الخضراء العتيقة التي كانت على سريري ، فقد أقرضنيها «هانس باولي» منذ بضعة أشهر... هانس باولي! وفرقعت بأصابعي وقلت : «هانس باولي بيترسن لا بد أن يساعدني» . وأخذت أستذكر عنوانه! وكيف جاز لي حتى هذه الساعة أن أنسى هانس باولي! لا شك أنه سيحنق عليَّ كثيراً لأني لم أقصده رأساً! وأسرعت فلبست قبعتي وطويت أوراق المقال على عجل ونزلت في الدرج مسرعاً .

وناديت في الاصطبل : «أصغ إليَّ يا ينس أولاف ، أنا واثق كل الثقة من مساعدتك عصر اليوم» . ولما بلغت مستودع الميناء وجدت أن الساعة الحادية عشرة قد فاتت ، فقررت الذهاب تواً إلى إدارة التحرير . ووقفت أمام باب المكتب أتحقق من تسلسل أوراقي ، وعنيت بصقلها بيدي ، ثم أعدتها إلى جيبي ، وطرقت الباب ، فدق قلبي دقات مسموعة عند دخولي .

وكان «المقص» في مكانه كالعادة ، فسألته في جزع عن رئيس التحرير . لا جواب . الرجل يجلس مكانه وفي يده مقصه الطويل ، يقص الأخبار الصغيرة من صحف الأقاليم .

فأعدت سؤالي عليه وتقدمت نحوه . وأخيراً قال «المقص» بدون أن ينظر إليَّ :

- لم يأت رئيس التحرير بعد .

- ومتى يأتي ؟

- غير معلوم ، غير معلوم على الإطلاق .

- إلى متى يظل المكتب مفتوحاً ؟

فلم أتلق جواباً عن ذلك . فكان لا بد لي من الانصراف . ولم يُلقِ

«المقص» عليَّ نظرة واحدة أثناء كل ذلك ، فقد سمع صوتي فتذكرني! وحدثتني نفسي بأني عنصر غير مرغوب فيه ، حتى أني لا أستحق منهم عناية الجواب عن سؤالي . ولعل هذه كانت أوامر رئيس التحرير ، فالواقع أني أغرقته بسيل من مقالاتي منذ قُبِلَتْ مقالتي الشهيرة بعشرة ريالات ، فكنت كل يوم تقريباً أزحم بابه بكتابات غير مقطوعة كان يضطر أن يتصفحها ، ثم يعيدها إليّ . وربما أراد في النهاية أن يضع حداً لهذا ، وأن يحتاط للأمر!

وأخذت طريقي إلى حي هومانسبي .

وكان هانس باولي بيترسن طالباً ريفياً يقطن في حجرة صغيرة من دار ذات أربع طباق . وعليه ، كان هانس باولي بيترسن رجلاً فقيراً ، ولكنه لو ملك ريالاً واحداً لجاد به ، وإني لحاصل عليه بلا شك ، بل هو الآن في يدي!

واستأنفت السير ، وكنت جذلاً طول الطريق لهذا الريال ، فقد كنت على ثقة من حصولي عليه .

وحينما بلغت باب الدار الخارجي وجدته مغلقاً ، فكان عليّ أن أطرقه .

وقلت وقد هممت بالدخول : أود محادثة الطالب بيترسن . أنا أعرف غرفته .

فأعادت الخادمة الاسم : الطالب بيترسن الذي كان يسكن في الغرفة العليا ؟ لقد انتقل! إلى أين انتقل ؟ لم تكن تدري . ثم قالت : «ولكنه رجانا أن نبعث برسائله إلى السيد هرمانس في شارع طولدبود» .

وذكرت الفتاة رقم الدار .

فسرت أسأل عن عنوان هانس باولي مملوءاً رجاءً وإيماناً ، إذ كان هذا آخر مخرج ليْ . ومررت في الطريق ببناء جديد وقف أمامه النجارون

يسحون أخشابهم ، فتناولت قطعتين نظيفتين من الخشب المسحو ووضعت واحدة منهما في فمي والأخرى في جيبي إلى ما بعد ، واستأنفت السير وأنا أئن من الجوع . وأبصرت في نافذة أحد المخابز رغيفاً كبيراً جداً مما يباع بعشرة «أورات» ، أكبر رغيف يمكن للانسان أن يحصل عليه بهذا الثمن...

- أنا آتٍ للسؤال عن عنوان الطالب بيترسن .

- إنه في شارع برندت آنكر ، رقم ١٠ على السطح .

وما دمت عازماً على الذهاب إليه ، فلآخذ له معي بضع رسائل وردت له مؤخراً .

وعدت أسلك الطريق عينه الذي سلكته ، قاصداً المدينة ، فمررت بالنجارين الذين كانوا هذه المرة جلوساً وبين ركبهم قدور من الصفيح يتناولون منها طعامهم الطيب الحار الآتي من المطعم الشعبي . ومررت بالمخبز ، حيث لا يزال الرغيف مكانه . وأخيراً بلغت ، وأنا نصف مقتول من الإعياء ، شارع آنكر . كان الباب مفتوحاً ، فأخذت أطلع الدرجات المؤلمة الكثيرة العدد ، صاعداً إلى السطح . وتناولت الرسائل من جيبي كي أصلح من مزاج هانس باولي في الحال عند مقدمي . لا شك أنه لن يتأخر عن صنع هذا الجميل البسيط ، متى شرحت له حالتي .. مؤكّد لا! فإن لهانس بولي قلباً شريفاً ، وكذلك كنت أتحدث عنه دائماً .

ولما بلغت الباب وجدت عليه بطاقة تحمل هذه الكلمات : «هـ . ب . بيترسن طالب لاهوت ، سافر إلى بلده» .

فجلست حيث أنا . جلست على الأرض الباردة كئيباً متعباً ومحطماً من

شدة الإعياء ، أكرر آلياً عدة مرات : «سافر إلى بلده! سافر إلى بلده!» ثم أصمت هادئاً . ولم يكن في عينيَّ أثر للدموع ، ولا بي إحساس ، ولا لديَّ أية فكرة . جلست في مكاني أنظر بعينين مفتوحتين إلى الرسائل ، دون أن أعالج أمراً من الأمور . ومضت عشر دقائق ، بل عشرون ، أو قل أكثر من ذلك ، وأنا جالس باستمرار في مكاني لا أحرك إصبعاً . وكان هذا الخدر الكئيب أقرب إلى النعاس . ثم سمعت بعد ذلك بعضهم يصعد في السلم ، فنهضت واقفاً وقلت :

- معي رسالتان للطالب بيترسن .

فأجابت المرأة : لقد سافر إلى بلده ، ولكنه سيعود بعد العطلة . فإذا شئت حفظت له الرسالتين لديّ .

فقلت : نعم ، أشكرك... لا بأس بما تقترحين... فسيستلمهما منك إذا ما عاد ، فقد يكون بهما شيء مهم... نهارك سعيد!

ولما خرجت وقفت في وسط الطريق وقلت بصوت عالٍ وقد كورت يدي : «شيء واحد أريد أن أقوله يا مولاي العزيز ويا إلهي : أنت فاجر بلا حياء!» وصرفت بأسناني هانجاً ثائراً ووجهي إلى السماء : «ليأخذني الشيطان إن لم تكن فاجراً بلاحياء!»

ثم سرت بضع خطوات وعدت فوقفت في الطريق . وفجأة تبدلت هيئتي ، فشبكت يدي وملت برأسي إلى أحد الجانبين وتساءلت بصوت هادىء حنون :

«أوَ قصدته تعالى ، يا بني ؟»

ولكن نغمة العبارة لم تكن صحيحة .

فعدت وقلت : «قصدته... بهاءٍ كبيرةٍ ، كبيرة كالكاتدرائية! مرة أخرى ناشدته الرحمة يا بنيَّ ؟»

ونكست رأسي وأشبعت صوتي بالحزن وأجبت : لا!

ولكن نغمة هذه العبارة أيضاً لم تكن صحيحة .

«إنك لا تستطيع المراءاة أيها المخبول . عليك أن تقول : «نعم ، ناشدت الله ربي وأبي!» وعليك أن تشبع كلامك بأوجع نغمة سمعتها حتى الآن . هيا الآن وافعل . نعم ، إن هذا أحسن وأفضل . ولكن عليك أن تزحر كالحصان السقيم . هكذا يا هذا!» .

ورحت ألقنّ نفسي المراءاة وأقرع الأرض بقدمي قلقاً ، وأدعو نفسي بالغبي كلما أخفقت ، بينما يمر بي السابلة مندهشين ويلتفتون إلى الوراء ويرمقونني بأعينهم .

وطفقت ألوك قطعة الخشب باستمرار ، وأترنح في الطريق مسرعاً قدر المستطاع . وقبل أن أنتبه إلى نفسي وجدتني في ميدان المحطة . وكانت الساعة في كنيسة المخلّص الواحدة والنصف ، فوقفت فترة ساكناً أفكر ، وسال عرق خفيف على جبيني ، وقطر في عيني ، فقلت مخاطباً نفسي : «هلا سرت معي قليلاً إلى الميناء ؟ هذا إذا كان لديك وقت!» وانعطفت ، فسرت نازلاً إلى محطة الميناء .

كانت السفن في عرض البحر وكان الماء يتماوج في ضوء الشمس ، فكنت ترى حركة ونشاطاً في كل مكان ، فمن زنير صفارات السفن ، إلى حمالين يحملون على مناكبهم الصناديق ، إلى ألحان الأناشيد المطربة الآتية من الزوارق . وقد جلست بائعة فطير على مقربة مني وانحنت بأنفها الأسمر

فوق بضاعتها ، وغصت المائدة الصغيرة القائمة أمامها بالحلوى الفاتنة . فتحولت عنها كارهاً وقد طبقت رائحة طعامها الميناء بأسرها! أف لها... فلتفتح النوافذ! وتحولت إلى الناحية الأخرى إلى رجل كان يجلس بجواري ، وأخذت أصور له بإلحاح هذا الموقف الكريه : «بائعات فطير هنا ، بائعات فطير هناك... أليس كذلك ؟ نعم ، ولكنك لا بد أن تسلم...» وداخل الشك الرجل في أمري فلم يتركني أتم حديثي له ، ونهض قائماً وانصرف . ونهضت كذلك فسرت وراءه مصمماً أن أقنع الرجل بخطئه .

فلطمته على كتفه وقلت : حتى ولو اعتباراً للشؤون الصحية...

فقال وقد حدّق إليّ مملوءاً ذعراً : معذرة ، أنا هنا أجنبي ولا أعلم شيئاً عن الشؤون الصحيحة .

إذن ما دام الرجل غريباً فقد تغير وجه المسألة... ولكن أليس في استطاعتي أن أقدم له خدمة ؟ أريه المدينة ، مثلاً ؟ إن في هذا سرور عظيماً لي ، ولن تكلفه المسألة شيئاً...

غير أن الرجل شاء التخلص مني ، فعبر الشارع مسرعاً إلى الرصيف المقابل .

فعدت إلى مقعدي وأخذت مجلسي . وكنت في شدة القلق ، وزاد الحال سوءاً على سوء أن ابتدأ البيانو الكبير يدق على بعض المسافة ، يرّن رنين المعدن ، وهي مقطوعة من ألحان فيبير ، وكانت تغني معه فتاة صغيرة دوراً مؤثراً ، فسرى في دمي صوت ذلك البيانو المملوء أسى ، الشبيه صوته بصوت المزمار ، فأخذت أعصابي تهتز كما لو كانت ترجع صداه . وبعد لحظة قصيرة عدت فغرقت في مقعدي وأخذت أدندن مع الموسيقى متمتماً . وأي شيء لا يتأثر به الواحد إذا كان جائعاً! وأحسست النغم قد تشرّبني ،

أو أني قد تحللت فيه! أحسستني أتدفق ، ورأيت رأي العين كيف أني أتدفق وأترجّح في العلى فوق الجبال راقصاً ، في منطقة من النور .

قالت الفتاة الصغيرة وهي تقدم لي يدها بصحنها القصديري : أورا ، أورا واحداً .

فأجبتها في غير وعي : «نعم» . ونهضت واقفاً أفتش جيوبي ، ولكن الطفلة ظنت أني إنما أردت أن أضحك منها ، فابتعدت عني في الحال دون أن تنطق بكلمة ، فاستكبرت عليّ هذا التسامح الأصم ، ولو شتمتني لكان ذلك أليق بي . وتملكني الألم ، فصحت بها ثانية وقلت : «ليس لديّ اليوم أورا واحد ، ولكني سأذكرك ، ربما كان غداً . ما اسمك ؟ إنه اسم حسن لن أنساه . إذن فإلى الغد...»

ولكني أدركت تماماً أنها لم تصدقني ولو أنها لم تقل ولا كلمة واحدة ، فبكيت من اليأس لأن فتاة الشارع الصغيرة هذه لم تشأ أن تصدقني . فناديتها مرة أخرى ، وشققت جيبي ، وأردت أن أعطيها صداري ، وقلت لها : انتظري قليلاً ، فإني أود أن أعوضك خيراً .

ولكن لم يكن عندي صدار .

وكيف جاز لي أن أبحث عنه وقد مضت أسابيع منذ كان في حيازتي ؟ ترى ماذا ظننت ؟ ولم تنتظر الفتاة المدهوشة طويلاً ، بل انسحبت مسرعة ، ورأيتني مضطراً أن أتركها تنسحب . وتجمع الناس حولي وأخذوا يضحكون مقهقين ، فاندس شرطي في الجمع المحتشد ، حتى بلغني ، وأراد أن يعرف القصة .

فأجبته : لا شيء . لا شيء على الاطلاق . أنا إنما أردت أن أعطي

الفتاة الصغيرة التي هناك صداري... لأبيها... وعلى ذلك لا أعلم داعياً لوقوفكم تضحكون . إن في استطاعتي أن أذهب إلى البيت فأرتدي صداراً آخر .

فقال الشرطي : لا بهلوانيات في الطريق! إنصرف الآن .

قال هذا ودفعني من كتفي إلى الأمام . ثم صاح قائلاً :

ـ وهذه الأوراق ، هل هي لك ؟

ـ أي نعم ، يا للشيطان! هذه مقالتي للصحيفة... مقالة ذات أهمية كبرى! كيف كنت مهملاً على هذه الصورة...

وأخذت المخطوطة وتحققت من تسلسل صفحاتها ، ثم سرت رأساً إلى مكتب التحرير دون أن أُلقي نظرة على ما حولي . وكانت الساعة عند ذاك الرابعة في كنيسة المخلص .

كان المكتب مغلقاً ، فانزلقت بلا حس إلى أسفل الدرج في وجل كاللص ، ووقفت في حيرة خارج باب الدار . ماذا عسى أن أصنع الآن ؟ واتكأت وعيناي مثبتتان على بلاط الشارع ورحت أفكر ولمحت أمام قدمي دبوساً يلمع ، فانحنيت عليه والتقطته... ترى ، كم أحصل ثمناً لأزرار سترتي لو أني خلعتها الآن ؟ وقد لا يجديني هذا نفعاً . فالأزرار أزرار! ولكني درت وفحصتها من كل ناحية . فإذا هي من الجدة بمكان . إنها لفكرة صالحة إذن ، ففي الاستطاعة أن أخلعها بنصف سكيني ، فآخذها إلى السوق . وسرعان ما أنعشني الأمل في بيع هذه الأزرار ، وقلت : «أنظر أنظر . لقد قضي الأمر! »

وتملكني السرور ، وأخذت في الحال أقطعها واحداً بعد الآخر ، وعلى ذلك عقدت في ذهني المُحاورة الصامتة التالية :

«نعم ، المسألة أن يدي قصرت بعض الشيء... ارتباك مؤقت... تقول مستعملة ؟ لا تقل مثل هذا القول . بودي أن أرى ذاك له أزرار أقل استعمالاً من أزراري . أحب أن أقول لك إني أسير دائماً وسترتي مفتوحة . تلك عادتي ، وهذه هي طريقتي! لا ، لا ، إذا كنت لا تحب إذن... ولكن لا بد لي فيها من عشرة «أورات» في الأقل... يا لله في سمائه! ولكن من الذي قال إنك مضطر لذلك ؟ ... أصمت ودعني في أمن... نعم ، نعم ، أدع البوليس إذا شئت . سأنتظر هنا حتى تدعو لي البوليس ، ولن أسرق منك شيئاً... حسناً عم صباحاً ، عم صباحاً ، اسمي طانجن... وقد تأخرت قليلاً...»

ونزل أحدهم على الدرج ، فعدت في الحال إلى رشدي ، فإذا النازل هو «المقص» ، فدسست الأزرار بسرعة في جيبي . وأراد «المقص» أن يمر بي دون أن يرد عليَّ التحية ، لذلك انهمك فجأة بتأمل أظافره . ولكني استوقفته وسألته عن رئيس التحرير ، فأجاب :

ـ غير موجود .

فقلت له : «أنت تكذب» . وبقحةٍ أدهشتني ، أنا نفسي ، استأنفت الكلام قائلاً :

ـ لا بد أن أراه لأمر مهم ، إني أستطيع أن أقول له شيئاً جديداً عن مجلس الوزراء .

ـ أوَ لا تستطيع أن تقوله لي ؟

ـ لك ؟

وحدجته بنظري .

فأفاد ذلك الفائدة المطلوبة ، وعاد فصعد معي في الحال وفتح لي الباب .

وارتعدت فرائصي ، فشددت على أسناني كي أتشجع ، ودققت الباب ، ودخلت في غرفة رئيس التحرير الخاصة .

فقال بلطف : أسعد الله صباحك ، أهو أنت ؟ تفضل فاجلس .

ولو أنه أشار بإصابعه في تلك اللحظة إلى الباب لكان ذلك أحب إليَّ ، فقد شعرت بالدموع تسيل ، فقلت :

ـ أرجو المعذرة...

فكرر قوله : إجلس .

فأخذت مجلسي وقلت له إن معي مقالاً آخر أتشوق لأن أراه ينشر في جريدته . والحق أنني عنيت كثيراً بتنميقه وأنه كلّفني جهداً عظيماً .

فتناوله وقال : سأقرأه . ولا شك أن كل ما تكتبه يكلفك كثيراً من الجهود ، غير أنك عنيف جداً تلتهب حماسة في كتاباتك ، وليتك تعتدل قليلاً . في كتاباتك حماسة أشبه بالحمى ، ومع ذلك سأقرأه .

والتفت إلى المائدة .

وبقيت محتاراً ، فهلاّ تجرأت على أن أطلب منه ريالاً ؟ وهلاّ شرحت له سبب هذه الحماسة ؟ محقق أنه يساعدني لو فعلت ، فهذه ليست بالمرة الأولى .

ونهضت من مكاني ، حسناً...غير أنه شكا آخر مرة كنت عنده فيها من قلة النقود ، وأرسل رسول الخزانة يقتطع لي النقود من هنا ومن هناك . وربما

كانت الحال اليوم هي ذاتها بالأمس! إذن لا ، لا يصح أن أطلب منه نقوداً الآن . أوَ لم ألاحظ أنه مشغول ؟

وسألني : هل من شيء آخر ؟

فقلت وقد تصنعت الرصانة في صوتي :

ـ لا ، متى تسمح لي بالعودة ؟

فأجاب : بعد قليل من الأيام ، عندما تكون ماراً من هنا اتفاقاً .

ولم أستطع أن أنبس برجاني . وبدت لي دقة هذا الرجل لا حد لها ، فأردت أن أريه أني أعرف كيف أحترمها ، فخير لي أن أموت جوعاً . وانصرفت .

وعندما وقفت في الطريق لم أندم على مغادرتي المكتب دون أن أطلب ريالا . وأحسست عض الجوع ، فتناولت من جيبي قطعة الخشب الأخرى ودسستها في فمي ، فأفادني هذا مرة أخرى . وليتني أدري لماذا لم أصنع هذا من قبل ؟ وخاطبت نفسي بصوت عال : «يلزمك أن تخجل! أَوَ كان في استطاعتك حقاً أن تفاجىء هذا الرجل بطلب ريال ، فتضعه مرة أخرى في مركز حرج ؟» وقسوت على نفسي بسبب هذه القحة التي مرّت بخاطري ، وقلت : «أن تجري أيها الكلب التعس إلى أحد الناس ، وتخمشه في عينه أو تكاد ، لأنك تطمع في ريال ، هذا وحق الله أحط وأسفل ما سمعت به! هيا امش! أسرع! أسرع أيها الوغد ، فسوف أريك» .

وعقاباً لي ابتدأت أجري في الشوارع وأقطعها واحداً بعد الآخر مستحثاً نفسي إلى الأمام بصيحات مسعورة ، وكلما شئت أن أقف صحت بي ثائراً صيحات هائجة صماء . وسرت على هذه الحال حتى بلغت شارع الصفصاف .

ولما وقفت في النهاية صرخت أو كدت من الحنق ، لعدم مقدرتي على السير أكثر من ذلك ، وأصابتني هزة في كل جسمي . فألقيت بنفسي على إحدى الدرجات ثم قلت لنفسي : «لا ، قف!» ولكي أعذب نفسي بحق نهضت واقفاً . وألزمت نفسي أن أبقى واقفاً ، وضحكت مني ، وأنعمت الفكر في انحطاطي . وأخيراً بعد انقضاء عدة دقائق سمحت لنفسي بإشارة من رأسي أن أجلس ، ولكني مع ذلك اخترت لي أخشن مكان للجلوس فوق إحدى الدرجات .

ربي وإلهي ، ما ألذ الراحة! ومسحت العرق من وجهي وتنشقت الهواء البارد في شهقات طويلة . ما أبعد ما جريته! ولكني لم أندم على ذلك ، فقد كنت أستحقه ، فلماذا أردت أن أطلب ريالاً ؟ إنني الآن أرى نتيجة ذلك! وعدت أخاطب نفسي في رفق ، عاتباً عليها بلغة الأمهات وانقلبت رقيق المزاج ، فأخذت أبكي من التعب والخور بكاءً صامتاً هو أسى عميق لا دموع فيه .

وبقيت جالساً في مكاني ربع ساعة أو أكثر ، والناس يجيئون ويروحون دون أن يضايقني أحد منهم . ولعب الأطفال حولي عن اليمين وعن الشمال . وغرد طائر على إحدى الأشجار ، في الناحية الأخرى من الطريق . وجاءني شرطي وقال :

ـ لماذا تجلس هنا ؟

فتساءلت : لماذا أجلس هنا ؟ لأن في ذلك سروراً لي .

فقال : منذ نصف ساعة وأنا أراقبك! لقد جلست هنا نصف ساعة!

فأجبته : كذا تقريباً . هل من شيء آخر ؟

ونهضت حانقاً وانصرفت .

ولما بلغت ميدان السوق بقيت واقفاً أنظر إلى الشارع ورائي ، لأن في ذلك سروراً لي! أوَ كان هذا أيضاً جواباً ؟ كان واجباً عليك أن تقول جالس هناك من التعب ، وكان عليك أن تجعل صوتك يتهدج... أنت حيوان! أنت لن تتعلم أبداً التصنع والمراءاة! . كان عليك أن تقول : «من الخور» وأن تلهث كما يلهث الحصان .

ولما بلغت دار المطافىء عدت فوقفت لفكرة جديدة طرأت عليّ ، ففرقعت أصابعي ، وقهقهت ضاحكاً مما أدهش المارة ، وقلت : «لا ، يلزمك الآن حقاً أن تذهب إلى القس ليفزون . نعم ، لا بد لك من هذا لا لشيء إلا لمجرد المحاولة ، فماذا عساك تخسر ؟ وفوق ذلك فالجو صحو...

وذهبت إلى مكتبة «باشا» وبحثت عن عنوان القس ليفزون في سجل العناوين . ثم أخذت طريقي إليه وقلت : هذا وقته! والمسألة هذه المرة جد! فدع السخافات جانباً! أتقول : الضمير ؟ دع هذا السخف ، فأنت أفقر من أن يكون لك ضمير . أنت جائع . هذا هو أنت . أنت آتٍ في أمر ذي شأن ، ملحّ ومقدمّ على سواه . ولكن لا بد لك أن تميل برأسك إلى إحدى كتفيك ، وأن تنظم كلامك في لحن . أوَ لا تريد أن تصنع هذا ؟ إذن سأتركك ولن أذهب معك خطوة واحدة بعد . وأنت تعرف هذا جيداً . وعليه ، فأنت تضع نفسك موضع القلق العظيم . ستكافح في الليل قوى الظلمات ، والوحوش الهائلة الصامتة ، وذلك هو الويل الأكبر! أنت تتضور جوعاً وظمأ إلى اللبن والنبيذ ، ولا تحصل على شيء . تلك هي حالك وهذا ما وصلت إليه . بل إنه لم يبق في سراجك لمعة ضوء واحدة! ولكنك تعتقد في الرحمة الإلهية ، فالحمد لله على أنك لم تفقد الإيمان بعد! وتضم يديك بعضهما إلى بعض ، وتتخذ هينة معتوه طلباً للرحمة الإلهية . وأما شيطان الثروة فإنك تكرهه

بجميع أشكاله... أما كتاب المزامير . فشيء آخر كتاب المزامير هذا... كذكرى ، ذكرى زوج من الريالات...

ووقفت عند باب القس وقرأت . «المكتوب مفتوح من الظهر حتى الساعة الرابعة» .

فقلت : « لا سخافة بعد الآن! الأمر الآن جدي! هيا ومِلْ برأسك إلى إحدى كتفيك... مِلْ به أكثر... » .

ودققت جرس مسكن القس ، وقلت للخادمة :

ـ أحب أن أكلم حضرة القس .

ولكني لم أستطع أن أضيف اسم الله إلى اسمه .

فأجابتني : لقد خرج .

خرج! خرج! لقد أفسد عليّ هذا كل مشروعي! شوش عليّ كل شيء كنت فكرت في قوله ، فأية فائدة لي الآن من كل هذا الطريق الطويل ؟ إلا أني ظللت واقفاً مكاني ، فسألتني الفتاة .

ـ هل من شيء خاص ؟

فرددت عليها : لا شيء مطلقاً . لا ، لا شيء أبداً غير أن الجو كان اليوم مباركاً فأردت الخروج للرياضة وتحية حضرة القس .

ووقفت مكاني ، ووقفت مكانها . وأبرزت صدري إلى الأمام عامداً كي ألفت نظرها إلى الدبوس الذي أجمع به سترتي... وتوسلت إليها بعيني راجياً أن ترى ما جئت لأجله ، ولكن هذه المخلوقة المسكينة لم تفهم شيئاً .

ـ جو مبارك ، أي نعم . والسيدة زوجة القس ، أليست هي أيضاً في الدار ، يا ترى ؟

ـ ولكنها تشكو النقرس ، فهي ترقد على الأريكة بدون أن تقدر على الحراك... هل تريد أن أنقل إليها خبراً ، أو شيئاً آخر ؟

ـ لا ، مطلقاً . إنما أنا أقوم بمثل هذه النزهات بين الحين والحين طلباً للحركة ، فهذا مما يستحسن بعد الغداء .

وأخذت طريقي عائداً ، وأية فائدة كنت أستفيدها لو أطلت الحديث ؟ وعدا هذا فقد أحسست دواراً ولم يعد في مقدوري أن أخادع نفسي ، فقد أصبحت على وشك أن أتحطم! «المكتب مفتوح من الظهر حتى الساعة الرابعة» . ولقد طرقته متأخراً ساعة من الزمن وكان وقت الرحمة الإلهية قد انقضى .

وأخذت مجلسي في ميدان السوق الكبير على مقعد قرب الكنيسة . يا إلهي! ما أظلم الدنيا أمام عينيَ الآن! ولكن لم تدمع لي عين ، فقد كنت أشد تعباً من أن أقدر على البكاء . جلست مكاني أكابد أشد الآلام بدون أن أعالج شيئاً . جلست لا أبدي حراكاً وأنا أتضور جوعاً ، وكان صدري يتقد بالنار ، والآلام المقطوعة النظير تشتعل في أحشائي . ولم أعد أحب أن ألوك قطعة الخشب مرة أخرى ، قد تعبت أضراسي من هذا العمل غير المثمر ، فتركتها تستريح واستسلمت للأقدار . ولكني وجدت قشرة برتقال مسمرة على الطريق ، فأخذت أقرض فيها في الحال ، فسببت لي قيئاً . لعلي كنت مريضاً! فقد انتفخت شرايين معصمي وازرقّت .

ولكن لماذا أضعت هذا الوقت كله ، حقاً ؟ أجريت اليوم طوله هنا وهناك من أجل ريال أمدُّ به في أجلي بضع ساعات ؟ وفي الواقع ، ألا يستوي عندي وقوع ما لا بد من وقوعه متقدماً يوماً أو متأخراً ؟ فلو أني سلكت مسلك رجل عادي لعدت منذ زمن طويل إلى الدار ، وأرحت نفسي ، واستسلمت للقدر .

وكانت أفكاري في تلك اللحظة صافية ، وشعرت بأنني سأموت . وكان الوقت خريفاً ، فكان كل شيء يغط في النوم والسكون . لقد عالجت كل الوسائل واستغللت كل مورد للمعونة أعرفه! ولعبت في رأسي هذه الأفكار ، وكنت كلما طمعت في سبب من أسباب الخلاص ، أتمتم محتجاً : «أيها الأخرق ، لقد بدأت تموت ، فما هذا ؟» وكان عليّ أن أكتب أولاً بضع رسائل ، وأنجز كل شيء ، وأتهيأ لمقابلة الموت! لسوف أغتسل بعناية ، وأرتب فراشي ، وأضع رأسي على بضع طلحيات من الورق الأبيض... وهي الشيء الوحيد النظيف الذي بقي لي... أما الملحفة الخضراء فإن باستطاعتي...

الملحفة الخضراء! وتيقظت دفعة واحدة ، وتصاعد الدم إلى رأسي . ودق قلبي دقات قوية ، فنهضت من مقعدي وأخذت في المشي وقد سرت الحياة من جديد في كل أطرافي ، وطفقت أكرر بدون انقطاع هذه العبارة الناقصة : «الملحفة الخضراء! الملحفة الخضراء!» وأسرعت بكل ما فيّ من قوة كما لو كنت أهتم بالقبض على شيء يهرب من أمامي . وبعد زمن قصير وجدتني في مسكني ، في مصنع الصفيح .

وبدون أن أتوقف لحظة أو أتردد في عزمي . ذهبت إلى الفراش ولففت ملحفة هانس بولي... فإذا لم ينقذني هذا الخاطر البديع فسيكون ذلك نادرة من النوادر . وتيقظت في نفسي شكوك بلهاء ، غير أني تغلبت عليها وسموت فوقها ، وطردت ذلك الصوت الداخلي الخافت الذي أخذ يتحدث عن وصمة العار والبقعة السوداء التي سيتلطخ بها شرفي ، فقد استوى لديّ كل شيء ، فما كنت قديساً ، ولا مغفلاً فاضلاً ، فإن عقلي بكامله ما زال معي...

وتأبطت الملحفة وذهبت إلى شارع ستينر ، رقم ٥ .

وهناك قرعت الباب ودخلت لأول مرة إلى صالة الاستقبال العظيمة .

ودق جرس الباب دقات طويلة غير منسجمة فوق رأسي . وجاء من الغرفة المجاورة رجل يلوك طعاماً امتلأ به فمه ، ثم تقدم إلى طاولة المحل . فقلت :

ـ أرجو أن تقرضني نصف ريال على نظاراتي! وسأعيده بلا ريب بعد بضعة أيام .

ـ ماذا ؟ وهل هي نظارات من صلب ؟

ـ نعم .

ـ لا ، هذا لا يمكنني .

ـ لا ، لا شك أن هذا لا يمكنك . إنما أردت في الواقع أن أمزح . ولكن معي ملحفة لا لزوم لها عندي ، وقد جئتك ظناً بأنك ربما تأخذها مني .

فأجاب : آسف ، فلدي مخزن غاص بمختلف صنوف الفرش .

ولما بسطتها أمامه ، ألقى بعض نظرات عليها وصرخ :

ـ لا ، معذرة ، ليس لها نفع لديَّ!

فقلت : إنما أردت أن أريك في الأول وجهها السيء ، فالوجه الآخر أحسن بكثير .

ـ نعم ، نعم! ولكن هذا لن يجدني ، فإني لا أريدها . ولن يعطيك أحد فيها أكثر من عشرة أورات .

ـ لا ، هذا معلوم ، إن قيمتها ليست كبيرة . ولكني حسبت أنك قد تستطيع ضمها إلى أشياء أخرى عتيقة في أحد المزادات .

ـ لا ، لا فائدة من ذلك .

فقلت : خمسون «أورا» ؟ .

ـ لا ، لا أريدها مطلقاً يا صاح . لا أريدها قط في مخزني .

فتأبطت الملحفة ثانية ، وعدت إلى غرفتي .

وتصنّعت أمام نفسي كأن لم يحدث شيء . وبسطت الملحفة ثانية على السرير وسويتها جيداً كعادتي ، وحاولت أن أخمد في نفسي كل أثر من آثار هذا التصرف الأخير . محال أني كنت في وعيٍ ساعة قررت ارتكاب هذه الجريمة ، فإني كلما فكّرت في الأمر بدت لي فظاعته مجسمة . لا بد أن نوبة ضعف أو ضرباً من وهن النفس قد أخذني على غرة ، فلم أكد أقع في تلك الهاوية حتى أدركت ما لهذا الفعل من نهاية سيئة . فعالجت في بداية الأمر نظارتي ، وقد سرني أن الفرصة لم تمكّني من ارتكاب هذه الجريمة التي كانت ستلطخ ساعات حياتي الأخيرة!

وعدت فقصدت المدينة .

وأخذت مجلسي مرة أخرى فوق أحد المقاعد عند كنيسة المخلص ، وقد مال رأسي على صدري وتراخت أعصابي من الثورة الأخيرة ، كما نهكني الجوع وأذلني . وعلى هذه الحال انقضى الوقت .

وكنت قادراً أيضاً أن أبقى مزيداً من الوقت في الخلاء ، فثمة نور أكثر مما في غرفتي ، وعدا هذا تخيلت أن الهواء الطلق قد يخفف من لواعج صدري ، كما أن الوقت كان مبكراً للذهاب إلى الغرفة .

وكافحت النوم ، وفكرت ، وكابدت من الأهوال ما لا يوصف . ثم وجدت حجراً صَغيراً فنظفته ودسسته في فمي لكي أحس شيئاً فوق لساني . وأما ما عدا ذلك فلم أتأثر بشيء ولا حركت طرفي مرة .

وكانت الناس تجيء وتروح ، وتملأ الجو جعجعة العجلات ووقع حوافر الخيل .

ولكن أما كان في مكنتي أيضاً أن أعالج مسألة الأزرار ؟ لا فائدة من ذلك بالطبع ، وما عدا هذا فإني كنت مريضاً .

غير أني لما أعملت فكري جيداً في الأمر وجدت أن لا بد من مروري في طريقي إلى الغرفة بدار الرهونات إياها .

وأخيراً نهضت وجررت نفسي جراً بطيئاً ورحت أترجح في الطرقات . وأحسست ألماً محرقاً فوق حاجبي ، وحُمّى تكاد تأخذني فأسرعت بقدر ما أستطيع . مررت ثانية بالمخبز حيث رغيف الخبز ، فقلت مصمماً تصميماً لا يعتوره التردد : «لا ، لن نقف هنا الآن» . ولكن ماذا لو دخلت هنا وسألتهم كسرة خبز ؟ هذه كانت خاطرة عابرة ، لمحة خاطر ، فهززت رأسي وتمتمت : «أف!» واستأنفت السير هازئاً من نفسي ، فقد كنت أعلم علم اليقين أن لا فائدة ترجى في الدخول إلى هذا المخبز عن طريق التوسل والرجاء .

وفي معبر «صانعي الحبال» وقف محبان عند أحد الأبواب الخارجية يتهامسان ، وعلى مسافة قليلة منهما أطلّت فتاة برأسها من النافذة ، ومضيت على مهلٍ وفي غاية الحذر حتى كنت أرى كأني أفكر في أمر من الأمور... وخرجت الفتاة إلى الطريق .

ـ كيف حالك يا صاحبي ؟ ماذا ؟ أمريض أنت ؟ وقّاني الله... يا له من وجه!

وانسحبت الفتاة مسرعة .

فوقفت فجأة في مكاني ، ماذا عسى يكون بوجهي ؟ ومررت بيدي فوق خدي : إنني هزيل ، لا شك أني هزيل ، وكان الخدان عبارة عن كفَتي ميزان مقلوبتين . يا لله!

وعدت أمشي بخطوات قصيرة متعبة .

ولكني عدت فتوقفت ثانية ، فلا بد أني في أشد حالات الهزال ، فعيناي الغائرتان قد وجدتا ثانية طريقهما في رأسي . ترى كيف كان منظري ؟ نعم ، إنه لجحيم أن يتحرك المرء يشوهه الجوع حياً . وأحسست دفعة واحدة بسورة غضب تتأجج في صدري هي آخر شعلة في السراج ، وآخر نطفة . ليكن الله مع وجهي ، يا له من وجه! أأنطلق أتضور جوعاً إلى حد تتشوه معه هيئتي البشرية في وسط مدينة كرستيانيا ولي رأس لا نظير له على الأرض ، وقبضتان ـ وليسامحني المولى ـ في مقدورهما أن تسحقا أحد الناس سحقاً! أكان هذا من العدل في شيء ؟ أكان هذا في نظام الحياة ومقاييسها ؟ لقد اشتغلت ليل نهار كالحصان ، ودرست حتى سقطت عيناي من جمجمتي ، وجعت حتى طار عقلي من رأسي ، فيا للشيطان ما استفدت من كل ذلك ؟ حتى البغايا في الطرقات توسلنَ إلى الله أن يجنبهن النظر إليّ . أما الآن فقد انتهى كل شيء! أفهمت ؟ لقد انتهى كل شيء! فحين يدخل الشيطان في أمر ، لا بد من وضع حد له! وتحت تأثير الحنق المتطاير شرره باستمرار ، واصطكاك الأسنان تحت تأثير الضعف ، وتحت تأثير البكاء والسباب ، مضيت في سيري كالعاصفة الهائجة بدون أن أعير السابلة أي اهتمام . ثم عدت إلى تعذيب نفسي من جديد ، فتعمدت أن أصدم قناديل الطرقات برأسي وأغرز أظافري في كفي ، وأعض لساني في حالة جنون إذا هو لم يلفظ الكلمات بوضوح . وكلما وجعني كنت أقهقه وأضجَ .

ولكني عدت في النهاية وأجبت نفسي : «نعم ، ولكن أي شيء في مقدوري ؟» وقرعت بلاط الطرقات بقدمي عدة مرات ، وكررت : « أي شيء في مقدوري ؟» ومرّ بي أحد الناس في تلك اللحظة ، فتأملني وضحك وقال لي :

- إذهب إلى السجن .

فتطلعت إليه ، فإذا هو أحد معارفي ، طبيب اختصاصي في أمراض النساء يدعى «الدوق» . حتى ذلك الرجل الذي عرفته ، ووضعت يدي في يده ، لم يفهم حقيقة موقفي . وهدأت نفسي . أأسجن ؟ نعم ، فقد كنت مخبولاً ، والرجل على حق . وأحسست الخبل يسري في دمي ، وأحسسته يطاردني في رأسي . إذن ، تلك هي النهاية التي احتفظت لي بها الأقدار! نعم ، نعم! وعدت فأخذت طريقي متباطئاً كئيباً ، فلا بد من وضع حد لكل هذا .

وعدت فجأة فوقفت من جديد وقلت : « كل شيء إلاّ السجن! كل شيء إلا هذا» . وكدت أبحُّ من الجوع والغصة . وأخذت أرجو وأتوسل في الهواء : « كل شيء إلا السجن ، فمعنى هذا أن أعود ثانية إلى مستودع المرفأ فأحبس في زنزانة مظلمة لا يُرى فيها بصيص من نور! كل شيء إلا هذا! فما زالت توجد مخارج مفتوحة أمامي ، وأحب معالجتها . أريد أن أثابر وأصبر وأصابر ، وأنتقل من باب إلى باب . فهناك مثلاً إيزلر تاجر الآلات الموسيقية ، فإني أخذت أسير وأنا أتحدث إلى نفسي حتى اضطررت للبكاء ثانية من شدة التأثر . كل شيء إلا السجن!

إيزلر ؟ ربما كان هذا إلهاماً سماوياً! فقد خطر لي اسمه بدون سبب . وكان يسكن بعيداً . ولكني برغم ذلك أردت أن أزوره ، وأحببت أن أسير

متباطئاً حتى أهدئ ثائرتي في أثناء سيري . وكنت أعرف المحل ، فقد ترددت إليه كثيراً في أيام اليسر واشتريت منه بضع «نوتات» ترى ، هل يصح أن أسأله نصف ريال ؟ ربما أخجله هذا ، فلا بد لي أن أسأله ريالاً كاملاً .

وبلغت المحل ، وسألت عن المدير ، فقادني أحدهم إلى مكتبه . وهناك كان الرجل يجلس ويقلب في أوراقه ، مرتدياً أحسن الثياب وأفخرها . فتمتمت بعض اعتذارات وشرحت حاجتي ، وأن الضرورة أرغمتني أن ألجأ إليه... ولن يمضي وقت طويل حتى أرد إليه المبلغ... عندما آخذ أجر مقالي... وأنه بذلك يصنع معي معروفاً كبيراً .

وفي أثناء كلامي عاد فالتفت إلى الدرج واستأنف عمله . ولما انتهيت نظر إليَّ شزراً ، وهز رأسه الجميل ، وقال :

ـ لا .

ولم يزد شيئاً على «لا!» فلا إيضاح ولا كلام .

فاهتزت ساقاي اهتزازاً شديداً حتى اضطررت أن أسند نفسي إلى الخزانة الصغيرة ، وأردت أن أعالج الأمر مرة أخرى . ترى ، لماذا خطر لي اسمه بصفة خاصة وأنا أقف بعيداً عنه في حي فاترلاند ؟ وشعرت بألم في جانبي الأيسر . وأخذ العرق يتصبب مني . فقلت :

ـ الواقع أن حالي قد رقّت كثيراً ، وأنا مريض للأسف . وأؤكد لك أنه لن يمضي وقت طويل حتى يكون في مقدوري رد مبلغك إليك . فهلا تتفضل بإجابة سؤالي ؟

فقال : لماذا قصدتني أنا يا عزيزي ؟ أنت مجهول عندي تجيئني من عرض الطريق . إذهب إلى صحيفتك ، عند الرجل الذي تعرفه .

فقلت : لليلة واحدة فقط! فقلم التحرير قد أغلق أبوابه ، وأنا الآن في شدة الجوع .

فهز رأسه متأسفاً ، وما زال يهزه ، حتى أمسكت بقبضة الباب فقلت :

ـ إلى الملتقى .

ابتسمت بمرارة ، ودار في خلدي أن ما كان لم يكن إلهاماً سماوياً ، فقد كان في طاقتي أنا نفسي أن أشير بمثل هذا ما دامت المسألة قد انتهت إلى ما انتهت إليه . وجررت نفسي نحواً من ربع ساعة ، ثم نحواً من ربع ساعة آخر ، وأخذت استريح هنا وهناك على الدرج . لو أني فقط لا أسجن... فقد لزمني الرعب من الزنزانة طول الوقت ، ولم يتركني في أمن . وكنت كلما أبصرت شرطياً على الطريق أسرعت إلى الشارع المجاور كي أتجنب لقياه . ثم قلت : «الآن فلنعد مائة خطوة ، ولنعد بعدها نعالج حظنا! ولا بد أن يؤاتينا الحظ مرة... »

كان هناك مخزن غزل صغير . وهو مكان لم تحظ فيه قدمي خطوة واحدة من قبل . وكان فيه رجل واحد خلف طاولة الحسابات ، ومكتب داخلي علقت على بابه يافطة من البورسلين ، ورفوف طويلة محملة أوراقاً ، وصف طويل من الطاولات .

انتظرت حتى غادر المحل آخر عميل ، وهو سيدة صبية بوجه ذي غمزات ملحوظة . وكم كانت تبدو السعادة على محياها . ولم أحاول أن أستدر عطفها بدبوسي الذي أشبك به سترتي ، بل بالعكس تحولت عنها .

فسألني المستخدم : هل تريد شيئاً ؟

فقلت : هل مدير المحل موجود ؟

فأجاب : سافر في رحلة إلى الجبال في «يوتون هايمن» . هل من شيء خاص ؟

فقلت وقد حاولت الابتسام :

ـ بضعة «أورات» فقط أمسك بها رمقي ، فأنا جائع ، وليس لديّ ولا فلس واحد .

فقال وقد أخذ يرتب حزم الخيوط :

ـ إنك إذن لتضارعني ثروةً وغنى!

فقلت وقد سرت البرودة بغتة في سائر جسدي حتى أخمص قدمي :

ـ آه ، لا تطردني... لا تفعل هذا الآن! فالواقع أني أكاد أموت جوعاً . فمنذ عدة أيام لم أتبلغ بشيء من الطعام .

وباهتمام عظيم ، وبدون أن يلفظ كلمة واحدة ، أخذ يقلب جيوبه واحداً بعد الآخر ، كما لو كنت لم أصدق كلماته . فقلت :

ـ فقط خمسة «أورات» وسأعيدها لك عشرة بعد أيام قليلة .

فسألني وقد فقد صبره :

ـ هل تريد يا عزيزي أن أختلسها لك من الخزانة ؟

فقلت : نعم ، نعم . خذ خمسة أورات من الخزانة .

ـ حقاً إني لا أستطيع أن أفعل هذا .

ثم زاد على ذلك :

ـ أحب أن أقول لك : حسبك هذا وكفى!

فانسحبت مريضاً من الجوع ، حرّانَ من الخجل . لقد صار مني كلب من أجل عظمة حقيرة ، ومع ذلك لم أصل إليها . لا ، لا بد من وضع حد

لهذا! فالحق أن الأمور قد سارت بعيداً ، لقد ضبطت نفسي سنين طوالاً ، وثبت في الساعات الشداد ، وهأنذا الآن قد انحدرت دفعة واحدة إلى هاوية الشحاذة القاسية . إن هذا اليوم قد زلزل أفكاري وسخم نفسي بالقحة ، فلم أخجل من إذلالها أمام صغار الباعة ، فأعرض نفسي أمامهم وأبكي . وأية فائدة عادت عليّ من ذلك ؟ أفلم أزل بدون كسرة خبز أستطيع دسها في فمي ؟ وكل ما بلغته أني أصبحت أتقزز من نفسي! نعم ، نعم ، الآن لا بد من وضع حد لهذا ، وإذا أنا لم أشأ اليوم أن أنام في المستودع هذه الليلة أيضاً . فعليّ أن أسرع ، فقد اقترب موعد إيصاد باب الدار .

مدتني هذه الفكرة بقوة ، إذ لم أكن أريد أن أنام في المستودع . وبرأس منكس ، ويدي فوق ضلعي الأيسر لأخفف بعض الشيء من وقع الألم ، تلمست طريقي متقدماً ، وقد ثبت أنظاري على الأرض حتى لا أضطر إلى تحية أحد من معارفي ، وأسرعت ميمماً دار المطافىء ، ولله الحمد ، فقد كانت الساعة في كنيسة المخلص سبعا ، فلا يزال أمامي ثلاث ساعات بعد قبل إيصاد باب الدار ، ولشد ما جزعت .

وعليه لم يبق شيء لم أعالجه ، فقد صنعت كل ما يمكن صنعه . حقاً إنه ليوم بأكمله لم يشأ أن يصادفني فيه الحظ ولو مرة واحدة .

وإذا أنا قصصت هذا على أحد فلن أجد له مصدقاً ، أو دونته على الورق فسيقول الناس هذا اختراع من بنات أفكاره! فلا توفيق في مكان واحد! نعم ، نعم ، لم يبق من حل لقضيتي بعد هذا كله… وقبل كل شيء ، لم يبق معنى للتأثر أو الجري هنا وهناك . أفٍ لك! إن هذا لمما يقزز النفس ، وإني لأؤكد لك أني قد قرفت منك! وإذا كانت الآمال كلها قد تحطمت ، فقد انتهى كل شيء . وفي النتيجة ، أليس في قدرتي أن أسرق قبضة من القرطم من أحد

الاصطبلات ؟... هوذا بصيص من النور... بل شعاع ضئيل... فقد كنت أعلم أن باب الاصطبل يغلق بالمفتاح ، قد أغلقت أبوابه .

وطفقت أخفف عن نفسي وأزحف في الطريق إلى غرفتي زحف الحلزون . وسرّني أني أحسست ظمأ لأول مرة في يومي ، فتلفت حوالي أبحث عن مكان أستطيع أن أشرب منه . وكنت قد ابتعدت كثيراً عن السوق ولم أشأ أن أطرق منزلاً خاصاً فقد أستطيع الصبر على الظمأ حتى أصل إلى الغرفة ، ولن يستغرق هذا أكثر من ربع ساعة ، ومن يدري أني أقوى على تحمل جرعة ماء وقد كنت أحس بتقزز نفسي حتى من لعابي الذي ابتلعه .

ولكن الأزرار! لم أحاول شيئاً بشأن الأزرار حتى الآن! وقفت مكاني وأخذت أبتسم ، فربما كانت لا تزال أمامي حيلة بعد . وإن لم يقض عليّ القضاء الأخير ، سأحصل منها بلا شك على عشرة أورات . وغداً أعالج الحصول على عشرة أخرى من أي مكان . وفي يوم الخميس ربما تسلمت أجر مقالي . ربما لم يكتب عليّ الشقاء كله ، فكيف نسيت الأزرار ؟

واستخرجتها من جيبي وتأملتها ، ومضيت في السير ، وقد أظلمت عيناي من الفرح ، ولم أعد أرى الشارع الأمامي .

وأنّى لي أن أعرف بالضبط القبو العظيم ، ملجئي في الليالي الظلماء ، صديقي ممتص الدماء! ففي هذا الجحر ذهبت ممتلكاتي واحداً بعد واحد ، حتى التوافه التي جاءتني من منزلي العائلي ، لا بل حتى آخر كتاب من كتبي . وكنت أذهب بلهفة لأشاهد أيام المزاد في هذا القبو . وكم كان يسرني أن تقع كتبي في يد طيبة . أخذ الممثل ماجلسن ساعتي ، ففاخرت بهذا أو كدت . واشترى أحد معارفي تقويم العام الذي كتبت فيه باكورة محاولاتي الشعرية . وحلّ معطفي بمرسم مصور فوتوغرافي ليعيره في مرسمه

لراغبي التصوير . وعليه ، لم يكن في كل ذلك ما يمكن المؤاخذة عليه .

هيأت الأزرار في يدي وتقدمت . وكان «العم» جالساً إلى مكتبه يكتب ، فقلت له خشية أن أضايقه أو أحرج صدره بطلبي :

ـ لست على عجل!

وقد وقع صوتي مني موقعاً من الضعف غريباً ، حتى لم أكد أتعرفه ، ودق قلبي في صدري كمطرقة .

فجاء نحوي يبتسم كعادته ، وبسط يديه على مائدة الدكانة ، وحدَّق إلى وجهي ، ولم ينبس ببنت شفة .

ـ نعم ، معي شيء ، وأردت أن أسألك إذا كان ذا نفع لديك... إنه عقبة في طريقي في البيت! شيء أؤكد لك أن وجوده معي يضايقني... إنه بضعة أزرار...

ـ وعليه ، ما الحكاية ؟ ما حكاية هذه الأزرار ؟

وقرَّب عينيه من يدي وألقى نظرة عليها . وقلت :

ـ ربما كان في مكنتكم أن تعطوني فيها بضعة أورات... قدر ما ترون... حسب تقديركم أنتم...

فحدَّق «العم» إليَّ مذهولاً ثم قال :

ـ في هذه ؟ في هذه الأزرار ؟

ـ ما قيمة ثمن سيكارة ، أو ما يماثلها! أنا إنما كنت ماراً من هنا ، فأردت أن أستفهم .

وعلى ذلك ضحك المرابي العجوز وعاد إلى مكتبه بدون أن يقول كلمة واحدة . وبقيت مسمَّراً مكاني .

الواقع أني لم أكن لأؤمل شيئاً كثيراً ، ومع ذلك فقد ظننت أن من الممكن الخروج مؤقتاً من الضيق العظيم الذي أنا فيه . غير أن هذه الضحكة كانت بمثابة الحكم عليَّ بالموت . والآن قد لا تجديني محاولة رهن النظارة...

فقلت وقد خلعت نظارتي :

ـ طبعاً ستدخل النظارة في هذه العملية . فقط عشرة «أورات» أو إذا شئت خمسة أورات فقط .

فقال «العم» : أنت تعلم أني لا أستطيع أن أقرضك شيئاً على نظارتك ، فقد سبق أن قلت لك ذلك .

فأجبت ببلادة : ولكني في حاجة إلى طابع بريد وإلا فلن أستطيع إرسال الكتب التي لا بد لي من كتابتها . طابع بريد من فئة الخمسة أو العشرة أورات... أترك هذا لتقديرك...

فأجاب ملوحاً بيده ومشيراً إليّ :

ـ أسرع بالله عليك واتركني وشأني وليباركك الله!

فقلت في نفسي : «نعم ، نعم ، فلأتركه وشأنه» وعدت فلبست النظارة بطريقة آلية . وأخذت الأزرار في يدي وانصرفت قائلاً : «سعد مساؤك» . وأغلقت الباب ورائي كما هي العادة . وعليه لم يبق ما يمكن عمله! وفي قفص الدرج وقفت ونظرت إلى الأزرار مرة أخرى وقلت : «إنه لا يريدها بأي ثمن وهي مع ذلك تكاد تكون جديدة... أنا لا أفهم ذلك!» .

وبينما أنا واقف مكاني غارقاً في هذه التأملات ، مرّ بي رجل نازل إلى القبو على عجل ، فصدمني صدمة خفيفة . فاعتذر كلانا للآخر . والتفت أنظر إليه .

فقال فجأة وهو في أسفل السلم :

ـ لا! أهو أنت ؟

وعاد فصعد في السلم إلى فوق فعرفته ، وقال :

ـ أستغفر الله! ما هذه الهيئة التي أنت فيها! ماذا كنت تصنع في القبو ؟

ـ آه... أشغال! وأنت ، أتريد النزول إلى هناك ؟

ـ نعم ، وماذا أحضرت معك ؟

فاصطكت ركبتاي ، وأسندت نفسي إلى الحائط ، ومددت يدي نحوه بالأزرار... فصاح بي :

ـ يا للشيطان! لا ، لقد سارت الأمور بعيداً .

فتظاهرت بهيئة من يهم بالانصراف ، وقلت وأنا أحس بحشرجة البكاء في صدري :

ـ طاب مساؤك .

فقال : لا ، انتظرني لحظة واحدة .

لماذا انتظره ؟ لقد كان هو نفسه في طريقه إلى «العم» . وربما يكون قد أحضر معه خاتم الخطبة ، فقد يكون قد تضور جوعاً عدة أيام ، أو أنه مدين لصاحبة الدار .

فأجبته : نعم ، إذا أنت أسرعت...

فقال وقد أمسك بذراعي :

ـ بالطبع ، ولكنني أحب أن أقول لك : إني لا أثق بك ، فأنت أخرق ، والأوفق أن تنزل معي .

فأدركت ما يرمي إليه . وفجأة أحسست أثراً من العزة يعاودني ، فأجبته :

ـ لا أستطيع . لقد وعدت بعضهم أن أكون في شارع «برنت أنكر» في منتصف الساعة الثامنة ، و...

ـ منتصف الساعة الثامنة ؟ حسن جداً . نعم ، ولكن الساعة الآن هي الثامنة ، وإليك الساعة التي سأنزل بها إلى هناك ، فهي في يدي . تقدم أيها الجائع الأثيم ، فسأحصل لك على خمسة ريالات في الأقل .

ودفعني إلى تحت .

الفصل الثالث

وانقضى أسبوع في هناء وسرور . واجتزت أسوأ الخطوات هذه المرة أيضاً ، فكان لديّ طعام كل يوم ، وتشددت عزيمتي ، وأعددت العدة للأمر فأخذت في كتابة ثلاثة مقالات ، بل أربعة ، سلبت من ذهني المكدود كل بارقة أو فكرة فيه . وقد ألفيتها تفضل سابقاتها . وأما المقال الأخير الذي كلفني كثيراً من الجري وراءه ، والذي علقت عليه آمالاً كباراً ، فقد رده إليّ قلم التحرير ، فأبدته في الحال ، ولم أعد النظر فيه من شدة الحنق والألم . وأردت أن أعالج الحال للمستقبل في صحيفة أخرى لكي أجد لي عدة مخارج إذا تعسرت الأمور . ولكن الظروف لم تسعفني في هذا الأمر أيضاً . بقي أمامي السفن... فهي هناك لا تزال ملجأ أمامي . هناك السفينة المدعوة « نونا » تقف في مؤخرة الميناء ، متهيئة للرحيل ، وربما أخذتني معها عاملاً فيها إلى الأرخبيل أو إلى أي مكان آخر تذهب إليه . وعليه ، لن أعدم رجاء من هذه الناحية أو تلك .

وكانت الأزمة الأخيرة قد لعبت بي دوراً مؤلماً ، فأخذت أفقد شعر رأسي بكميات كبيرة ، واشتد وجع رأسي ، وعلى الأخص في الصباح ، ولم تشأ أن تقف حدتي عند حد . وكنت أجلس مكاني في النهار أكتب عاصباً

يديّ بمنديل ، فقد كنت لا أطيق وقوع نَفَسي على بشرتي . وإذا أغلق «يَنْسْ أولي» باب الاصطبل بعنف ، أو إذا دخل كلب في فناء الدار الخلفي وابتدأ يعوي ، أصابتني رعدة لا تفتأ تسري في كل أطرافي ، فقد انحطت في الواقع قواي .

وانهمكت في عملي يوماً بعد يوم . وقلَّ أن سمحت لنفسي بفراغ من الوقت ، فكنت أزدرد طعامي وأعود فأجلس للكتابة . وكان السرير في ذلك الوقت ، مثل مكتبي الصغير المترجّح ، غارقاً في المذكرات والأوراق المخطوطة التي كنت أغيِّر فيها وأبدل ، فكنت أزيد أشياء جديدة مما يقع لي في أثناء النهار ، وأنقص وأجدد في المواضع الضعيفة هنا وهناك بكلمات منتقاة ، وأنتقل من عبارة إلى عبارة بعناية فائقة . وفي عصر أحد الأيام انتهيت من كتابة أحد المقالات ، فدسسته في جيبي فرحان جذلاً ، وقصدت «الرئيس» فقد حان الوقت لبذل جهد جديد للحصول ثانية على بعض النقود ، إذ لم يبق لديَّ كثير من الأورات .

فرجاني «الرئيس» أن أنتظر قليلاً ، ففي أسرع وقت ســ... وعاد يكتب...

فنظرت حوالي في ذلك المكتب الصغير ، فرأيت تماثيل نصفية ، ومطبوعات حجرية ، ومقطوعات ، وسلة مهملات هائلة تكاد تتسع لابتلاع إنسان بأكمله ، فانقبضت نفسي عند رؤية هذه البالوعة السحيقة ، فم الأفعوان هذا الفاغر على الدوام ، والمستعد أبداً لابتلاع الكتابات الجديدة المرفوضة ، أو الآمال الجديدة المحطمة .

قال «الرئيس» من مكتبه فجأة : في أي يوم نحن ؟

فأجبته فرحاً لتمكني من تقديم خدمة له : في الثامن والعشرين .

ـ في الثامن والعشرين .

ما زال دائباً على الكتابة . وأخيراً وضع القلم ناحية ، ثم دار فوق كرسيه ونظر إليَّ ، وعندما لاحظ أني لا أزال واقفاً عند الباب لوّح لي بيده تلويحة نصفها جد ، ونصفها دعابة ، وأشار إلى الكرسي .

فتجنبت نظراته حتى لا يرى أني بدون صدار عندما أفتح سترتي لأخرج الأوراق المكتوبة من جيبي . وقلت :

ـ إن هذا المقال هو دراسة موجزة عن الرسام كوريجيو ، ولكنه للأسف ليس مكتوباً بحيث...

وتناول الأوراق من يدي وأخذ يقلب فيها ، والتفتَ إليَّ...

فشاهدته عن قرب . شاهدت ذلك الرجل الذي سمعت اسمه في باكورة شبابي ، والذي أثرّت فيَّ صحيفته كل هذه السنين أكبر تأثير . كان ذا شعر جعد ، وحاجبين أسمرين جميلين فيهما شيء من الحركة . وكان من عادته أن يطرد الهواء من أنفه من وقت لآخر ، وليس في استطاعة قس من قساوسة اسكتلندا أن يباريه في الهدوء ، هو ، ذلك الكاتب الخطير الذي كان لكلماته وقع السياط الدامية . فتملكني شعور خاص من الخوف والإعجاب نحو هذا الرجل الجالس قبالتي ، وأوشكت الدموع أن تنحدر من عينيّ . واندفعت خطوة للأمام على غير وعي مني لأقول له كيف أني أحترمه من قرارة نفسي لكل ما علمني إياه ، ولكي أرجوه أن لا يزيد في محنتي ، فما أنا إلا عاجز فقير قد ساءته الأيام كل الإساءة .

فرفع نظره وجمع الأوراق بعضها مع بعض ببطء ، وهو جالس مكانه يفكر . فمددت يدي بعض الشيء كيما أخفف عنه جواب الرفض ، وقلت :

ـ آه ، لا! طبعاً غير صالح ؟

وتبسمت لأريه أن الأمر أهون مما قدّر .

فأجاب : نحن لا نستطيع أن ننشر غير الأشياء المطروقة . أنت تعرف أي قرّاء هم قراؤنا . ولكن أليس في طاقتك أن تأخذه معك وتُبسّط عبارته ؟ أو تفكر في شيء آخر يسهل على الناس فهمه ؟

وأدهشني لطفه كل الادهاش . فمع أني أدركت أن مقالي قد رُفض ، فإنه لم يكن ليوجد رفض أكثر لطفاً من هذا . ولكي لا أطيل عليه قلت له :

ـ مؤكد أستطيع ذلك .

وذهبت إلى الباب ، وهو يكاد يعتذر عن شغلي وقته بهذه الأشياء... فانحنيت وتلمست مقبض الباب . وقال لي :

ـ إذا كنت في حاجة إلى قليل من النقود ، ففي مكنتك أن تحصل على سلفة بسيطة ، وفي استطاعتك أن تكتب لنا نظيرها شيئاً .

فرأيت في تفضله شيئاً من الإذلال ، بعد أن رأى أني لا أصلح للكتابة ، فأجبته :

ـ لا ، شكراً . إني أستطيع أن أدبر أموري بضعة أيام . أشكرك كثيراً . إلى الملتقى .

فأجاب «الرئيس» : إلى الملتقى . والتفت في الوقت نفسه إلى مكتبه .

ومع كل ذلك فقد عاملني بكرم لا أستحقه ، وإني لشاكر له ذلك ، وسأظل اعترف له به . واعتزمت أن لا أعود إليه مرة أخرى قبل أن آتيه بمقال أطرب له أنا نفسي ، ويندهش له «الرئيس» بعض الاندهاش فيجعله

يأمر بعشرة ريالات بدون أن يتردد لحظة واحدة . وعدت ثانية إلى غرفتي وأخذت في الكتابة من جديد .

وحدث باطراد في الليلات التالية ، حوالي الساعة الثامنة عند إشعال مصابيح الغاز ، ما يأتي :

لا أكاد أجتاز عتبة باب الدار الخارجي طلباً للتنزه في الطرقات ، بعد عناء النهار ومتاعبه ، حتى أجد امرأة متشحة بالسواد واقفة قرب عمود المصباح قبالة الباب تماماً ، فتتجه نحوي بوجهها وتتبعني بنظراتها كلما مررت بها . ولاحظت أنها ترتدي على الدوام الرداء نفسه ، والقناع الصفيق نفسه الذي يخفي ملامح وجهها وينزل إلى صدرها ، وتحمل في يدها مظلة صغيرة ذات حلقة من العاج في مقبضها .

وتلك هي الليلة الثالثة التي أراها فيها هناك في ذلك المكان بدون انقطاع ليلة بعد الأخرى . وكلما مررت كانت تستدير ببطء وتسير نازلة في الشارع مبتعدة عني .

وأعملت ذهني . وسرعان ما استولى عليَّ خاطر سخيف ، وذلك أن مجيئها إلى هنا إنما كان من أجلي . وأوشكت أن أتحدث إليها ، وأن أسألها إذا كانت تبحث عن أحد الناس ، أو إذا كانت في حاجة إلى مساعدة ما ، أو تريد أن أصحبها إلى بيتها بملابسي السيئة كما هي الحال الأسيفة التي كنت عليها ، كي أحميها في تلك الطرقات المظلمة . ولكني استشعرت خوفاً مجهولاً ، فقد يتطلب ذلك مني نقوداً أو كأساً من النبيذ أو عربة ركوب ، ولم يكن قد بقي لديَّ شيء من النقود . وكان لجيوبي الفارغة فراغاً يائساً أسوأ تأثير في نفسي ولم تكن لديَّ الشجاعة الكافية للتحديق إليها عند مرورها بي . وكان الجوع قد عاد يعذبني من جديد فلم أكن قد تناولت طعاماً منذ

الليلة الفائتة . والواقع أن هذا لم يكن بالزمن الطويل ، فكثيراً ما تحملته عدة أيام ، ولكن قواي اليوم قد وهنت فلم يعد في طاقتي أن أتحمل الجوع كما كنت أتحمله فيما سلف ، فيوم واحد كان يكفي لأن يسكرني ويلقيني في الدوار . وكنت لا أتجرع الماء حتى أقاسي ألم القيء حالاً . أضف إلى هذا أني كنت أبرد في الليل ، فأرقد في الفراش بملابسي التي أروح بها وأغدو في النهار . كنت أجمد من القر كل ليلة وأنا ذاهب لأرقد ، فأفقد الحس في غضون الليل . ولم تعد الملحفة العتيقة تقوى على وقايتي من الريح ، فإذا تنبهت في الصباح فلأن أنفي يكون قد ورم من الهواء البارد القارس الذي يهب من الخارج .

وأسير في الطرقات أفكر فيما عساي أصنع لأمسك رمقي حتى أنتهي من كتابة مقالي التالي . ولو أني كنت أمتلك شمعة لعالجت العمل في الليل فما هي إلا بضع ساعات وأنتهي من عملي إذا أنا أسرعت بالفعل في إنجازه ، وبذلك أستطيع أن أقصد «الرئيس» في غدي .

وتغلغلت بدون اكتراث في ندوة أبلاندسكي أبحث عن صديقي الشاب الذي يعمل في المصرف لأسأله عشرة أورات ثمناً لشمعة ، فلم يعترضني أحد عن ارتياد الغرف جميعها . فمررت بعشرات من الموائد يجلس إليها الزوار يتحدثون ويأكلون ويشربون ، فنفذت في القهوة حتى طرفها الآخر ، حتى الغرفة الحمراء ، فلم أجد صديقي ، فانسحبت إلى الشارع حانقاً خائر القوى ، وعدت في اتّجاه القلعة ثانية .

أوَ ليس من المؤلم أن متاعبي لا تعرف لها حداً! رفعت ياقة سترتي بشكل غير مألوف وسرت الطريق كله بخطوات جبارة أسب حظي وألعن نجمي ، فمنذ سبعة بل ثمانية شهور لم أر حقاً ساعة واحدة خلواً من الهم ،

حتى ولا الضروري من الطعام الذي يكفيني لمدة أسبوع واحد قصير قبل أن يعود البؤس فيركعني من جديد على ركبتي ويذلني . ومع كل هذا فقد نشطت وبقيت في وسط كل هذا البؤس شريفاً ، بل آية في الشرف! ليرعني الله ، فكم كنت أحمق! وحدثت نفسي كيف أن ضميري كان سيناً يوم أردت أن أرهن ملحفة هانس بولي . وضحكت ساخراً من شرفي الرفيع ، وبصقت باحتقار على الطريق . ولم أجد كلمة تكون من القوة بحيث تكفي للهزء بحماقتي ، وما أشد حاجتي لها الآن! فلو أني وجدت الساعة أورات بعض التلميذات المدخرة على الطريق ، أو أورات أرملة بائسة لا تملك سواها ، لالتقطتها من الأرض ودسستها في جيبي ، ولنمت بعد ذلك الليل كله كالحجر ، ولم يكن عبثاً أني شقيت كل هذا الشقاء ، فإن صبري قد نفد وأصبحت مستعداً لعمل كل شيء .

سرت ثلاث مرات أو أربعاً حول القلعة ، وهناك قررت العودة إلى غرفتي ، فعملت جولة صغيرة في البستان ، ثم أخذت طريقي عائداً عن طريق شارع كارل جوهان .

وكانت الساعة تقريباً الحادية عشرة ، وكانت الشوارع تكاد تكون مظلمة ، والناس يتجولون في كل مكان ، فمن زوج صامت إلى جماعات صاخبة ، فثمة الساعة الخطيرة ، ساعة الوصال التي تقع فيها الأمور الخفية وتبلغ القمة ، وفيها تبتدىء مغامرات أهل الهوى . فمن حفيف ثوب فتاة ، إلى ضحكة قصيرة ذات مغزى هنا أو هناك . نهود تترجح ، وأنفاس حارة تشهق . وهناك عند «الفندق الكبير» داع يدعو : «إيما!» وكان الشارع كله أشبه بالمستنقع الذي يتصاعد منه البخار الحار .

وأخذت عن غير وعي أبحث في جيوبي عن ريالين... فالهواء الذي

يرتعش بكل حركة من حركات المارة ، وهذا النور القاتم المنبعث من مصابيح الغاز في الشارع ، وهذه الليلة الهادئة المليئة بالحوادث ، كل هذا ابتدأ يستولي على مشاعري! ذاك الهواء الممتلىء بالهمسات وتطويق الأذرع ، والاعترافات المضطربة ، والكلمات المتقطعة ، والتنهدات القصيرة! وفي مدخل طريق «بلوم كويست» كان بعض القطط يغازل بعضاً بصوت مسموع . وأما أنا فلم يكن لديّ ريالان . إنها لحسرة وتعاسة لا نظير لهما أن تكون هكذا محروماً! فيا لها من ذلة! ويا لها من فضيحة! وعدت ففكرت في أني لن أتورع عن سرقة آخر فلس تملكه أرملة فقيرة ، وأني لن أتعفف عن بيع قبعة أحد التلامذة أو منديله ، أو جراب بعض الشحاذين لبائع الثياب الخلِقة لأنفق من ثمنها عن سعة . ولكي ألهم نفسي العزاء وأعوضها خيراً ، أخذت أعد على الناس المرحين الذين يمرون بي اخطاءهم ، وهززت كتفي حانقاً وحدجتهم بازدراء وهم يمرون بي أزواجاً أزواجاً ، أولئك الطلبة القانعون ، مصاصو الحلوى ، الذين يعتقدون أنهم يعهرون على «الطريقة الأوربية» إذا هم داعبوا صدر فتاة من عاملات الخياطة . وأولئك المتحذلقون ، موظفو المصارف ، والتجار ، وسباع الطرقات ، الذين لا يأنفون حتى من النساء اللواتي ينتظرن مجيء البحارة ، وهن بشعات سمينات من «سوق البقر» يسقطن عند أول باب من أجل قدح بيرة . يا لهن من حوريات... ما تزال جوانبهن دافئة من ليلة البارحة التي قضينها مع إطفائي أو سائس خيل . إن عروشهن تنتظر دائماً من يحتلها ويملأها : تعال... إصعد! وبصقت على الرصيف غير مبالٍ أن يصادف بصاقي أحد الناس ، فقد كنت ثائراً ، وقد امتلأت نفسي احتقاراً لهؤلاء الناس الذين يتمايل بعضهم على بعض ، ويتغازلون أمام عيني ، ورفعت رأسي شاعراً أن نفسي قد سمت وبوركتَ لأني سرت في طريق نقيّ .

وفي ميدان ستورتنغ التقيت بفتاة أخذت تحدق إليَّ عند اقترابي منها ، فقلت :

ـ مساء الخير .

ـ مساء الخير .

ووقفت مكانها .

ـ ألسنا في ساعة متأخرة الآن ؟ أوَ ليس من خطر على فتاة مثلك أن تسير في مثل هذا الوقت في شارع كارل جوهان ؟ أليس كذلك ؟ ألم يتعرض لك أحد ويضايقك ؟ أعني... ألم يطلب أحد منك في صراحة أن يذهب معك في خلوة ؟

فحدّقت إليَّ مندهشة منقبة في وجهي عما أعني بقولي . ثم دفعت يدها فجأة تحت ذراعي وقالت :

ـ وعليه ، فلنذهب معاً .

فسرت معها . وما كدنا نمر بإحدى عربات الركوب حتى وقفت مكاني ، وخلصت ذراعي منها وقلت :

ـ أصغي إليّ يا صديقتي . أنا لا أملك أوراً واحداً .

وهممت أن آخذ طريقي . فلم تشأ لأول وهلة أن تصدقني ولكنها بعد أن فتشت جيوبي جميعها ولم تجد شيئاً هزت رأسها ودعتني أحمق .

فقلت : طاب مساؤك .

فنادتني وقالت : قف قليلاً . أنظارة ذهبية تلك التي تحملها ؟

ـ لا .

ـ إذن فاذهب إلى الشيطان .

فمضيت في طريقي .

فجرت في الحال ورائي ونادتني ثانية وقالت :

ـ في مكنتك على الرغم من ذلك أن تأتي معي .

فشعرت بالذلة نطلب فتاة الشارع هذه البانسة ، وقلت :

ـ لا . فالوقت متأخر وعندي موعد ، وأنت لا تطيقين مثل هذه التضحية .

ـ بلى ، أنا أريدك الآن معي .

ـ ولكني لا أذهب معك على هذه الحال .

فقالت : طبعاً ، تريد أن تذهب إلى فتاة أخرى .

فأجبت : لا .

آه! لقد اضطربت آلة جسمي كلها ، وقد صارت الفتيات لديَ أقرب للرجال ، فالبؤس قتلني وجفف عروقي . ولكني أحسست بسوء موقفي أمام هذه المومس العجيبة ، فقررت أن أتظاهر في الأقل بإنقاذه ، فسألتها :

ـ ما اسمك ؟

فقالت : ماري .

ـ حسناً! أصغي إليَّ الآن يا ماري...

وأخذت أشرح لها ما غمض عليها من مسلكي . فأخذ العجب الفتاة ، فقلت :

ـ لعلك حسبتني أحد أولئك الذين يسيرون في المساء يتصيدون الفتيات في الطرقات ؟ أو لعلك اعتقدت حقاً أن بي شيئاً من تلك السفالات ؟ هل قلت لك شيئاً في أول الأمر خلواً من الأدب ؟ وهل لأحد أن يسلك مسلكي إذا كانت نفسه تسول له منكراً ؟

وبالاختصار ، طفقت أتحدث إليها وسرت معها بضع خطوات لكي أرى إلى أي مدى تريد أن تصل بهذه اللعبة التي تلعبها معي . وقلت :

ـ وعلى أية حال ، فاسمي فلان ، القس فلان... طاب مساؤك ، عودي إلى أبيك ولا تأثمي بعد الآن .

وعلى ذلك انصرفت .

وأخذت أقلب يدي وأتحدث إلى نفسي بصوت عال ، مغتبطاً لهذا الخاطر الطيب . وأي اغتباط أن تتجول هنا وهناك وتصنع جميلاً . ربما كانت صدمتي لهذه المخلوقة الساقطة خطوة أولى تخطوها في سبيل إصلاحها مدى الحياة! وستعرف لي هذا عندما تفكر فيه ساعة تأخذها الوفاة ، فتذكرني بقلب ملؤه الشكر . آه ، إنه ليجدر بالواحد على الرغم من كل ذلك أن يكون شريفاً ، شريفاً ومستقيماً . وصفا مزاجي وأحسست نشاطاً وقوة على عمل كل ما هو في الإمكان . لو أن لديّ شمعة ، لتمكنت من إنجاز مقالي! وسرت متثاقلاً أهز مفتاح باب غرفتي الجديد ، أدندن وأصفر وأفكر في وسيلة للحصول على شمعة . ولم أجد من حل سوى أن أحضر مقالاتي إلى الشارع وأكتب تحت مصباح الغاز . وفتحت الباب ، وصعدت في السلم لأحضر أوراقي .

ولما نزلت ثانية أقفلت الباب ورائي ووقفت تحت ضوءالمصباح ، وقد شمل الهدوء كل شيء فلم أسمع غير وقع خطوات الشرطي الثقيلة عند مفترق

الطريق ، وصوت كلب ينبح على مسافة في اتجاه تلة سان جان ، فلم يعكر صفوي شيء ، فرفعت ياقة سترتي إلى أذني وابتدأت أعصر ذهني بكل ما لديَّ من قوة ، فلو أني وفقت إلى خاتمة بديعة لهذا المقال الصغير لخف عني العبء . فقد كنت بلغت فيه إلى نقطة صعبة يتعذر التخلص منها إلى شيء جديد بدون أن يلحظ القارىء ذلك . ثم كان عليَّ أن أضع مجازات وكنايات تنتهي بالمقال إلى ذروة السمو ، فتكون كقنبلة أو صدى لفرقعة جبل يتفجر .

ولكن الكلمات عصتني ، فأخذت أقرأ المقطوعة كلها من الأول للآخر وأعيد جملاً منها بصوت عالٍ ، ولكني لم أستطع أن أستجمع أفكاري تماماً لأصل إلى هذه الذروة . وبينما أنا واقف مكاني أكتب جاء الشرطي كذلك ووقف على مسافة مني في وسط الشارع ، فعكر عليَّ مزاجي . فليت شعري ، أي شيء يعنيه أن أقف مكاني في تلك اللحظة أعد «للرئيس» مقطعاً عجيباً لمقالي ؟ يا إلهي! إنه ليستحيل عليَّ إمساك رمقي مع كل ما بذلته! ووقفت مكاني ساعة كاملة . ومضى الشرطي في طريقه وأصبح البرد لا يطاق معه الوقوف في أمن ، فعدت خائر العزيمة موهوناً بسبب هذه المحاولة الجديدة الطرح . ثم فتحت الباب وصعدت إلى غرفتي .

وكانت الغرفة باردة . ولم أستطع أن أرى نافذتي في هذا الظلام المخيم ، فتلمست السرير وخلعت نعلي ودفأت قدمي بين يدي ، ثم رقدت ، كما تعودت أن أفعل منذ زمن طويل . وبكامل ملابسي التي عليَّ رقدت .

وما كاد النهار يتنفس حتى أخذت مجلسي على السرير وانكببت على العمل . وبقيت على هذه الحال حتى الظهر . ولكني لم أكتب أكثر من عشرة أو عشرين سطراً ولمّا أبلغ الخاتمة .

فنهضت واقفاً ولبست حذائي وبدأت أذرع غرفتي كي ادفيء نفسي . وكان الثلج قد كسا زجاج النافذة ، فنظرت إلى الخارج فإذا السماء تثلج . وكان في فناء الدار طبقة من الثلج على الأرض وفوق نبعة الماء .

وطفقت أنقب حوالي في الغرفة ، وأغدو وأروح فيها بلا إرادة ، أخمش بأظافري الحائط وأضع جبهتي على الباب في حذر ، وأدق بسبابتي على الأرض ، وأصغي بانتباه ، كل هذا بدون قصد ، ولكن بهدوء وتفكير ، كما لو كنت أعتزم أمراً مهماً . وفي الوقت نفسه أخذت أقول بصوت عالٍ مسموع : «إن هذا لخبل يا إلهي العزيز!» وصرت أكرر هذا باستمرار . وبعد مضي زمن طويل لا يقل عن بضع ساعات ، ضبطت نفسي ، وعضضت على شفتي ، واستجمعت قواي بقدر ما أستطيع . لا بد من وضع حد لهذا! وأخذت أبحث عن شظية من خشب لألوكها في فمي ، وعدت فجلست وقد صممت على الكتابة .

فحضرني بعض عبارات بعد عناء عظيم تتألف من عشرات الكلمات التافهة التي عصرتها من رأسي عصراً . ثم توقفت ، فقد كان رأسي فارغاً ولم أستطع مزيداً . ولما كنت عاجزاً عن استئناف الكتابة بالمرة ، أخذت أحدق بعينين محملقتين إلى الكلمات الأخيرة ، وإلى الصفحة الناقصة ، وأنعمت النظر في الحروف العجيبة المضطربة التي كانت تتراءى لي كحشرات صغيرة شائكة . ولم أعد في النهاية أدرك شيئاً من الموضوع ، وعدمت التفكير .

وانصرم الوقت ، وأخذت أسمع حركة المرور في الشارع : صوت العربات والخيل . وكلما نادى «ينس أولي» خيله في الاصطبل ، رنَّ صوته في أذني ، وكنت منهوك القوى ، فجلست مكاني لا أصنع شيئاً . غير أني بين الحين والحين كنت أتمطق وأتلمظ ، وكان صدري ضيقاً حرجاً .

وابتدأ ميزان النهار يميل ، وابتدأت أتقوصر في نفسي . واشتد عليَّ التعب فعدت ورقدت في فراشي . ولكي أدفىء يدي ببعض الشيء أخذت أمر بأصابعي في شعري من الأمام إلى الخلف ، ومن اليمين إلى الشمال ، فكانت تخرج منه خصل تعلق بأصابعي أو تتناثر على الوسادة . ولم أفكر فيها في تلك اللحظة كأن الأمر لا يعنيني . ومع ذلك فقد كان شعري لا يزال غزيراً . وعدت أعالج النهوض من هذا الجمود العجيب الذي كان أشبه بضبابة تجري في أعضائي ، فاعتدلت وضربت ركبتي بكفي ، وسعلت بقدر ما تسمح لي قواي . ولكني عدت إلى حالتي السابقة ولم يفدني شيء من كل ذلك ، وأخذت أتلاشى بعينين مفتوحتين حائرتين شاخصتين إلى السقف . وأخيراً وضعت سبابتي في فمي وأخذت أمصها ، فابتدأ ذهني يتحرك وطفت فيه فكرة ، لا بل خاطر أخرق : «لو أني قضمتها الآن!» وبدون أن أتدبر لحظة واحدة زررت عينيَّ وطبقت أسناني معاً .

ووثبت . وتيقظت حواسي في النهاية ، ورشح من إصبعي قليل من الدم فأخذت ألعقه ، ولم يؤلمني كثيراً ، ولم يكن الجرح كذلك كبيراً . ولكني عدت دفعة واحدة إلى نفسي وأخذت أهز رأسي ، ثم ذهبت إلى النافذة أبحث عن خرقة أضمد بها جرحي . وفيما أنا واقف هناك مشتغل به ، دمعت عيناي فبكيت شفقة على نفسي ، فقد بدا لي منظر تلك الإصبع الهزيلة المجروحة مؤلماً . يا رب السموات . إلى أي مدى سارت بي الأمور!

وعسعس الليل ، ولم يكن من المستحيل أن أفرغ من كتابة الخاتمة في هذا المساء . لو أن عندي شمعة! وعاد ذهني إلى الصفاء ، وأخذت الأفكار تجيء وتروح كالعادة . ولم أعد أتألم كثيراً ولا عدت أشعر بالجوع يعذبني كما كانت الحال في الساعات الطوال السابقة ، وربما

استطعت أن أتحمل آلامه إلى الغد . أما الآن فقد أوفق في خلال ذلك للحصول على شمعة بالدين إذا أنا ذهبت إلى الدكانة الصغيرة وحدثت صاحبها بقصتي ، فهو يعرفني حق المعرفة ، ففي الأيام الطيبة ، أيام كنت لا أزال أملك شيئاً من النقود ، كثيراً ما اشتريت خبزاً من دكانته . ولا شك أني سأحصل منه على شمعة بالنسبة لشرف اسمي . ولأول مرة بعد زمن طويل ، نشطت ونظفت ملابسي قليلاً بالفرشاة ، ونظفت ياقة سترتي من خصل الشعر التي تساقطت عليها ، بقدر ما يسمح الظلام ، ثم تلمست السلم نازلاً .

ولما بلغت الشارع خطر لي أنه ربما كان من الحكمة أن أطلب بدل الشمعة رغيفاً من الخبز . وبقيت واقفاً أفكر في الأمر بدون أن أقطع برأي . ثم حاججت نفسي : «لن يكون ذلك بأية حال!» فلست للأسف في حال تسمح لي بتناول أي طعام ، فقد تتكرر القصص والأخيلة نفسها بما تحمله من أفكار وخواطر خرقاء فلا أنتهي من مقالي ، ويهمني أن أرى «الرئيس» قبل أن يعود فينساني . نعم ، لن يكون ذلك بأية حال! وقضيت فيما بيني وبين نفسي أن أطلب الشمعة .

وعلى ذلك سرت إلى الدكان .

فوجدت امرأة عند خوان الحسابات واقفة تبتاع بعض الحاجيات ، وعلى مقربة مني صُففّت عدة قراطيس صغيرة ذات أوراق مختلفة الألوان . فترك المرأة غلام الحانوت الذي كان يعرفني ويعرف ما تعودت شراءه ولفّ لي رغيفاً من الخبز بإحدى الصحف بدون كلفة ووضعه أمامي .

ـ لا ، إنما أردت الليلة شمعة .

قلت ذلك في خفوت وانكسار حتى لا أغضبه ولا أفقد الرجاء في

الحصول على شمعة . فكان جوابي له غير متوقع ، فهذه هي المرة الأولى التي طلبت إليه فيها شيئاً غير الخبز . فقال ، وقد عاد فتحول إلى المرأة :

ـ نعم ، إذن عليك أن تتريث قليلاً .

وتناولت المرأة حاجياتها ودفعت قطعة من فئة الخمسة ريالات ، وتناولت الباقي وانصرفت .

وبقيت وغلام الدكان وحدنا . فقال :

ـ نعم ، إذن فأنت تريد شمعة .

وفتح حزمة وتناول واحدة منها .

ونظر إليّ ونظرت إليه ، وعجزت عن التلفظ برجائي . وفجأة قال :

ـ آه ، حقاً لقد دفعت .

قال ببساطة إني دفعت . لقد سمعت كل كلمة . ثم أخذ من الخزانة نقوداً فضية وجعل يعدها ريالاً ريالاً... نقوداً مشرقة سمينة... وأعاد إليّ باقي الخمسة ريالات ، ريالات المرأة الخمسة! وقال :

ـ تفضل!

فوقفت في مكاني لحظة أنظر إلى هذه النقود ، وأحسست أن شيئاً في غير موضعه ، ولكني لم أفكر في شيء مطلقاً ، وإنما أصابني الذهول لهذه الثروة القائمة تتوهج أمام عيني ، ثم جمعت النقود بطريقة آلية .

وبقيت واقفاً أمام خوان الحسابات مأخوذاً من الدهشة ، مهزوماً متلاشياً . ثم خطوت خطوة نحو الباب ، ثم عدت فتوقفت . وصوبت نظري

إلى مكان معين في الحائط حيث علق جرس صغير في طوق من جلد ، وتحته حزمة حبال . وظللت واقفاً أحدق إلى هذه الأشياء .

وظن غلام الدكانة أن لديَّ متسعاً من الوقت ، وأني أريد أن أتحدث إليه ، فقال وهو يعد قراطيس من الورق موضوعة على الخوان :

ـ إنه ليبدو كأنّا على أبواب الشتاء .

فأجبته : نعم ، إنه ليبدو كأنّا دخلنا فصل الشتاء . نعم ، إنه ليبدو كذلك .

وبعد قليل أضاف إلى ذلك قائلا :

ـ آه ، نعم! في كل حال ، قد آن أوانه!

وسمعتني أنا نفسي أردد هذه التفاهات ، وكانت كلماتي من الوضوح كأنها صادرة عن شخص آخر .

فقال غلام الدكانة : أو تظن ذلك حقاً ؟

فدسست يدي بالنقود في جيبي ، وقبضت على مقبض الباب وانصرفت . وسمعتني أحييه تحية المساء ، وسمعته يرد عليَّ تحيتي .

وما كدت أخطو بضع خطوات مبتعداً عن الدرج حتى سمعت باب الدكانة يفتح والغلام يناديني . فالتفتُ إليه في غير دهشة ولا وجل ، بيد أني قبضت على النقود في يدي وأعددت نفسي مقدماً لإعادتها إليه ثانية . فقال الغلام :

ـ تفضل ، لقد نسيت شمعتك .

فأجبته في هدوء : آه ، أشكرك! شكراً لك!

وعدت أتسكع في الطريق والشمعة في يدي .

وكانت أفكاري محصورة في النقود ، فسرت إلى عمود المصباح وعددتها من جديد ، ووزنتها في يدي وتبسمت . إنها لمعونة كبرى لي . معونة عظيمة عجيبة تكفي لمدة طويلة... لمدة طويلة من الزمن! ثم دسست يدي ثانية بالنقود في جيبي ، ومضيت .

ووقفت أمام مطعم في قبو في شارع «ستور» وفكرت في برود وهدوء فيما إذا كنت أخاطر منذ الآن وأمتع نفسي بتناول وجبة صغيرة . وسمعت أصوات الأطباق والسكاكين آتية من الداخل ، وسمعت كيف يدق اللحم ، فكانت فتنة شديدة ، فدخلت ، وقلت :

ـ شريحة من لحم البقر .

فنادت الخادمة من طاقة صغيرة : «شريحة من لحم البقر!»

وأخذت مجلسي إلى مائدة صغيرة عند الباب لا يشاركني فيها أحد ، وبقيت أنتظر . وكان النور ضعيفاً في تلك الناحية ، فأحسستني قد اختفيت عن العيون ، وأخذت أفكر ، وكنت ألحظ الخادمة تنظر إليّ من وقت لآخر بعينين ملؤهما الفضول .

ولأول مرة أخون! أسرق لأول مرة! ألا أن حيلي السابقة التي لا تحصى ، لن تعد شيئاً بجانب هذا! سقطتي الأولى الصغيرة... الكبيرة! ولكن لا مجال للرجوع عما فعلت . ومع ذلك فالأمر هين . فإذا ما سنحت فرصة طيبة سويتُ الأمر مع غلام الدكانة ، فليس معنى هذا أنه قضي عليّ بالهبوط والسير إلى الأبد في طريق السرقة . كما أني لست ملزماً أن أكون أشرف من بقية الناس ، فما مِن عهدٍ عليّ بذلك .

ـ هل تظنين أن طلبي ينتهي سريعاً ؟

ـ أي نعم ، حالاً .

وفتحت الخادمة الطاقة الصغيرة ونظرت داخل المطبخ .

ولكن إذا عرفت المسألة يوماً ما ؟ إذا خامر غلام الدكانة الشك وابتدأ يفكر في مسألة الرغيف ، وفي الخمسة ريالات التي أخذت المرأة بقيتها ؟ فمن الجائز أن تظهر له الحقيقة ذات يوم عندما يراني مرة أخرى! آه يا إلهي!... ثم هززت كتفي .

وقالت الخادمة في رقة وقد وضعت طبق اللحم على المائدة :

ـ تفضل . ولكن ألا تحب أن ننتقل إلى غرفة أخرى ، لأن هنا ظلاماً ؟

فأجبتها : لا ، أشكرك . سأبقى هنا . وحركتني رقتها دفعة واحدة ، فدفعت الثمن في الحال وأعطيتها كل ما خرج في يدي من نقود وأطبقت يدها عليها . فتبسمت ، فقلت مازحاً وعيناي تدمعان :

ـ أشتري لك داراً بالباقي... بورك لك فيه!

وأخذت أتناول طعامي . وتزايد شرهي فأخذت أزدرد قطعاً كبيرة من اللحم بدون مضغ فكنت أمزق اللحم كآكل لحوم البشر .

وعادت فتقدمت إليّ وانحنت أمامي قليلاً وقالت :

ـ أوَ لا تحب أن تشرب شيئاً ؟

فالتفت إليها ، فغضت من بصرها ، وكانت تتكلم بصوت شديد الخفوت فيه شيء من الحياء .

ـ أنا أعني قدحاً من البيرة ، أو أي شيء آخر تريده... مني... مع الطعام... إذا شئت...

فأجبتها : لا ، أشكرك . ليس اليوم ، سآتي مرة أخرى .

فانسحبت وأخذت مجلسها وراء مائدة الأطباق . حقاً إنها لطفل عجيب!

ولما انتهيت من تناول الطعام أسرعت في الحال إلى الباب ، فقد شعرت بالقيء . فنهضت الخادمة واقفة . وتجنبت النور عند مفارقة الفتاة ، حتى لا أريها شيئاً من بأساني التي لم تمر لها ببال . وقلت مسرعاً : « طاب مساؤك » وانحنيت ثم انصرفت .

وابتدأ الطعام يؤثر في نفسي ، فتألمت منه كثيراً ، ولم أعد أطيقه طويلاً ، فذهبت في طريقي إلى كل ناصية مظلمة مررت بها وأفرغت فيها ما في حلقي . وكافحت كثيراً هذا القيء الذي أفرغ جوفي من جديد ، وكورت يدي ، واستجمعت قواي ، وضربت الأرض بقدمي وجعلت أستعيد إلى معدتي بشراهة وحنق ما يخرج إلى بلعومي ، ولكن عبثاً! وأخيراً قفزت في مدخل أحد الشوارع ، وحنيت رأسي ، وقد أعماني الدمع الذي ملأ عينيّ ، وعدت فأفرغت ما في جوفي مرة أخرى .

وامتلأت نفسي مرارة ، وسرت في الطريق أبكي وألعن القوى القاسية الغاشمة التي تقفو أثري ، ولتكن ما تكون! وتمنيت لها الجحيم المقيم والعذاب الأبدي لانحطاط صنيعها معي . حقاً إنها لقليلة النخوة إزائي! وقصدت رجلاً يحدق إلى نافذة أحد الدكاكين وسألته في لهفة عن رأيه في ما يحسن إعطاؤه من الغذاء لرجل لم يتناول طعاماً خلال مدة طويلة من الزمن وقلت إن حياته في خطر ، ومعدته لا تطيق اللحم .

فأجاب الرجل في شدة الاندهاش :

ـ سمعت أن الحليب يفيد في مثل هذه الحال ، الحليب المغلي . من أجل مَنْ تسأل ؟

فقلت : شكراً لك! نعم ، الحليب المغلي أظنه أفضل شيء .

ومضيت .

ذهبت إلى أول مشرب قهوة فاخر مررت به وطلبت حليباً مغلياً . وجاء الحليب ، فكرعته كما هو ، ساخناً حتى الثمالة ، وبلعت بشرهٍ كل قطرة من قطراته ، ودفعت الحساب ، وانصرفت إلى الغرفة .

غير أنه حدث أمر عجيب : فأمام باب بيتي قام شبح رأيته عن بعد اتكأ على عمود المصباح في وسط النور... إنه سيدة ترتدي السواد... هي السيدة نفسها صاحبة الرداء الأسود التي رأيتها في الليالي السابقة . ولا مجال للخطأ فيها ، فقد جاءت للمرة الرابعة ووقفت في المكان ذاته . وكانت تقف هناك بدون حراك .

وجدت هذا أمراً مستغرباً فتثاقلت في خطواتي عن غير قصد . وكانت أفكاري في تلك اللحظة في غاية الانتظام ولو أني كنت ثائر النفس بعد أن هاجت الوجبة الأخيرة أعصابي . ومررت كالعادة ملاصقاً لها واقتربت من باب الدار ، وأصبحت على وشك الدخول ، ثم وقفت في مكاني وخطر لي بغتة وبدون سابق تقدير أن ألتفت ورائي ، ثم اقتربت من السيدة وحدقت إلى وجهها ، ثم حييتها :

ـ مساء الخير يا آنسة .

ـ مساء الخير .

ـ معذرة . هل تبحثين عن أحد ؟ لقد رأيتك من قبل . وربما أستطيع أن أقدم لك خدمة ؟ وأعود فأسألك ألف معذرة .

ـ أوه! .

لم تكن تدري بالضبط ما تريد .

ـ وراء هذا الباب لا يسكن غير ثلاثة أو أربعة أفراس وأنا . وعدا هذا فلا يوجد غير اصطبل ومحل صفيح . مؤكد أنك ضللت الطريق إذا كنت تبحثين عن أحد هنا .

فحولت وجهها وقالت :

ـ لا أبحث عن أحد . أنا إنما أقف هنا فقط .

«كذا يا هذه! أنت إنما تقفين هنا فقط . تقفين هنا مساء بعد مساء اعتباطاً! إن هذا الأمر فيه شيء من الغرابة» . وكددت ذهني بشأن هذه السيدة ، فأخذت أفكاري تتبلبل ، ثم قررت أن أستجمع شجاعتي وخشخشت بالنقود في جيبي ، ودعوتها إلى كأس من النبيذ في أي مكان تشاء... بمناسبة الشتاء الذي هجم ، ها ، ها... ولن يطول مكثنا... ولكن هلا تريد ؟...

ـ آه لا ، شكراً . هذا لا يوافقني وليس في طاقتي .

ولكن لو تلطفت وصحبتها بضع خطوات... فالطريق إلى بيتها مظلم قليلاً ، ويضايقها أن تسير وحدها في شارع كارل جوهان في هذه الساعة المتأخرة .

وانطلقنا ، فاستولى عليَّ شعور غريب وجميل ، هو الإحساس بأنني أجد نفسي على مقربة من فتاة . وطفقت أنظر إليها طول الطريق ، فرائحة شعرها ، والحرارة المنبعثة من جسمها ، وهذا العطر النسائي الذي يحيط بها ، وطيب نفسها الحلو الذي أشمه في كل مرة تحول وجهها فيها إليَّ ، كل هذا غمرني بقوة وتغلغل في واندفع إلى حواسي جميعاً . وأمكنني أن أميز من تحت الحجاب وجهها الممتلىء ، الشاحب بعض الشحوب ، وصدرها المرتفع

الذي ينفخ المعطف . وأطار صوابي التفكير في كل هذا النعيم المستور ، الذي قدرته تحت الحجاب والمعطف ، وأسكرني الفرح بدون سبب معقول . ولم أعد أطيق الصبر أكثر من ذلك ، فلمستها بيدي ، ومسحت كتفها وضحكت ضحكة بلهاء ، وسمعت دقات قلبي . وقلت :

ـ ما أغربك!

ـ وكيف ذلك ، بالضبط ؟

ـ سأقول لك . أولاً ، كنت معتادة أن تقفي مساء بعد مساء عند باب الاصطبل دون أية غاية ، وكل ما هنالك أنه خطر لك أن تفعلي...

ـ كما أنه من الجائز أن يكون عندي أسباب لذلك . وعدا هذا فإني أحب السهر وأميل إليه دائماً . وهل يرضيك أنت النوم قبل نصف الليل ؟

ـ أنا إذا كنت أبغض شيئاً على وجه الأرض فهو النوم قبل نصف الليل! ها ها...

ـ وعليه أرأيت! ولذلك عودت نفسي أن أتنزّه دائماً في المساء إذا لم يكن لديّ عمل حيث أسكن في ميدان القديس أولافس .

فصرخت : يلاياللي!

ـ ماذا ؟

ـ لا شيء ...استمري .

ـ أسكن وحدي في ميدان القديس أولافس مع أمي التي لا يمكن التحدث إليها لصممها . وإذا كنت أحب التنزه قليلاً ، فأي شيء غريب في ذلك ؟

فقلت : لا شيء .

ـ حسناً ، فإذن ؟

وأدركت من صوتها أنها تبتسم .

وسألتها إذا كان لها أخت ، فقالت :

ـ نعم ، لي أخت أكبر مني... وكيف عرفت ذلك ؟ لقد سافرت إلى همبورغ .

ـ منذ مدة قصيرة ؟

ـ منذ خمسة أسابيع ، وكيف عرفت أن لي أختاً ؟

ـ أنا لا أعرف عن ذلك شيئاً ، وإنما ذلك عن طريق السؤال . وصمتنا . ومرَّ بنا رجل يحمل تحت إبطه حذاء ، وما عداه فقد كان الطريق إلى أقصى ما يصل إليه نظرنا خالياً من المارة .

وأمسكت السماء عن الإثلاج ، وأصبح أديمها صافياً .

فقالت السيدة فجأة وهي تنظر إليَّ :

ـ يا لله! ألا تحس البرد ، وأنت بدون معطف ؟

أوَ كان لزاماً عليَّ أن أحدثها عن السبب في أنني لا أملك معطفاً ؟ وأكشف لها في الحال عن حقيقة موقفي ، وأخيفها من البداية وأدعوها إلى أن تهرب مني ؟ لقد كان أمراً ممتعاً أن أسير بجوارها وأتركها فترة تجهل حقيقتي . وعليه ضحكت وقلت :

ـ لا ، أبداً .

ولكي أحول مجرى الحديث سألتها : هل رأيت معرض الوحوش في تيفولي ؟

فأجابت : لا ، هل هناك مايستحق المشاهدة ؟

ولو خطر لها الآن الذهاب إلى هناك ؟ حيث تتلألأ الأنوار ويزدحم الناس ؟ فقد يربكها جداً ، بل ربما ساقها إلى باب الخروج ، منظر بذلتي الرثة ، ووجهي الهزيل الذي فوق ذلك لم أغسله منذ يومين! بل ربما اكتشفت أنني لا ألبس صداراً ولذلك قلت :

ـ آه ، لا . مؤكد أنه لا يوجد شيء للتفرج عليه .

ثم خطرت لي عدة خواطر مبهجة استخدمت منها شيئاً في الحال ، بعض عبارات ساذجة كانت لا تزال باقية في ذهني الجاف .

ـ أي شيء يمكن أن ينتظره الواحد من مثل معرض الوحوش الصغير هذا ؟ الحيوان في القفص لا يهمني أبداً . هذه الحيوانات تعرف أن الإنسان يقف أمامها ليتفرج عليها ، وتدرك مئات اللحظات المتشوفة وتتأثر بها . لا ، إنما أنا أطيق الحيوانات التي لا تدرك أن الإنسان يحدّق إليها ، تلك المخلوقات الشرسة الجافلة التي تجول في مغاراتها ، ذوات العيون الخضراء اللامعة ، الراقدة تلمس قوائمها وتفكر ، أليس كذلك ؟

ـ بلى ، إن الحق بجانبك دون شك .

ـ الحيوان في كامل وحشيته الأصلية المخيفة ، هو ما يهز النفس . الخطوات الصامتة الهاربة في ظلمات الليل الكثيفة ، وهمهمة الغابة وما فيها من رهبة ، وصرخات طائر ، والريح ، ورائحة الدم ، والدويّ في الفضاء من فوق ، وروح المملكةِ الحيوانية التي تهيمن على الحيوان المفترس...

ولكني خفت أن أضنيها بهذا الحديث ، وعاد الشعور بالتعاسة العظيمة فتملكني من جديد وسحقني سحقاً . لو أن لباسي في الأقل كان على شيء من الهندام لأدخلت على قلبها المسرة في هذه الرحلة القصيرة إلى تيفولي . ولم أفهم هذه المرأة التي كانت تجد غبطة في أن يصطحبها طول شارع كارل جوهان صعلوك نصف عارٍ ، فماذا عساها بالله تظن ؟ وأنا ، لأي سبب أسير وأتدلل وأبتسم كالأبله لغير شيء ؟ ترى ، هل من سبب معقول لأستسلم لهذا الطائر الحريري الرقيق يجرني كل هذا الطريق البعيد ؟ أوَ لا يكلفني هذا مجهوداً ؟ أوَ لم أشعر ببرد الموت يتغلغل حتى قلبي عندما تهب علينا أرق نفحات الريح وتلطمنا على وجهينا ؟ أو لم يسرِ الخبل في رأسي لأن الغذاء ينقصني منذ شهور ؟ إنها لتحول حتى بيني وبين الذهاب إلى الغرفة لآخذ شيئاً من الحليب على لساني ، معلقة حليب ربما أمكنني الاحتفاظ بها في جوفي! ولماذا لم تدر لي ظهرها وتدعني أذهب إلى الجحيم ؟

يئست ، وأخرجني يأسي عن طوري فقلت ،

ـ الحق أنه لا يليق بك أيتها الآنسة أن تسيري معي . إني لأفضحك أمام كل الناس ، فقط بلباسي . نعم ، هذه هي الحقيقة ، وأنا أعني بصدق ما أقول .

فأجفلت لحظة ، وألقت نظرة سريعة عليَّ وقالت :

ـ يا لله العظيم!

ولم تزد حرفاً . فسألتها :

ـ ماذا تعنين بذلك ؟

ـ أف! لا ، لا تتحدث هكذا... لم يبق أمامنا مسافة طويلة .

وعند هذا أسرعت الخطا بعض الشيء ، فانثنينا إلى شارع الجامعة ،

فطلعت علينا مصابيح ميدان القديس أولافس ، فعادت فتباطأت في السير من جديد . وقلت :

ـ لا أحب أن أكون متطفلاً ، ولكن قولي لي ، ألا تريدين أن تذكري لي اسمك قبل أن نفترق ؟ أوَ لا تحبين أن ترفعي الحجاب لحظة حتى أتمكن من رؤيتك ؟ إني أشكرك كثيراً إن أنت فعلت .

وساد السكوت . ووقفت أنتظر . وبعد قليل أجابت :

ـ لقد رأيتني مرة من المرات .

فقلت للمرة الثانية : يلايالي!

ـ أليس كذلك ؟ لقد طاردتني نصف يوم بأكمله حتى باب داري . أكنت يومئذ سكران ؟

ومن جديد أحسستها تبتسم!

وقلت : نعم ، كنت في ذلك اليوم سكران .

ـ لقد كان هذا منك شيئاً تافهاً .

فسلمت مغلوباً على أمري أن هذا كان مني شيئاً تافهاً .

وكنا قد وصلنا إلى النافورة ، فوقفنا ونظرنا إلى النوافذ الكثيرة المضيئة في الدار رقم ٢ ، فقالت :

ـ لا يصح أن تسير معي أبعد من هذا . أشكر لك صنيعك معي في هذا المساء .

فحنيت رأسي ولم أتجاسر على قول شيء . ثم رفعت قبعتي ووقفت أمامها مكشوف الرأس ، لعلها تمد لي يدها .

فتساءلت همساً وهي تنظر إلى مقدم حذائها :

ـ لِمَ لا تسألني أن أمشي معك قسماً من الطريق ؟

فأجبتها غير متمالك نفسي : الله ، الله! لو فعلت هذا!

ـ نعم ، ولكنني لا أسير معك إلا قسماً صغيراً من الطريق .

وعدنا .

واشتدت بي الحيرة ، ولم أدر أأسير أم أقف ، فقد قلبت هذه المخلوقة مجرى أفكاري ، طفح عليَّ السرور وتملكني فرح عجيب حتى كادت نفسي من فرط السعادة تنسحق . لقد صارحتني تماماً برغبتها في العودة معي ، ولم يكن هذا من خواطري بل كان رغبتها الخاصة... ورحت أنظر إليها ونحن نسير وأخذت الشجاعة تنمو في نفسي باستمرار ، فقد كانت تشجعني وتجذبني إليها بكل كلمة تقولها . فنسيت لحظة من الزمن بأسائي ومهانتي بل كل وجودي التعس ، وأحسست حرارة الدم تجري في جسمي ، كما كانت الحال في حياتي الأولى قبل أن أتحطم ، وقررت أن أحوم حول الأمر بغمزة لينة ، فقلت :

ـ أنا لم أطاردك في المرة السابقة . إنما كنت أقصد أختك .

فقالت وقد بهتت : «أختي ؟!» وبقيت واقفة مكانها تنتظر جواباً .

لقد سألتني جادة كل الجد . فأجبتها :

ـ نعم ، أعني صغرى السيدتين اللتين كانتا تسيران أمامي .

ـ الصغرى ؟ نعم ؟ ها ، ها ، ها!

وأخذت تضحك ضحكاً عالياً صادراً من قلبها كما يضحك الطفل وأردفت تقول :

ـ لا ، إنك لداهية! إنما تقول هذا كي أرفع الحجاب ، أليس صحيحاً ؟ لقد لاحظت ذلك ولكنك أخطأت... عقاباً لك .

وضحكنا ومزحنا وطفقنا نتحدث طول الطريق بدون انقطاع . ولم أدر ما قلته لها ، فقد كنت طرباً . وحدثتني أنها رأتني منذ مدة في أحد الملاهي مع ثلاثة من الرفاق ، وأن مسلكي كان أشبه بمسلك المخبولين ، ولا شك أنني كنت في ذلك اليوم أيضاً سكران .

ـ ولماذا تعتقدين ذلك ؟

ـ لأنك أكثرت من الضحك .

ـ كذا ؟ نعم ، كنت في ذلك الحين لا أزال أضحك!

ـ والآن ، ألم تعد تضحك ؟

ـ بلى... والآن أيضاً .

وبلغنا شارع كارل جوهان فقالت :

ـ لن نسير إلى أبعد من هذا!

وعدنا إلى شارع الجامعة . ولما وصلنا إلى النافورة من جديد ، أخذت أتلكأ في السير ، فقد عرفت أنه لا يصح لي أن أسير معها إلى أبعد من ذلك . فقالت وقد وقفت في مكانها :

ـ يلزمك الآن أن تعود من حيث أتيت .

ـ نعم ، هذا مالا بد منه .

ولكنها رأت بعد حين أني أقدر أن أرافقها إلى باب بيتها ، وقالت :

ـ يا لله! لا أظن في ذلك ما يخالف اللياقة ، أليس كذلك ؟

فقلت : لا .

ولكنا لما وقفنا أمام باب الدار ، عاد شقائي فتغلب عليَّ . وأنّى لإنسان أن يحتفظ بشجاعته إذا كانت الحياة قد حطمته مثل هذا التحطيم ؟ هنا أقف أمام سيدة في نضارة الشباب قذراً ممزق الثياب مشوهاً من الجوع وبدون اغتسال وأكاد أكون عارياً! لقد كان موقفاً يحسن بصاحبه أن يغوص في الأرض! فصغرت نفسي وانحنيت من غير وعي وقلت لها :

ـ ألا تسمحين أن نلتقي مرة أخرى ؟

ولم أعلل النفس بالطمع في السماح لي بمقابلة أخرى ، بل كنت أطمع منها في رفض جاف حاسم يقوي عزيمتي ويجعلني لا أكترث بها .

فقالت بصوت خافت لا يكاد يسمع : بلا شك .

ـ متى ؟

ـ لا أدري .

فترة صمت .

فقلت : ألا تريدين أن ترفعي الحجاب لحظة واحدة حتى أرى مع من أتحدث ؟ لحظة واحدة ، لا بد لي أن أرى مع مَنْ أتحدث .

فترة صمت .

فقالت : تستطيع أن تنتظرني هنا ، أمام هذا الباب ، يوم الثلاثاء مساء . أتحب ؟

ـ نعم ، أوَ تسمحين لي بذلك ؟

ـ في الساعة الثامنة .

ـ حسنا .

ومسحت بيدي معطفها وأنزلت الثلج من عليه ، لا لشيء إلا لأجد لي حجة لألمسها ، فقد كان السماح بالاقتراب منها مسرة ليس بعدها مسرة . فقالت ، وقد عادت تبتسم :

ـ ولكن ، يلزمك أن لا تظن بي سوءاً .

ـ لا...

وأتت فجأة بحركة عازمة وزحزحت الحجاب حتى أعلى جبهتها . فنظر أحدنا إلى الآخر لحظة طويلة ، فصحت بها : يلاياليا!

فنصبت قوامها وطوقت عنقي بذراعيها ، ثم قبلتني في فمي ، فأحسست نهديها يرتفعان وهي تلهث بشدة .

ثم خلصت نفسها بغتة من ذراعي وقالت همساً وهي خائرة القوى : «ليلتك سعيدة!» وتحولت عني دون أن تلفظ كلمة أخرى ، وصعدت في السلم على عجل .

وأغلق باب الدار .

وأثلجت السماء في اليوم التالي أكثر وأغزر ، فهطل ثلج ثقيل ممتزج بالأمطار ، فكان ما يتساقط منه عبارة عن خرق كبيرة مبللة تنقلب إلى مستنقعات . لقد كان جواً مثلجاً قاسياً .

واستيقظت في الصباح متأخراً فقد كان رأسي مضطرباً اضطراباً عجيباً من جراء التأثرات التي أصابتني أمس ، كما كان قلبي مفعماً فرحاً من

المصادفة الحلوة . ورقدت في غبطتي وبقيت متيقظاً مدة من الزمن وأنا أتصور يلايالي إلى جانبي . وفتحت ذراعي وطوقت نفسي بنفسي وأخذت أقبّل في الهواء . وأخيراً انتصبت واقفاً وشربت قدحاً من اللبن وأكلت معه شريحة من لحم البقر ، فلم أحس بعد ذلك جوعاً . غير أن أعصابي عادت فتهيجت بشدة .

فنزلت إلى سوق الملابس إذ خطر لي أني ربما استطعت الحصول على صدار قديم بثمن بخس ، أي صدار كان ، لألبسه تحت سترتي . صعدت في السلم إلى السوق فوجدت صداراً أخذت أفحصه بدقة . وبينما أنا مشغول به مرَّ عليَّ أحد معارفي وأومأ لي بيده ، ثم ناداني ، فتركت الصدار ونزلت إليه ، وكان مهندساً فنياً يتأهب للذهاب إلى مكتبه . فقال لي :

ـ تعال معي نشرب قدحاً من البيرة ، ولكن أسرع فليس لديَّ متسع من الوقت . من تكون هذه السيدة التي كنت تتنزه معها أمس ؟

فقلت وقد دبت فيَّ الغيرة لمجرّد تفكيره : استمع لي ، ماذا تقول إذا كانت خطيبتي ؟

فصرخ : يا للشيطان!

ـ نعم ، فقد تقرر ذلك أمس .

فخجل أشد الخجل ، وصدقني بدون أن يرتاب في قولي . وأخذت أبالغ في الكذب عليه لأتخلص منه . وجاءت البيرة وشربنا وانصرفنا . وقال لي فجأة عند الانصراف :

ـ والآن إلى اللقاء... استمع لي ، أنا مدين لك بريالين ، ومن العار ألا أردهما إليك منذ زمن مضى . ولكن نقودك ستصل إليك في القريب العاجل .

فأجبته : «أشكرك» . وكنت أعلم أني لن أحصل منه على الريالين أبداً .

ومما يؤسف له أن البيرة صعدت في الحال إلى رأسي وسخنت ، واستولى عليّ التفكير في مجازفة البارحة فكاد صوابي يطير ، فما العمل إذا هي لم تأت يوم الثلاثاء ؟ ما العمل إذا كانت ابتدأت تفكر وتستثير في نفسها الشكوك... ولكن أية شكوك وبأية مناسبة... ونشطت أفكاري فجأة ودارت كلها حول النقود ، فخفت وارتعدت فرائصي ، ومججت نفسي مجاجاً ليس بعده من مزيد . وعصفت بي جريمة السرقة بتفاصيلها ، فرأيتها رأي العين : رأيت الدكانة الصغيرة وخوانها ويدي الهزيلة وهي تقبض على النقود . وتخيلت منظر الشرطة وهم آتون للقبض عليّ وقد كبلت يداي ورجلاي بالحديد... لا ، بل يداي فقط ، وربما كانت يداً واحدة! رأيت قفص الاتهام وتحرير الموظف المسؤول للمحضر ، وصرير ريشته التي تخدش الورق! رأيته ، وقد تناول للغاية نفسها ريشة أخرى ، ونظراته ، نظراته المرعبة... وصوته يقول : طيب يا سيد طانجن... الزنزانة... الظلام الأبدي!

ولكي أشجّع نفسي شبكت يدي بشكل عصبي وسرت مسرعاً فبلغت ميدان السوق الكبير وهناك أخذت مجلسي .

ما هذه السخافة! إن الأمر لا يخرج عما هو معلوم في كل مكان ، فأنّى لأحد أن يقيم البرهان على ارتكابي السرقة ؟ وعدا ذلك ، فلن يجرؤ غلام الدكانة على إثارة ضجة حول المسألة حتى ولو تذكر ذلك يوماً من الأيام ، فإن وظيفته أحب إليه بكثير . سيقول : أتوسل إليك ، لا داعي للضجة والمشكلات!

وعلى رغم ذلك بقيت هذه النقود إثماً ثقيلاً في جيبي ، وسلبت مني

راحتي ، ففحصت عن موقفي فظهر لي في جلاء أني كنت فيما مضى أسعد حظاً مني الآن ، أيام كنت متمتعاً بكامل شرفي أشقى وأكافح . ويلاياليي ، لم أنزل بها بيدي الأثيمتين إلى الحضيض! يا لله في سمائه! ربي وإلهي! يلاياليي .

فقفزت فجأة ومضيت رأساً إلى بائعة الفطير عند صيدلية «الفيل» . لا أزال قادراً على انتشال نفسي من هذا العار ، فلا يزال هناك وقت لذلك . وسأري العالم بأسره أني قادر على ذلك! وفي الطريق أعددت النقود ، وقبضت عليها كلها في يدي ، وانحنيت أمام خوان المرأة كما لو كنت أريد شراء شيء ، وألقيت بالنقود في يدها بدون تردد ، ولم أفه بحرف واحد . ومضيت في طريقي .

ما أبدعه من شعور أن تعود فتحس أنك عدت رجلا شريفاً! فلم تعد تثقلني جيوبي الفارغة . وأحسست المتعة بأن أعود خاوي الوفاض . وإذا أنا فكرت في الأمر جد التفكير ، فإن هذه النقود قد كلفتني في الواقع هماً عظيماً . فالحق أني كنت كلما فكرت فيها ، فكرت في فزع ، فلم أكن قاسي القلب ، وكانت طبيعتي الشريفة تثور ضد كل عمل حقير . وإني لأحمد الله ، فقد عدت فرفعت نفسي أمام الملأ . وقلت وقد ألقيت نظرة على جمهور الناس الذين في السوق : «إصنعوا صنيعي! أتحداكم أن تصنعوا صنيعي! لقد أسعدت بائعة الفطير العجوز الفقيرة . وإنه لمثل أضربه لكم على المساعدة ، فإنها لم تكن تدري لها مخرجاً ، ولن يذهب أولادها في هذا المساء جائعين إلى فراشهم» .

وبهذه الأفكار أيقظت مشاعري . ووجدت أني سلكت مسلكاً شريفاً . وحمدت الله أني تخلصت الآن من هذه النقود .

وفي حالة نشوة وعصبية مضيت في طريقي أفخر بنفسي . فالغبطة بمقابلة يلايالي عفاً نقياً ، والقدرة على النظر في وجهها ، كادا يفلتان زمام نفسي من يدي . ولم أعد أحس ألماً . وخفَّ رأسي وصفا ، وبدا لي كأن رأساً من نور الخيلاء يضيء فوق كتفي . واشتهت نفسي أن آتي بعض السخافات ، فأرتكب أشياء تكون غريبة في بابها . اشتهت نفسي أن أقيم المدينة وأقعدها . وكان سلوكي إلى أقصى حد سلوك المخبولين . وكنت أحس في أذنيَّ طنيناً خفيفاً . كما كان شعاع النشوة يعمل عمله في رأسي . وخطر لي ، جرأة مني في حالة تحمسي ، أن أذهب إلى أحد السعاة الذي لم يقل لي شيئاً وأحدِّثه عن سني ، وأهز يده وأحدق إلى وجهه بعناد ، ثم أغادره بدون أن أبين له سبباً لذلك . وكنت أميز أبسط الفروق في أصوات المارة وضحكاتهم . وراقبت عصفورين كانا يقفزان أمامي على الأرض . وطفقت أدرس مغزى أحجار الرصيف ، فوجدت علامات شتى وصوراً بديعة فوقها . وفيما أنا كذلك بلغت ميدان ستورتنغ .

وفجأة وقفت في مكاني أحدّق إلى العربات ، وكان السائقون يروحون ويجيئون وهم يتحادثون ، وقد وقفت الخيل في مواقفها وحنت رؤوسها إلى الأمام في ذلك الجو الرديء . فلكزت خاصرتي بمرفقي وقلت : «هيا!» واتجهت بحماسة إلى أول عربة ، وصعدت إليها وصحت : «إلى شارع يوليفال رقم ٣٧» . ودارت بنا العجلات .

وأخذ السائق في الطريق ينظر إلى الوراء وينحني ليراني حيث أجلس تحت سقف العربة . تراه أساء بيَ الظن ؟ لا شك في ذلك ،فإن ثيابي الرديئة لفتت نظره إليَّ .

ولكي أكون أنا البادىء قلت له : لا بد لي من لقاء رجل .

ثم أبنت له في إلحاح ضرورة مقابلتي لهذا الرجل .

ووقفنا أمام رقم ٣٧ فقفزت من العربة إلى الخارج ، وصعدت في السلم إلى الطبقة الثالثة . وأمسكت بحبل الجرس ودققته ، فدّق في الداخل ست دقات عنيفة أو سبعاً .

ففتحت خادمة الباب ، وكان في أذنيها حلق ذهبي وعلى ثوبها أزرار رمادية ، فنظرت إليَّ في فزع . وقلت :

ـ أريد مقابلة كيرولف ، يواكيم كيرولف . وإذا شئت أن أقول لك من هو ، فأعلمي أنه تاجر صوف . وبالاختصار ، فإن اسمه لا يحتمل الخطأ...

فهزّت الفتاة رأسها وقالت :

ـ لا يسكن هنا إنسان اسمه كيرولف .

وحدّقت إليَّ وأمسكت بقبضة الباب تستعد للانسحاب ولم تحاول أية محاولة أن تتعرف الرجل ، وقد ظهر عليها في الواقع كإنما تعرف الشخص الذي سألت عنه ، لو أن هذه المخلوقة الكسلى أعملت فكرها قليلاً! فحنقت وأدرت لها ظهري ونزلت في السلم ركضاً .

وصحت في السائق : غير موجود!

ـ غير موجود ؟

ـ سر بنا إلى تومتغادون رقم ١١ .

وكنت في أشد حالات الهياج والاضطراب ، فأصبت السائق بعدواي ، فصدّق بالفعل أنها مسألة حياة بالنسبة لي ، وسار من هناك لا يلوي على شيء وأعمل سوطه في ظهر الخيل .

ثم أدار ظهره من على كرسيه وسألني :

ـ ما اسم الرجل ؟

ـ كيرولف ، كيرولف ، تاجر الصوف .

واتفق السائق معي أيضاً على أن اسم الرجل لا يحتمل الخطأ . وسألني :

ـ أليس هو الرجل الذي تعود أن يلبس معطفاً زاهي اللون ؟

فصحت به : ماذا ؟ مَعطفاً زاهي اللون ؟ أمجنون أنت ؟ أوَ تحسب أني أسأل عن فنجان شاي ؟

لقد بدا لي المعطف الأبيض غير لائق به ، وقبح ذلك في نظري صورة الرجل التي كنت قد تصورتها .

ـ ماذا قلت ؟ اسمه كيرولف ؟

ـ أي نعم ، أوَ عجيب ذلك ؟ إن الإسم لا يعيب صاحبه .

ـ أليس شعر الرجل أحمر ؟

ربما صحّ ذلك وكان الرجل ذا شعر أحمر . فإن السائق عندما ذكر لي ذلك صدقته في الحال . وشكرت هذا الحوذي المسكين من باب المجاملة وقلت له إنه أصاب الرجل المطلوب ، وإنه لكما ذكر ، وإنه ليندر أن يُرى رجل مثله بدون شعر أحمر .

قال السائق : لا بد أن يكون هو بعينه... فقد ركب في هذه العربة عدة مرات . ألا يحمل معه عصا ذات رأس معقود ؟

عندئذ نظرت للرجل في نشاط وقلت له :

ـ ها ، ها! لم يقع نظر أحد على هذا الرجل حتى اليوم دون أن تكون معه عصاه المعقودة الرأس . يمكنك أن تطمئن من هذه الناحية . أن تطمئن غاية الاطمئنان .

ـ نعم ، لقد وضح أنه الرجل نفسه الذي أركبته ، فقد عرفته أخيراً...

ومضينا في طريقنا على عجل والشرر يتطاير حولنا من حوافز الخيل .

وفي أثناء هذه الظروف المثيرة لم أفقد لحظة واحدة حضور ذهني . فقد مررنا في طريقنا على شرطي ، فلاحظت أنه يحمل رقم ٦٩ فوقع هذا الرقم مني موقعاً سيئاً ، وبقي فجأة كشظية في رأسي ، ٦٩ ، ٦٩ بالضبط ، لن أنساه في حياتي! الرقم ٦٩ لن أنساه أبداً!

وعدت فأسندت ظهري إلى العربة وتقوصرت تحت سقفها فريسة لأهواء خرقاء ، وتقوصرت حتى لا يرى أحد أني أحرك فمي ، وأني أخذت أتحدث مع نفسي كما يفعل البله . وثار الخبل في رأسي ، وخليته يثور لأني كنت متحققاً من أنه لا بد لي على كبت مؤثراته . طفقت أغرق في الضحك بصوت منخفض بدون أي سبب ، وبقيت جذلاً ثملاً من قدحي البيرة اللذين شربتهما . ثم أخذت ثورتي تنطفىء تدريجياً ، وعادت لي الطمأنينة شيئاً فشيئاً وشعرت ببرود في إصبعي الجريحة فوضعتها بين رقبتي وياقة قميصي كي أدفئها قليلاً . وهكذا وصلنا إلى تومتغادون ، فأوقف السائق العربة ، ونزلت منها متباطئاً خالي الذهن متراخي الأعضاء وقد ثقل رأسي ، فدخلت باب الدار الخارجي ، وأتيت إلى فناء خلفي فقطعته وعثرت على باب ففتحته ودخلت فيه فوجدت نفسي في رواق أشبه بمدخل غرفة ذات نافذتين . وكانت في إحدى زواياه حقيبتان واحدة فوق الأخرى ، وعلى طول الحائط مقعد خشبي عتيق بدون طلاء ، وعليه غطاء . وسمعت إلى يميني في الغرفة

المجاورة أصواتاً وصراخ أطفال . كما سمعت فوقي في الطابق الثاني طرقاً على درع من الحديد . كل هذا تحققت منه لأول وهلة عند دخولي .

سرت في هذا الرواق حتى الباب المقابل غير مسرع أو مفكر في الهرب ، وفتحت هذا الباب كذلك فخرجت منه إلى شارع بوغماند .

ورفعت بصري إلى الدار التي اجتزتها الساعة ، فقرأت في أعلى بابها : «دار للإقامة ونزل للسانحين» .

ولم يخطر لي أن أفر وأهرب من السائق الذي ينتظرني ، بل سرت في شارع بوغماند مطمئن النفس ، بخطوات ثابتة وبدون وجل ، وكيرولف هذا ، تاجر الأصواف الذي طالما كان يتراءى في خيالي ، هذا المخلوق الذي خلت أنه موجود وأنه لا بد لي أن أراه ، تقلص من مخيلتي ، ومحته التصورات الكثيرة الأخرى التي كانت تأتي وتروح واحدة بعد الأخرى ، ولم أعد أذكره إلا كخاطر أو ذكرى .

وكلما جددت في السير عادت إليَّ حواسي ، فأحسست ثقلاً وضعفاً ، فأخذت أجر قدمي جراً ورائي . وظل الثلج يتساقط في شكل رقع عظيمة رطبة . وأخيراً سرت إلى غرونلاند فبلغت الكنيسة ، وهناك جلست على مقعد لأستريح ، فأخذت المارة ترمقني متعجبين ، وأنا غارق في بحار أفكاري .

يا لله ما أسوأ هذه الحال! لقد مللت هذه الحياة التعسة وعفتها ، وأصبحت لا أجد فائدة تذكر في إطالة الكفاح للاحتفاظ بحياتي . لقد طغى سوء الحظ وكان قاسياً في طغيانه ، وكُتِبَ عليَّ السقوط ولم يبقَ مني خيال يُرى ، وهوت كتفاي من هنا وهنا لكثرة ما تعودت الانحناء إلى الأمام عندما أمشي لأبقى على صدري ما قدرت . ومن يومين فحصت جسمي في وقت

الظهيرة في غرفتي ، فبكيته يومئذٍ طوال ذلك الوقت . وقد مرت عليَّ أسابيع وأنا أحمل على جسدي قميصاً واحداً يبس من العرق القديم وأصاب جسمي بجرح من الاحتكاك ، ونَزَّ من الجرح ماء مشوب بدم ، ولكن ذلك لم يؤلمني كثيراً . ومما يؤسف له أن الجرح كان في وسط البطن . ولم أجد له علاجاً ، فقد أبى أن يلتئم وحده . فكنت أغسله وأجففه بعناية ، ثم ألبس فوقه القميص نفسه ، ولم يكن في استطاعتي أن أفعل أكثر من ذلك .

جلست هناك على المقعد أفكر في كل شيء وأنا منقبض الصدر ، وتحسرت على نفسي وظهر عليَّ الاشمئزاز ، وحتى يداي بدتا لي كريهتين وحزَّ في صدري ارتخاء يديَّ ومنظرهما الوقح . ومنظر إصبعي الهزيلة ترك فيَّ أثراً قاسياً مزعجاً ، فكرهت كل جسدي المحطم ، وأرعدني حمله ، أرعدني مجرد الإحساس به حوالي... يا لله! لو أن لهذا نهاية تكون الساعة! فإني لأحب من صميم قلبي أن أموت .

وانتصبت واقفاً بشكل آلي ، مغلوباً على أمري ، مكسواً بالقار ، محقَّراً في عينيَّ ، وأخذت طريقي إلى مسكني . وفي الطريق مررت بمدخل مكتوب عليه : «أكفان الموتى عند الفتاة أندرسن على يمين الداخل» ، فقلت في نفسي : «ذكريات قديمة!» وتذكرت غرفتي القديمة في حي همرسبرغ ، وذكرت الكرسي الصغير الهزاز ، والجريدة التي تغطي الحائط عند أسفل الباب ، وإعلان مفتش المنارة ، والخبّاز «فابيان ألسن» صاحب الخبز الطازج! آه ، تلك أيام مضت وكانت أفضل من هذه . ففي ليلة واحدة كتبت مقالة بعشرة ريالات ، أما الآن فلا أستطيع الكتابة ، لا أستطيع الكتابة مطلقاً . وإذا عالجتها فسرعان ما أجد رأسي فارغاً . نعم ، إني لأرجو الساعة نهاية لهذا! ومشيت ، ومشيت .

وكلما اقتربت من الدكان... تيقظ فيَّ شعور نصف واعٍ باقترابي من الخطر ، ولكني ثبتّ على عزمي ، فقد كنت عقدت النية على تسليم نفسي ، فصعدت في السلم في هدوء ، والتقيت عند الباب بفتاة صغيرة في يدها كأس ، فانسللت من أمامها وأغلقت الباب ورائي ، وللمرة الثانية أقف أنا وغلام الدكان وحدنا وجهاً لوجه .

فقال : جو رديء!

لم كل هذا اللف والدّوران ؟ ولماذا لا يتعلق بخناقي في الحال ؟ فثارت ثائرتي وقلت له :

ـ أنا لم آت إلى هنا لأتحدث عن الجو .

فبهت لهذا العنف ، وخانه عقل الحانوتي الضيق ، فلم يخطر له ببال أني سلبته خمسة ريالات .

ثم قلت متضجراً : أتعرف أني قد خدعتك ؟

وعند ذلك أخذت ألهث بشدة وأنتفض ، فقد كنت مستعداً لاستخدام القوة إذا هو خرج عن الموضوع .

ولكن هذا المخلوق البائس كان خالي الذهن .

لا أيتها الدنيا العزيزة ، أي ناس هم هؤلاء الأغبياء الذين نجدنا مضطرين لمعاشرتهم! وطفقت أسب ، وأوضحت له كيف حدث ذلك نقطة فنقطة ، وأريته أين كنت أقف عند وقوع هذا الحادث ، وأين كان يقف وأين كانت النقود ، وكيف جمعتها وقبضت عليها بيدي . وفهم المسألة على حقيقتها ، ولكنه مع ذلك لم يصنع أي شيء ، بل أخذ يلتفت هنا وهناك ويصغي إلى خطوات الأقدام في الغرفة المجاورة ، ويهدّئني كي أتكلم بصوت منخفض ، وأخيراً قال :

ـ هذه نذالة منك!

فصحت به وأنا أقصد معارضته وإثارته وقلت :

ـ لا ، تريث قليلاً . لم يكن في عملي هذا من النذالة والدناءة مقدار ما يتصوره عقل بياع صغير مثل عقلك . فما خطر ببالي قط أن أحتفظ لنفسي بهذه النقود ، أو أجر منها مغنماً ، فهذا ما يناقض طبيعتي الشريفة...

ـ فأين هي إذن ؟

ـ وإذا أبيت إلا بياناً ، فقد أعطيتها امرأة عجوزاً فقيرة . أعطيتها كل فلس منها . إنني لا أنسى قط أمثال هؤلاء الناس من الفقراء...

فانتصب واقفاً ، وفكر لحظة ، وبدت عليه الحيرة في مدى حكمه على شرفي ، ثم قال :

ـ أوَ لم يكن الأشرف أن تعيدها إليَّ ؟

فرددت عليه بوقاحة وقلت :

ـ لا ، إستمع إليَّ . لم أشأ أن أثقل عليك وأسوقك إلى الارتباك في أمرك ، بل أردت أن أجنبك كل ذلك . ولكن هذا هو جزاء أكارم الناس . لقد جئتك الآن أقف أمامك وأشرح لك المسألة بجملتها ، وها أنذا لا أراك تستحي كالكلب وتتقدم لتسوية النزاع بيننا . لذا سأغسل يدي من هذه المسألة . إلى الشيطان ، أستودعك الله!

وانصرفت بعد أن أغلقت الباب خلفي بشدة .

ولكني عندما وصلت إلى غرفتي ، أو الجحر المزعج ، كنت مبلل الجسد من الثلج الذي سقط عليَّ وذاب ، وكانت ركبتاي ترتعدان من تجوال

النهار ، ففقدت في الحال عجرفتي ، وغُشي عليَّ مرة أخرى . وندمت لتهجمي على غلام الدكان البائس وبكيت ، وشددت على عنقي لأقتصَّ من نفسي على هزلي السخيف ، وعنّفت نفسي غاية التعنيف . لقد كان من الطبيعي أن لا يجرؤ غلام الدكان على إثارة ضجة من أجل الريالات الخمسة التي خسرها المحل لخوفه القاتل من أن يفقد عمله ، فاستغللت خوفه ، وعذبته بالتكلم بصوت مرتفع ، وأغضبته بكل كلمة تفوهت بها . وقد يكون رئيس الدكان جالساً في الغرفة المجاورة ، فلا يبعد إذ ذاك أن يدخل عندنا ليرى ما يجري في دكانه . لا ، إن الدناءة التي كنت أقدمت عليها لم تعرف لها حداً .

حسناً ، ولكن ترى لماذا لم يقبضوا عليَّ ؟ إنهم لو فعلوا لوضعوا حداً لكل هذا ، ولمددت يدي للأغلال بدون أدنى مقاومة! لا ، بل كنت على العكس ، أساعدهم . يا إله السموات والأرض ، يوم من حياتي مقابل لحظة واحدة سعيدة . حياتي كلها نظير وجبة من العدس! إستمع إليَّ يا رب مرة واحدة!

ورقدت في الفراش بملابسي المبللة ، وتولتني أفكار مضطربة ، فلربما قضيت نحبي في هذه الليلة! ولذلك بذلت ما في طاقتي لأجعل فراشي منتظماً بعض الشيء ، حتى يرى في الصباح على شيء من الترتيب ، ثم ضممت يدي وتخيرت لي مكاناً .

وفجأة خطرت يلايالي ببالي... وكيف نسيتها طوال المساء! فعاد بصيص من النور وتغلغل في ذهني ، شعاع بسيط أرسل فيَّ حرارة سماوية . وازداد النور... ضوء حريري لين رقيق ، لا حار ولا بارد ، لمسني فانتشيت وتخدرت . واشتدت حرارته ، وأحرقتني في صدغي ، وغلت واتقّدت في رأسي . وانتهى الأمر بأن اشتعل أمام عينيَّ لهيب هائل من الأشعة ، ورأيت

الأرض والسماء في حريق ، ورأيت ناساً ووحوشاً من نار ، وحقولاً من نار وشياطين من نار ، وهوة ، وصحراء ، وعالماً كاملاً من نار . رأيت نار اليوم الآخر .

ثم لم أعد أسمع ولا أرى شيئاً .

وفي اليوم التالي تيقظت مبلل الجسد من العرق ، وقد أنشبت فيَّ الحمى أظفارها ، فلم أعِ في أول الأمر ما جرى لي ، فنظرت حولي متعجباً ، فرأيت أني قد تغيرت تغيراً كلياً ، حتى جهلت نفسي ، فتلمست ذراعي من تحت إلى فوق ، وساقيّ من فوق إلى تحت ، وأدهشني أن النافذة تقع في هذا الحائط ولا تقع في الحائط المقابل له . وسمعت وقع حوافر الخيل التي في الفناء تحتي ، كأنه يصلني من فوق . وأصابني غثيان .

والتصق شعري المبلل الرطب على جبهتي ، فاعتدلت في مكاني معتمداً على مرفقي ، ونظرت إلى وسادتي ، فوجدت عليها كذلك خصيلات من الشعر المبلل . وقد انتفخت قدماي في حذائي أثناء الليل ، ولم تكونا تؤلماني ، ولكنني كنت غير قادر على تحريك أصابعهما ، فقد جمدت في مكانها .

وعند الأصيل ، وقد أخذ النور في الانصرام ، نهضت واقفاً وحاولت أن أقوم بحركة في غرفتي . فعالجت أولاً المشي ، ولكن بحذر ، وبخطوات قصيرة ، باذلاً جهدي في المحافظة على توازني ، ولم أستخدم قدمي أكثر من طاقتي ، فلم أتألم كثيراً ولم أبك ، ففي الواقع لم أكن كئيباً ، بل على العكس كنت مسروراً غاية السرور ، ولم يخطر قطعاً ببالي في هذه الساعة أن شيئاً يمكن أن يكون على صورة أخرى .

ثم خرجت .

وكان الجوع هو الشيء الوحيد الذي كان يعذبني بعض الشيء رغم كراهيتي للطعام ، فعدت أحس شهوة لا تعرف الخجل ، نهماً عميقاً مفترساً يتزايد لحظة بعد لحظة ، وأخذ يعض في صدري بلا رحمة ، ويعمل عمله بهدوء غريب .

فكأنما هناك عشرون جرثومة دقيقة صغيرة قد ألقت برؤوسها إلى ناحية وأعملت أسنانها ، ثم حولت رؤوسها إلى ناحية أخرى ، وأعملتها مرة أخرى ، ثم سكنت فترة من الزمن ، ثم أخذت تدأب من جديد في عملها بدون صوت ولا تسرع ، فكانت تترك وراءها في كل مكان خطوطاً مقفرة .

لم أكن مريضاً ولكنني كنت أحس ضعفاً ، وأخذت أتصبب عرقاً . وفكّرت في أن أقصد «السوق الكبيرة» وأستريح قليلاً . ولكن الطريق كان طويلاً وشاقاً . وأخيراً اقتربت منها ، وبلغت ناصية الميدان وشارع السوق . وكان العرق قد سال في عينيَ فظلل نظارتي وأعماني ، فوقفت أجفف نفسي قليلاً ، ولم أدرك أين أنا ، ولا فكرت في ذلك . وكان الضجيج حولي مزعجاً .

وفجأة رنّ في الهواء صدى نداء بارد جاف : «احترس!» سمعت النداء ، سمعته جيداً ، فتراجعت ناحية ثائر العصب ، وخطوت خطوة سريعة بقدر ما تمكنني ساقاي الضعيفتان من الحركة ، فمرت مسرعة عربة خبز هائلة ، ومست سترتي بعجلاتها ، ولو أسرعت قليلاً لنجوت ، وربما كان في طاقتي أن أسرع ، أن أسرع بعض الشيء لو أني أجهدت نفسي قليلاً . ولكن لم يكن سبيل إلى ذلك ، وأحسست أن إحدى قدميَ تؤلمني ، فقد سحق دولاب العربة بعض أصابعها . وشعرت كأن هذه الأصابع قد تقوصرت في الحذاء والتصق بعضها ببعض .

وأوقف السائق الخيل بكل قوته وتلفت حواليه منزعجاً ، وسألني عن الحادث . والآن ، لقد كان من المحتمل أن ينتهي الأمر إلى أسوأ مما كان... ولا خطر هناك... ولا أعتقد شيئاً في قدمي قد تحطم... آه ، أرجوك أن...

وسرت بأقصى سرعتي إلى أحد المقاعد ، فإن هذا الجمع الغفير الذي وقف يحدق إليَّ قد أزعجني . والحق أنها لم تكن صدمة قاتلة . ولو وقعت هذه المصيبة لجرت الأمور على خير ما يرام . وأسوأ ما في الأمر أن حذائى أصيب بتلف ، فقد تمزق مقدمه ، فرفعت قدمي ، فرأيت الدم في فتحة الحذاء . حسناً ، على أية حال لم يحدث ما حدث عن عمد ، فما قصد الرجلِ أن يزيد حالتي التعيسة سوءاً ، فقد بدت عليه آثار الأسى ولو كنت سألته قليلاً من الخبز الذي في العربة لأعطانيه بدون شك ، وبكل سرور . سَرَّى الله عنه جزاءً له!

واشتد بي الجوع ، ولم أدر ماذا أصنع بشهوة الطعام التي لا تعرف الخجل ، وأخذت أتلوى على المقعد يميناً وشمالاً ، وأسندت صدري إلى ركبتي حتى كاد يلتصق بهما . ولما أرخى الليل سدوله جررت نفسي نحو مستودع البلدية ، ويعلم الله كيف بلغته ، وأخذت مكاني عند نهاية شارع « بالو » وانتزعت جيباً من جيوبي ، وأخذت ألوكه آلياً في فمي وأنا عابس الوجه محدق أمامي بدون أن أرى شيئاً ، وسمعت أصوات جمع من الأطفال يلعبون حوالي ، كما كنت أرهف الأذن بالغريزة كلما مر بي أحد المتنزهين . ولم أشعر بشيء غير ذلك .

وفجأة خطر لي أن أنزل إلى أحد دكاكين سوق اللحم فأحصل على قطعة لحم نيِّء .

وعلى ذلك انتصبت واقفاً واجتزت شارع « بالو » إلى الجهة الأخرى

الواقعة فوق سطح السوق ، ثم نزلت إليها ، ولما بلغت دكان اللحم تصنعت أن كلباً لي عاد مجفلاً ، وناديته عند فاتحة السلم ، ثم قصدت أول جزار صادفته وقلت له :

- أرجو أن تتفضل وتعطيني قطعة عظم لكلبي! قطعة واحدة ، لا ضرورة لأن يكون بها شيء من اللحم . مجرد شيء يحمله في فمه .

فحصلت على قطعة عظم صغيرة مليحة مكسوة بقليل من اللحم . فأخفيتها تحت سترُتي ، وشكرت الرجل من صميم قلبي حتى حدَّق إليَّ مندهشاً ، وقال :

- ليس في الأمر ما يستحق الشكر .

فتمتمت : كلا ، لا تقل ذلك ، لأنه صنيع جميل منك .

وعندئذ عدت فصعدت في السلم ، فأخذ قلبي يدق بشدة .

وانسللت في زاروب الحدادين ، وتغلغلت فيه إلى أقصى ما يمكن من التغلغل ، وبقيت واقفاً أمام الباب المهدم الموصل إلى فناء خلفي ، ولم يكن ليُرى فيه أثر لنور ، فاكتنفني ظلام ممتع ، فأخذت أقرض اللحم عن العظمة .

ولم يكن لها طعم في فمي ، وتصاعدت منها رائحة الدم ، وسرعان ما هاجت عليَّ نفسي . ثم عدت وعالجت العظمة من جديد . آه ، لو قدرت المعدة على الاحتفاظ بها لعملت عملها ، إذ لا فائدة منها ترجى إذا أنا لفظتها . ولكن نفسي هاجت عليَّ مرة آخرى ، فثارت ثائرتي ، وعضضت غاضباً على اللحم ، وانتزعت منه قطعة صغيرة وازدردتها في جهد . ولكن ذلك لم يفدني . فمجرد أن أصابت قطع اللحم الصغيرة الدفء الذي في معدتي ، عادت إلى فمي ، فكورت يدي وأخذت أبكي لقلة حيلتي وأقرض

بأسناني كالمخبول . وبكيت حتى بللت قطعة العظم وصارت قذرة من الدموع . بكيت حتى تفطر قلبي ، ثم قنت عدة مرات ، فطفقت ألعن قوات العالم كلها بصوت عالٍ .

سكون شامل . لا أحد حوالي ولا نور ولا أصوات ، وأنا في أشد حالات الاضطراب والجزع ألهث بشدة وأبكي عاضاً على أسناني في كل مرة أضطر فيها إلى لفظ ذرة اللحم فربما كان فيها تسكين شيء من جوعي . ولما لم تغن محاولاتي كلها شيئاً ، ألقيت بالعظمة إلى الباب وصرخت بشدة مهدداً السماوات ، ولفظت اسم الله بصوت حاد ينم على غضب تجمع حتى أصبح كالكَلَبِ وقد عقفت أصابعي كأنها مخالب... «أقولها لك يا بعل السماء المقدس ولا أكتم شيئاً! إنك غير موجود ، ولو كنت موجوداً للعنتك لعناً يجعل سماءك تنز بنيران جهنم! أقولها ولا أكتم شيئاً . لقد قدمت إليك خدماتي ، فرفضتها . لقد طردتني ، وها أنا أدير لك ظهري إلى الأبد لأنك لم تقدر على معرفة الساعة التي يمكنني أن أكون فيها لك . أقولها ولا أكتم شيئاً . إني لأعلم أنني مائت عما قليل ، ومع ذلك فإني أخلع عنك صفة القداسة وأفضح عارك يا بعل السماء والموت بين أسناني . لقد استخدمت القوة في محاربتي وأنت تعلم أنني لا أنحني أبداً أمام الخصومة . أفلم يكن من شأنك أن تعلم هذا الأمر ؟ هل صنعت قلبي وأنت نائم ؟ أقول لك إن كل نقطة دم في عروقي يطيب لها ، طيلة حياتي ، أن تفضح عارك وتشتم نعمتك . فأنا منذ هذه اللحظة أنكرك وأنكر أعمالك وما أنت فيه من زهو وفخفخة . سألعن فكري إذا ما خطرتَ به . سأمزق شفتيَّ إذا هما لفظتا اسمك . وإذا كنت موجوداً ، فإني أقول لك الآن آخر كلمات الحياة والموت لديَّ : «الوداع!» ثم أصمت ، وأدير ظهري ، وأمشي في طريقي...»

سكون .

وانتفضت من الهياج والضعف وأنا لا أزال باقياً في مكاني لا أتحرك ، وأهمس باللعنات وألفاظ السباب ، وألهث بعد البكاء المر ، محطماً مسترخي العضلات بعد نوبة الغضب الهائلة ، آه! إن ما قلته ذاك لم يكن إلا كلاماً فارغاً لا طائل فيه! لم يكن إلا كلاماً فارغاً ذاك الذي حاولت به التعبير عن أعماق مأساتي! وبقيت حيث أنا ، وربما بقيت ساعة من الزمن أشهق وأدمدم ممسكاً جيداً بالباب . ثم سمعت أصوات حديث بين رجلين كانا قد دخلا زاروب الحدادين ، فابتعدت عن الباب ، وجررت نفسي جراً على طول الجدران ، فعدت إلى الشوارع المضيئة . وبينما أنا أسير في شارع يونغباكن بدأ ذهني يتحرك بغتة فيتجه اتجاهاً غريباً . فخطر لي أن المغارات السفلى الحقيرة القائمة في آخر السوق ، تلك الحجر الخاصة بأدوات العمل ، والمقسمة إلى أقسام خشبية عتيقة ، إنما هي لطخة عار في هذه المحلة ، فإنها تفسد الميدان كله ، وتشوه المدينة ، فلتسقط هذه القاذورات! وعملت في رأسي وأنا أمشي حساباً تقديرياً لتكاليف نقل المعهد الجغرافي إلى هناك ، تلك العمارة البديعة التي كانت تناشدني بالحاح في كل مرة مررت بها . إن عملية كهذه ربما لا تقل نفقاتها عن سبعين ألفاً من الريالات ، أو اثنين وسبعين ألفاً! مبلغ طيب! يحق للواحد أيضاً أن يقول « مبلغ طيب » عن نفقات الجيب اليومية . ها! ها! تلك هي البداية ، أليس كذلك ؟ وهززت رأسي الفارغ ، وسلمت بأنه مبلغ طيب للبداية! وكان جسمي لا يزال ينتفض ، وكنت أزحر بشدة من وقت لآخر ، بعد البكاء .

وأحسست كأن لم يبقَ فيّ كثير من آيات الحياة . أحسست كأني في الرمق الأخير . ولكني لم أكترث لشيء في ذلك الوقت ، ولا شغلني هذا

الإحساس لحظة واحدة ، بل على العكس مضيت في طريقي إلى أسفل المدينة ، إلى الأرصفة ، مبتعداً شيئاً فشيئاً عن غرفتي . وكان من السهل عليّ أن أتمدد على الأرض طلباً للموت . وسلبتني الأوصاب شيئاً فشيئاً كل إحساسي ، فكانت قدمي الجريح ترتعد وتدق عليّ حتى كأن الألم يسير إلى بطن ساقي ، ومع ذلك لم أحسّ له ألماً خاصاً ، فلقد كنت تعودت المنغصات .

وبلغت رصيف محطة السكة الحديد ، ولم يكن هناك مسافرون ولا عجيج ، فلا يرى إلا شخص يسير هنا أو هناك ، حمّال أو بحّار يختال ويداه في جيوبه . ولفت نظري أعرج حدجني بنظره عند مروري عليه ، فاستوقفته آلياً ورفعت قبعتي عن رأسي وسألته عما إذا كان يعلم بإقلاع الباخرة «نونا» . ثم إني لم أتمالك ضبط نفسي من أن أفرقع له بأصابعي تحت أنفه قائلاً : يا للدمار ويا للشيطان!

نعم ، الباخرة نونا! الباخرة نونا التي نسيتها تمام النسيان! وعلى الرغم من ذلك كان عقلي الباطن مشغولاً بالتفكير فيها فكنت أحمل هذه الأفكار وأنا لا أدري بها .

ـ نعم ، لقد ارتحلت الباخرة «نونا» .

ـ ألا تستطيع أن تقول لي إلى أين أقلعت ؟

فأعمل الرجل فكره وقد انتصب واقفاً على ساقه الطويلة ، تاركاً ساقه القصيرة معلقة في الهواء تترجّح قليلاً ، ثم قال :

ـ لا . هل تعرف أنت شيئاً عن حمولتها ؟

فأجبته : لا .

ونسيت لساعتي الباخرة «نونا» وسألت الرجل كم تكون المسافة إلى ساحل «هولما» بحساب الأميال الجغرافية القديمة ؟

- إلى ساحل هولما ؟ أظن...

- أو إلى بابلو نغسنايس ؟

- أردت أن أقول إني أظن المسافة إلى سواحل هولما...

فعدت وقاطعته : إستمع إليَّ قبل أن أنسى ، هل تتفضل عليَّ وتعطيني قليلاً من التبغ ؟ أريد شيئاً قليلاً منه!

فأعطانيه ، وشكرت للرجل فضله بحرارة ومضيت . ولم أصنع شيئاً بالتبغ بل وضعته في الحال في جيبي . وظل الرجل يرقبني بعينيه ، فقد أكون أثرت شكوكه لسبب ما ، فكنت أينما سرت أو وقفت تتبعني نظرات الشك من عينيه . وضايقتني ملاحقة الرجل لي ، فعدت إليه أجرّ نفسي جراً ، وتقدمت إليه وقلت له :

- صانع إبر!

فقط هذه العبارة : «صانع إبر» . ولم أزد عليها شيئاً . وأمعنت إليه النظر عند قولي هذا ، وشعرت كأني أحدقَ إليه بكل جسدي لا بعينيَّ وحدهما . ووقفت برهة قصيرة بعد أن قلت له هذه العبارة ، ثم انسللت إلى ميدان محطة سكة الحديد . ولم ينبس الرجل بكلمة ، ولكنه تبعني بأنظاره .

صانع إبر ؟ وفجأة وقفت ساكناً . نعم ، لقد كان عليَّ أن أذكر ذلك لساعتي : فقد قابلت هذا الأعرج في مكان ما... في شارع غرانسن... في صباح مشرق ، عندما رهنت صداري . وبدا لي كأن دهراً قد انقضى منذ ذلك اليوم .

وبينما أنا متكىء على جدار أحد البيوت عند ناصية ميدان شارع المرفأ «هافنغادا» أفكر في الأمر ، انتفضت فجأة وحاولت أن أعود إلى ما كنت عليه ، ولما لم أستطع إلى ذلك سبيلاً عدت فحدقت أمامي بسرعة وبكل قحة ، حيث لم يكن لي مفر من التحديق ، فقد كنت أقف من «الرئيس» أو «المدير» وجهاً لوجه .

وتزايدت جرأتي مقرونة باللامبالاة ، بل إنني خطوت إلى الأمام خطوة لكي أبتعد عن الجدار وألفت إليّ نظر المدير . وما صنعت ما صنعت لأوقظ في نفسه الرحمة عليّ ، لا ، بل لأحقر نفسي وأشهّر بها ، فلقد كان بودي أن أتلوى على الأرض في عرض الشارع وأسأل المدير أن يمشي عليّ وأن يدوس على وجهي بقدميه . ولم أقل له حتى «مساء الخير» .

وربما قد أدرك «المدير» أن بي شيئاً ، فقد تباطأ قليلاً في مشيته وأنا أقول له لأستوقفه :

ـ كنت أحب أن أزورك وآتيك بشيء ، ولكني لم أنته بعد .

فقال مستفهماً : كذا ؟ لم تنته بعد ؟

وفجأة سالت الدموع في مآقيَّ من رقة «المدير» وسعلت لأقوّي نفسي . فنظر إليَّ «المدير» وسألني :

ـ ألديك في المدة الأخيرة ما تتقوت به في انتظار ما قد يأتي ؟

فقلت : لا ، ليس لديَّ شيء . ولم أذق كذلك طعاماً في يومي هذا ، ولكن...

وهو يضع يده في جيبه :

ـ يا لله! يستحيل أن أدعك تتضور جوعاً هكذا يا بني!

وعندئذ تيقظ فيَّ إحساس الخجل ، فتراجعت إلى جدار الدار أترنح ، وأمسكت نفسي جيداً ، ورأيت كيف يبحث «المدير» في كيس نقوده . ولكني لم أقل شيئاً . ثم مد إليَّ يده بورقة مالية بعشرة ريالات بدون أية كلفة . لقد أعطاني بكل بساطة عشرة ريالات وهو يكرر في الوقت نفسه أنه يستحيل أن يدعني أموت جوعاً .

فاعتذرت متمتماً ولم أتناول الورقة في الحال ، فإن في ذلك عاراً عليَّ... ثم إن المبلغ كثير جداً...

وقال وهو ينظر في ساعته : هيا ، أسرع! كنت هنا أنتظر القطار ، وها هو قد أقبل ، إني سامع صوته!

فأخذت النقود وقد شلّني الفرح فلم أستطع أن أتلفظ بكلمة أخرى وحتى ولا بكلمة شكر .

وأخيراً قال «المدير» : لا داعي للخجل ، فإنك تستطيع أن تكتب لنا بهذا المبلغ .

وعلى ذلك انصرف .

ولم يكد يخطو بضع خطوات حتى تذكرت أني لم أشكر له هذه المساعدة ، فحاولت أن ألحق به ، ولكني لم أستطع أن أتقدم كثيراً فقد خانتني ساقاي ، فكنت على الدوام أكاد أنكبّ على وجهي ، وكان البعد باستمرار يزداد بيننا ، فعدلت عن محاولة اللحاق به ، وأردت أن أناديه ، ولكن الشجاعة خانتني ، ولما تشجعت في النهاية وناديته مرة ، ثم مرتين ، كان قد ابتعد عني كثيراً ، وكان صوتي كذلك ضعيفاً جداً .

بقيت واقفاً على الرصيف أنظر إليه وأبكي صامتاً ، وقلت لنفسي :

«شيء مثل هذا لم يحدث لي من قبل... لقد أعطاني عشرة ريالات!» ثم كررت راجعاً ووقفت في المكان نفسه الذي كان واقفاً فيه ، وقلدت حركاته كلها . وضعت الورقة المالية أمام عينيَّ ، وتأملتها من ناحيتيها ، ثم أخذت ألعن وأسب ، ألعن وأسب بأعلى صوتي ، فإن هذا الشيء الذي أمسكه بيدي حق لا ريب فيه ، إنه ورقة مالية من فئة العشرة ريالات .

وبعد برهة ، وربما كانت برهة طويلة لأن السكون كان قد خيم منذ زمن على كل شيء ، وجدتني واقفاً وحيداً أمام المنزل رقم ١١ في شارع تومتغادن ، في المكان نفسه حيث خدعت سائق العربة الذي سبق له أن قادني إلى هناك ذات مرة ، وحيث اجتزت الدار من غير أن يراني أحد .

وما كدت أقف لحظة أستجمع فيها أفكاري وأشعر بالدهشة تستولي عليَّ ، حتى ولجت للمرة الثانية الباب المؤدي إلى «دار الإقامة ونزل السائحين» . وهناك سألتهم الإقامة ، فأعطوني سريراً في الحال .

يوم الثلاثاء .

شمس ساطعة وسكون . يوم صحو بديع . ذاب الثلج ، وفي كل مكان نسيم وحياة ووجوه مستبشرة ، وابتسامات وضحكات والماء يتفجر من النافورات ثم يعود فيسقط في شكل أقواس ذهبية زرقاء ، كساها شعاع الشمس لونه الذهبي ، كما خلعت عليها السماء زرقة من زرقتها .

وحوالي الظهر غادرت مسكني في شارع تومتغادن الذي كنت لا أزال أقيم فيه وأعيش العيش المريح بريالات «المدير» العشرة ، وقصدت المدينة . وقد كنت منشرح الصدر إلى أقصى حد ، فأخذت أتنقل طول العصر في الشوارع العامرة ، وأشاهد الناس . وقبل الساعة السابعة مساء قمت بنزهة قصيرة في ميدان القديس «أولاف» وتطلعت خفية إلى نوافذ

الدار رقم ٢ ، فبعد ساعة من الزمن سأراها! وأخذت أتمشى طول هذه المدة وقد أحسست بقلق خفيف وشهي... فما الذي سيحصل بعد ساعة ؟ وماذا عساي أن أقول لها عند نزولها من السلم ؟ أأقول لها : مساء الخير يا آنسة ؟ أم أكتفي بالابتسام ؟ ثم قررت فيما بيني وبين نفسي أن أكتفي بالابتسام . وبالطبع ، سأنحني أمامها غاية الانحناء .

وأخجلني بعض الخجل حضوري إلى هناك مبكراً ، فانسحبت إلى شارع كارل جوهان أغدو فيه وأروح ، ونصب عينيّ ساعة الجامعة الكبيرة . ولما صارت الساعة الثامنة ، عدت فاجتزت شارع الجامعة . وفي الطريق خطر لي أني قد أصل متأخراً بضع دقائق ، وعلى ذلك وسعت خطاي بقدر ما أستطيع . وكانت قدمي تؤلمني ، وفيما عدا ذلك لم أكن أحس ألماً .

ووقفت عند النافورة لآخذ نَفَسي ، وبقيت واقفاً مدة طويلة أتطلع إلى نوافذ الدار رقم ٢ ، ولكنها لم تأت . لا بأس من الانتظار ، فإني لست على عجل ، وربما عاقها عائق . وبقيت أنتظر! ولكن لعل هذه القصة لم تكن في النهاية إلا مجرد حلم ؟ ألم تكن مقابلتي الأولى لها في تلك الليلة التي كنت فيها صريع الحمى ؟ وابتدأت أفكر في المسألة حائراً ، ولم أعد على ثقة تامة من أمري .

وسمعت من خلفي كلمة «أحم!» .

فأصغيت لهذه الحمحمة ، فسمعت كذلك خطوات خفيفة لينة على مقربة مني ، ولكني لم ألتفت ورائي ، بل بقيت مثبتاً نظراتي في السلم الذي أمامي . وعند ذاك سمعت صوتاً يقول :

ـ مساء الخير .

ونسيت أن أبتسم أو أن أسارع إلى رفع قبعتي ، وأخذني العجب أن أراها آتية من تلك الناحية .

وسألتني وهي تلهث قليلاً بعد إسراعها في السير :

ـ هل انتظرت طويلاً ؟

فأجبتها : لا ، أبداً . لقد وصلت منذ لحظة من الزمن . وعدا ذلك فأي ضرر في ذلك لو أني انتظرت طويلاً ؟ وقد ظننت أنك قد تأتين من ناحية أخرى .

ـ لقد رافقت والدتي إلى بيت عائلة صديقة ، فهي الليلة ليست في الدار .

فقلت : آه! كذا!

وابتدأنا عندئذ نمشي ، وقد وقف عند ناصية الشارع شرطي ينظر إلينا .

ثم توقفت وقالت : ولكن ، إلى أين نحن سائرون ؟

ـ إلى حيث تشائين . إلى حيث تشائين .

ـ أف! نعم ، إنه لمما يضايق أن يبت الإنسان وحده في مثل ذلك .

صمت .

ـ نوافذ بيتك ليست مضاءة ، على ما أرى .

فأجابت في تحمس : نعم ، آه ، نعم! إن الخادمة أيضاً قد استأذنت في الخروج ، فأنا وحدي في الدار .

ووقفنا كلانا ونظرنا إلى نوافذ الدار رقم ٢ كأن واحداً منا لم يرها من قبل . ثم قلت :

ـ ألا نستطيع إذن أن نصعد إلى دارك ؟ وأعدك بأن آخذ مجلسي طيلة الوقت على مقربة من الباب إذا أحببت .

ولكنني اضطربت عندئذ من شدة التأثر ، وندمت من أعماق قلبي لجرأتي ، فكيف تكون الحال إذا هي غضبت وانصرفت عني ، ولم يسمح الدهر لي برؤيتها بعد ذلك ؟ آه ، ما أحقر البذلة التي ألبسها! وانتظرت جوابها في يأس . فقالت :

ـ لست في حاجة لأن تجلس على مقربة من الباب .

وصعدنا إلى دارها .

وكان الظلام مخيماً في المدخل ، فأخذت يدي وقادتني وهي تقول إنه لا داعي أبداً لأن أصمت كل هذا الصمت ، وإن في استطاعتي أن أتكلم! وولجنا الباب . وفيما هي تشعل الضوء ـ ولم تشعل مصباحاً بل شمعة ـ فيما هي تشعل تلك الشمعة ، قالت لي وهي تتضاحك :

ـ لا يحق لك الآن أن تنظر إليَّ! أوف! إني أستحيي! وأحب أن لا أعيد ذلك أبداً!

ـ ما هو هذا الذي لا تحبين أن تعيديه ؟

ـ أبداً... لا ، لا قدر الله... لا أريد أن أقبّلك مرة أخرى!

فقلت ، وكلانا يضحك : «أبداً ؟» وبسطت لها ذراعي ، فانزلقت ووثبت إلى الناحية الأخرى من المائدة . ووقفنا لحظة ينظر أحدنا إلى الآخر ، وقد قامت الشمعة بيننا .

وبدأت تحلّ خمارها ، ورفعت قبعتها وهي تثبت فيّ عينيها الضاحكتين تراقب حركاتي كي لا أتمكن من أن أمسكها . وحاولت اللحاق بها من جديد ، فعثرت بالسجادة وسقطت ، ولم تعد قدمي المجروحة تقوى على حملي .

ونهضت من عثرتي وأنا في شدة الحيرة ، فقالت :

ـ يا لله! ما أشد احمرارك! أأنت قليل الحيطة إلى هذا الحد ؟

فأجبتها : نعم ، قليل الحيطة .

ثم تابعت مطاردتها .

ـ أظن أنك تعرج ؟

ـ نعم ، إني أعرج قليلاً ، قليلاً جداً .

ـ لقد كانت إصبعك مجروحة في آخر مرة التقينا فيها . والآن قدمك! شيء مؤلم هذا الأذى يحل دوماً بك .

ـ آه ، نعم ، فمنذ بضعة أيام سحقت إحدى العربات قدمي .

ـ سحقتك العربة ؟ أوَ كنت سكران أيضاً ؟ لا ، ليكن الله معي أيها الفتى . أية حياة هي هذه التي تحياها!

وحذرتني بإصبعها واستعادت رصانتها . ثم قالت :

ـ فلنجلس . ولكن ليس عند الباب . أنت محافظ أكثر مما يلزم : أنا هنا ، وأنت هناك... أف ، إن الحياة مع المحافظين شيء ممل... فعلى الإنسان عندما يكون مع هؤلاء أن يفعل ويقول كل شيء وحده... دون أن يساعدوه بشيء ؛ لقد كان في مكنتك الآن ، مثلاً ، أن تضع يدك على ظهر الكرسي الذي أجلس عليه . وكان في استطاعتك أن تفكر في هذا الأمر وحدك ، أليس

صحيحاً ما أقوله ؟ مالي أراك تحرك عينيك كأنك لا تصدق أن ما أقوله صحيح ؟ بلى ، إنه صحيح ، وقد لاحظت ذلك مراراً... وها أنت تعود إلى المحافظة... ولكن إياك أن تحاول إيهامي بأنك متواضع دائماً هكذا ، فآه منك عندما تترك لنفسك حبلها! لقد كنت جريئاً جداً يوم كنت سكران وطاردتني حتى البيت وأنت تعذبني بملاحظاتك الخبيثة : «أضعت كتابك أيتها الآنسة . لا شك أنك أضعت كتابك يا آنسة!» ها! ها! أف لك! حقاً إنَّ ذلك كان قبيحاً منك!

مكثت مكاني أنظر إليها مأخوذاً ، ودق قلبي دقات مسموعة ، وجرى دمي حاراً في عروقي . ألا ما أجمله من إحساس أن تجد نفسك في منزل ، وأن تسمع دقات الساعة ، وأن تتحدث إلى فتاة تفيض حياة وحماسة عوضاً عن أن تتحدث إلى نفسك .

ـ لماذا لا تقول شيئاً ؟

فقلت لها :

ـ ما ألطفك! إنني مأخوذ بك الآن! مأخوذ بكل كياني ، ولا سبيل لديَّ للمقاومة . إنك أغرب مخلوق و... إن عينيك ترسلان من وقت لآخر نوراً لم أرَ له مثيلاً في حياتي... يخيل إليَّ أنهما زهرتان ، ها ؟... لا ، لا ، إنهما لا تشبهان الزهر ، ولكن... أنا مغرم بك غراماً جنونياً ومع ذلك لا يمدني هذا الحب بتصور الشيء الذي يشبه عينيك! ما اسمك ؟ لا بد لك أن تقولي لي ما اسمك...

ـ لا ، ما اسمك أنت ؟ يا لله! لقد كنت على وشك النسيان! لقد فكرت البارحة طول اليوم في أن أطرح عليك هذا السؤال ، ولا أعني بذلك اليوم كله ، ولكن...

ـ أتعرفين الاسم الذي وضعته لك ؟ أنا أدعوك يلاياليي ، أوَ يعجبك هذا الاسم ؟ إنه لفظ متحرك...

ـ يلايالي ؟

ـ نعم .

ـ هل هذه لغة أجنبية ؟

ـ لا . في الواقع ، لا .

ـ نعم ، إن وقعه على الأسماع ليس رديئاً .

وبعد مناقشات طويلة ذكر أحدنا اسمه للآخر . وأخذت مجلسها بجواري على الأريكة ، وأبعدت الكرسي بقدمها . ثم عدنا نتحدث معاً . قالت :

ـ أنت حالق هذا المساء . وهيئتك على العموم أحسن قليلاً منها في تلك المرة . ولكن إياك أن تخدع نفسك ، فالفرق بين المرتين تافه... لا ، الحق أنك كنت في المرة الأخيرة أشعث أغبر . وعدا ذلك فقد كان على إصبعك رباط قذر . وقد ألححت عليَّ وأنت على هذه الحال أن نذهب إلى أي محل لتشرب معي كأساً من النبيذ ، فشكراً لك .

ـ وعليه فإنك لم تقبلي أن تذهبي معي بسبب مظهري الحقير ؟

فقالت وهي تطرق برأسها إلى الأرض : لا . والله يشهد أنني لم أرفض لهذا السبب ، بل إنني لم أفكر في ذلك لحظة واحدة .

فقلت : استمعي لي ، إنك بدون شك تتوهمين أني أستطيع أن أكسو نفسي وأعيش كما أشتهي . أليس كذلك ؟ ولكن هذا ليس في مقدوري ، فأنا في فقر مدقع .

فنظرت إليَّ ، وقالت :

ـ أنت فقير ؟

ـ نعم ، أنا فقير .

سكون .

ثم هزت رأسها بعنف وقالت :

ـ يا لله! وأنا كذلك!

فأسكرني كل لفظ من ألفاظها ، وأوغلت كلماتها في قلبي كقطرات الخمر ، على الرغم من أنها كانت واحدة من بنات مدينة كريستيانا العاديات ، لها جرأتهن وميلهن إلى الثرثرة . وكانت حركة رأسها عندما تميله جانباً لتصغي إليَّ ، تنشيني . وأحسست أنفاسها تنفث في وجهي . وقلت :

ـ هل تعرفين أني... ولكن أرجو أن لا تغضبي... لما رقدت في سريري مساء أمس ، هيأت لك ذراعي هكذا... كما لو كنت متمددة إلى جانبي ، وعلى ذلك أخذني النوم .

ـ أحقاً فعلت ذلك ؟ إنه لجميل!

صمت .

ـ ولكنك لن تستطيع أن تفعل هذا إلا عن بُعد ، لأنه في الواقع...

ـ أوَ لا تعتقدين أني أقدر عليه... بصورة أخرى ؟

ـ لا ، لا أظن ذلك .

فقلت لها وقد طوّقت خصرها بذراعي :

ـ بلى! يحق لك أن تتوقعي مني كل ما هو ممكن .

فقالت : أصحيح هذا ؟

ولم تزد حرفاً واحداً .

فأغضبني إحسانها الظن بي ، وكدت أجد فيه إهانة لي ، فنفخت نفسي وجمعت كل شجاعتي وتناولت يدها . ولكنها سحبتها من يدي بلطف وتباعدت عني قليلاً . فخارت عزيمتي من جديد ، وخجلت ، وشخصت بنظري إلى النافذة . والحق أني على حالتي التي كنت عليها عند ذاك لم أكن إلا صعلوكاً يرثى له ، فكيف يحق لي أن أخدع نفسي! ولقد كانت الأمور تكون غير ذلك لو أنني التقيت بها يوم كنت أعد إنساناً بين الناس ، والدهر يبسم لي ، وأنا لا أزال في الأقل أملك ما يقوم بحاجاتي . وأحسست الهزيمة . فقالت :

ـ أنظر الآن! أنظر... في استطاعة الواحدة بتعبيسة بسيطة أن تقيمك وتقعدك ، فإنك لتضطرب إذا ابتعد الإنسان عنك قليلاً...

وضحكت بخبث ودهاء مغمضة العينين ، كما لو كانت لا تطيق احتمال وقع النظر عليها . فاندفعت قائلاً :

ـ لا ، إن هذا كثير! وسوف ترين!

وطوقت كتفيها بذراعيّ في عنف ، فقد كنت أحسست شيئاً من الإهانة ، أفقدت هذه الفتاة عقلها ؟ أوَ تعدّني غراً ساذجاً ؟ ها ؟ ليس لأحد أن يقول عني إني متأخر في هذه الناحية! أوَ تكون هذه المخلوقة شيطانة ؟ إذا كان الأمر يدعوني لأن أباشر عملاً... فإنني أصلح لشيء... في الأقل!

وجلست في مكانها هادئة وهي لا تزال مغمضة العينين ، ولم ينبس أحدنا ببنت شفة . فجذبتها إليَّ بقسوة ، وضممت جسمها إلى صدري ، وهي لا تقول شيئاً . وسمعت قلبينا يدقان ، قلبها وقلبي ، فكان لهما دقات جوفاء .

وقبّلتها .

ولم يعد لي سلطان على نفسي ، فأخذت أحكي لها سخافات كانت تضحك منها ، وأهمس كلمات عذبة في فمها ، وأداعب خديها ، وأقبلها مرات كثيرة . وفككت واحداً أو اثنين من أزرار ثوبها وشاهدت نهديها ، نهديها الأبيضين المدورين اللذين يشفّ عنهما القميص فيبدوان كآيتين عجيبتين من آيات العذوبة والجمال .

وقلت لها وأنا أحاول فك الأزرار الباقية لأوسع الفرجة :

ـ هل تسمحين لي أن أرى ؟

ولكن تأثري كان من الشدة بحيث لم أعد أقوى على حل الأزرار السفلى ، لشدة ضيق ثوبها في نهايته .

ـ هل تسمحين لي أن أرى قليلاً... قليلاً جداً...

فوضعت ذراعيها حول رقبتي في رقة وبطء ، ونفثت نفسها الحار في وجهي من طاقتي أنفها المرتعشتين الضاربتين إلى الحمرة ، وحلت بيدها الأخرى أزرارها واحداً بعد الآخر وهي تضحك ضحكات الحيرة المقتضبة وتتطلع إليَّ مرة بعد أخرى لتعرف إذا كنت قد لاحظت جزعها . وحلت الأشرطة ، وفكت «الكورسيه» وهي مأخوذة مرتبكة . وتلمست بيدي الخشنتين هذه الأزرار وهذه الأشرطة...

ولكي تصرف نظري عما يجري ، داعبت كتفي بيدها اليسرى وقالت :

ـ ما أوفر الشعر الذي يتساقط منك!

فأجبتها وأنا أحاول القبض على نهديها بفمي : نعم .

وكانت في تلك اللحظة متمددة وثيابها مفتوحة ، ولكنها عادت فجأة إلى صوابها كأنما كانت قد ذهبت معي بعيداً ، فغطت نفسها ثانية واعتدلت بعض الشيء . ولكي تخفي ارتباكها بسبب ثوبها المفتوح ، ابتدأت من جديد تتحدث بشأن وفرة الشعر المتساقط على كتفي .

ـ كيف يسقط شعرك هكذا ؟

ـ لا أدري!

ـ آه ، أنت تفرط بلا شك في الشراب ، وربما... أف لك ، لا ينطق لساني بما في خاطري!... يحق لك أن تخجل! لا ، لم أكن لأظنك هكذا... أتفقد شعرك وأنت ما تزال فتى ؟ والآن أرجوك أن تتفضل فتحدثني كيف تعيش ، فأنا موقنة أنها حياة فظة! ولكني أريد الحقيقة الخالصة ، أسمعت ؟ لا تهرب! وإذا أنت أخفيت عني شيئاً فإني أقرأه في وجهك . وعليه ، حدثني الآن .

آه ، ما هذا السأم الذي غزاني! ولكم كنت أؤثر أن أبقى هناك في هدوء أنظر إليها عوضاً عن أن أتكلف الحديث وأعيا بكل هذه المحاولات . لقد كنت مخلوقاً لا يصلح لشيء . كنت قد أصبحت خرقة بالية .

وعادت تقول :

ـ هيا ابدإِ الحديث .

واغتنمت الفرصة ورويت كل شيء عن حياتي ، ولم أروِ إلا الحقيقة الخالصة . ولم أدفع هذه اللوحة ، لوحة حياتي ، حتى السواد المطبق ، لأنه لم يكن في نيتي أن أثير في قلبها الشفقة عليَ . وقلت في جملة ما قلته إنني سرقت ذات مساء خمسة ريالات .

وقد جلست تستمع إليَ بملء مسمعيها وبفم مفتوح ، ممتقعة اللون ، وجلة ، وقد بدت في عينيها البراقتين حيرة قاتلة . وأردت أن أصلح الموقف وأمحو الأثر السيء الذي أثرته بحديثي ، وعلى ذلك اعتدلت في جلستي وقلت :

ـ أما الآن فقد انتهى كل ذلك! ولن يكون شيء من هذا أبداً ، فأنا الآن قد نجوت...

ومع ذلك فقد ضعفت عزيمتها ، فقالت بعد صمت : «يا لله!» وكررت «يا لله» مرات كان يعقب كل مرة منها فترة صمت قصيرة .

فأخذت أهزل ، ودغدغتها ، وجذبتها إلى صدري ، وكانت قد شدت أزرارها من جديد فأغضبني هذا بعض الغضب ، لا بل جرح عواطفي ، فما الذي يضطرها لتزرير ثوبها ثانية ؟ ألم تعد لي الآن كرامة في عينيها لمجرد أني لا سلطانَ لي على تساقط شعري ؟ أوَ كان يحسن لديها إذا أنا جعلت من نفسي رجلاً منغمساً في اللذات ؟... كفى هزلاً! الآن حق الهجوم! وإذا كان الهجوم قد حق... فإني رجلها!

وطرحتها ، طرحتها ببساطة فوق الأريكة . فدافعت ، ولكن دفاعاً ضعيفاً ، ونظرت إليَ متعجبة ، وقالت :

ـ لا... ماذا تريدُ ؟

ـ ما أريد ؟

ـ لا ...لا ، ولكن... ؟

ـ بلى... بلى...

فصرخت : «لا ، أتسمع ؟» ثم زادت على ذلك هذه العبارة الجارحة : «وما يدريني ، لعلك مخبول!»

فتوقفت مرغماً وقلت لها : لا أظنك تجدين!

ـ أي والله! إن شكلك يبدو غريباً! وفي ضحى ذلك اليوم الذي لاحقتني فيه... ألم تكن كذلك سكران ؟

ـ لا ، وفي ذلك اليوم لم أكن أيضاً جائعاً ، إذ كنت قد فرغت ساعتئذ من الأكل .

ـ إنه لأسوأ بكثير .

ـ أوَ كان أحب إليك أن أكون سكران ؟

ـ نعم... أف! إني أخافك! ولكن أرجوك بالله ألاّ تتركني...

ففكرت في الأمر . لا ، لا أستطيع أن أتركها ، وإلا خسرت كل شيء . لا هزل في ساعات الليل المتأخرة ، وعلى الأرائك! إنها لمهزلة أن يحتج الواحد بأمثال هذه الإعتذارات السخيفة في مثل هذه اللحظة! لعلي أجهل أن كل ذلك ليس إلا من باب الحياء ، وإلا فلا بد أن أكون غراً! وعليه فلتهدني ، وكفى ثرثرة .

فدافعت عن نفسها دفاعاً شديداً ، أشد من أن يكون دفاعاً ناتجاً عن الخجل . وتوصلت إلى أن أقلب الشمعة وكأنني فعلت ذلك سهواً ،

فانطفأت . وظلت تقاوم مقاومة يائسة ، حتى سمعت منها أنة ضعيفة .

ـ لا ، ليس هذا ، ليس هذا! إذا شئت ، سمحت لك أن تقبلني في صدري ، فهيا ، وكن لطيفاً!

فتوقفت في الحال ، فقد كان في كلماتها نغمة من الخوف والأسى تغلغلت إلى أعماقي . لقد فكرت أن تعيضني عما أحاول بسماحها لي أن أقبلها في صدرها ، فما أجمل ذلك! ما أجمله وما أبسطه! ووددت لو ركعت أمامها على ركبتي .

وقلت وأنا في شدة الحيرة :

ـ ولكن يا عزيزتي... أنا لا أفهم... الحق أني لا أستطيع أن أفهم... أي لعبة تلعبين...

ونهضت وأشعلت الشمعة ثانية بيدين ترتعدان ، وبقيت أنا جالساً على الأريكة ولم آت بحركة . ترى ماذا عساه يحدث الآن ؟ لقد كنت في أعماقي قلقاً مسحوقاً .

ونظرت إلى الساعة التي على الحائط فارتعدت وقالت :

ـ أف! حان موعد قدوم الخادمة!

وكان هذا فاتحة حديثها .

وفهمت مقصدها فنهضت . وأشارت إلى معطفها وكأنها تريد أن تلبسه ، غير أنها تركته حيث هو واتجهت إلى الموقد . وكانت ممتقعة اللون وقد أخذ قلقها يتزايد . ولكي أتظاهر بأنها لا تشير لي إلى الباب ، قلت :

ـ أكان أبوك من رجال الحربية ؟

وفي الوقت ذاته تهيأت للرحيل .

ـ نعم ، إنه كان من رجال الحربية . وكيف عرفت ذلك ؟

ـ لا علم لي بهذا الأمر ، إنما خطر لي ذلك .

ـ ما أغربه!

ـ آه ، نعم . في بعض الحالات أتوصل إلى معرفة أمر من الأمور عن طريق مشاعري الداخلية . ها! ها! هذا من مستلزمات الخبل الذي...

فنظرت إليَّ نظرة سريعة ولم تقل شيئاً . ولاحظت أن وجودي يعذبها ، وأردت أن أضع حداً لهذا فذهبت إلى الباب . أفلا تريد أن تقبلني الآن ؟ أو تمد لي يدها ؟ ووقفت أنتظر .

فقالت وهي لا تزال واقفة عند الموقد :

ـ تريد إذن الذهاب ؟

فلم أحر جواباً ، ووقفت مكاني ذليلاً مشرد الفكر أنظر إليها ولا أنطق بكلمة . آه! لقد أفسدت كل شيء ، ويظهر أن تأهبي للرحيل لا يعنيها . لقد فقدتها فجأة وإلى الأبد . وأخذت أبحث عن شيء أقوله لها عند الوداع ، عن كلمة قاسية من الأعماق قد تصيبها أو تؤثر فيها . وعلى العكس تماماً من التصميم القاطع على أن أظهر بمظهر البرودة والكبرياء ، أخذت أتحدث عن أمور تافهة مضطرباً ، قلق الخاطر ، ذليل النفس . ولم تأتِ قط تلك الكلمة القاسية التي كنت أبحث عنها ، وتصرفت تصرف العاجز الأرعن ، ولم أقل إلا هذياناً لا طائل فيه .

وتساءلت : ترى : لأي سبب لم تتمكن أن تقول لي في وضوح وبيان أنها تحب أن أنصرف ؟ نعم ، لماذا لم تفعل ؟ لا فائدة هناك من الخجل والارتباك . وبدلاً من أن تذكّرني بقرب عودة الخادمة إلى الدار ، أما كان في

استطاعتها أن تقول لي بكل بساطة : «الآن يلزمك أن ترحل ، لأني أريد أن أذهب إلى أمي فأعود بها ولا أريد مرافقتك في الطريق!» ألم يكن ذلك هو تفكيرها ؟ بلى ، لقد فكرت فيه ولم يغب عني شيء منه ، ولقد كان القليل مما فعلته كافياً لأن يوضح لي قصدها ، فالإشارة التي صنعتها ودلت بها على رغبتها في ارتداء المعطف ، ثم على رغبتها في تركه حيث هو ، أفهمتني قصدها مرة واحدة ، فأنا ، كما سبق أن قلت لها ، رجل ذو مشاعر داخلية صائبة . والواقع أنه لم يكن في ذلك شيء من الخبل...

وصرخت وهي لا تزال واقفة في هدوء ولم تقترب مني :

ـ ولكن يا الله في سماواته! أرجو أن تغفر لي هذه العبارة! لقد أفلتت من فمي!

فلم ألن لها ، واستأنفت الكلام ، وأكثرت القول وأنا شاعر شعوراً مؤلماً بأني أضايقها ، وأن كلمة واحدة من كلماتي لا تصيب الغرض . واستأنفت الحديث على الرغم من ذلك فقلت : في الواقع يمكن الإنسان أن يكون ذا نفس حساسة دون أن يكون مخبولاً! فهناك طبائع تتغذى بالسفاسف ، وتقتلها كلمة قاسية . ثم جعلتها تفهم أني من ذوي الطبائع هذه ، والواقع أن فاقتي شحذت فيَّ مواهب خاصة كثيراً ما توقعني في مكروهات محض . نعم ، أستطيع أن أؤكد لك بكل أسف أنها محض مكروهات . ولكنها من جهة أخرى لها ميزاتها ، فقد ساعدتني في مواقف خاصة . إن الفقير الذكي أدق ملاحظة من الغني الذكي ، فالفقير يرى حواليه في كل خطوة يخطوها ، فهو يرهف الأذن مرتاباً لكل كلمة يسمعها من الناس الذين يلقاهم ، وكل خطوة يخطوها تلقي على أفكاره ومشاعره واجباً وعملاً . فهو حاد السمع ، شديد الحس ، رجل تجارب ، ذو نفس تتحرق...

وتكلمت طويلاً عن تحرق نفسي . ولكن كلما أطلت القول ظهر عليها القلق . وفي النهاية كررت في حالة يأس وهي تقلب يديها : «يا لله!» وبدت عليَّ مظاهر الراحة لتعذيبها ، ولم أكن أرغب فيه ، ولكني فعلته على الرغم من ذلك . وأخيراً اعتقدت أن ما يلزمني أن أقوله لها قد قلته بخطوطه الكبرى ، فأثرت فيَّ نظراتها اليائسة ، فصرخت :

ـ والآن أذهب! أذهب الآن! أوَ لا ترين يدي على مقبض الباب ؟ أستودعك الله! أنا أقول لك أستودعك الله! لقد كان في مكنتك مع ذلك أن تتقدمي إليَّ بضع خطوات عندما تأهبت للرحيل وقلت لك مرتين . «أستودعك الله» . لن أرجو منك مرة أخرى أن نلتقي ، فإن في ذلك تعذيباً لك . ولكن قولي لي : لماذا لم تتركيني في سلام ؟ أي شيء صنعته لك ؟ لم أقف في طريقك ، أليس كذلك ؟ ولأي سبب تصدين عني فجأة كأنك لم تعودي تعرفيني ؟ لقد انتزعت الساعة من نفسي آخر غواياتها ، وجرّدتِني حتى الأعماق ، ورددتني أتعس من ذي قبل . يا لله العظيم ، ولكني لست بمخبول . ولو فكرت لعلمت جيداً أنه لا ينقصني شيء . وعليه ، تعالَيْ إليَّ ومدي لي يدك! أو دعيني آتي إليك! أتريدين ؟ إني لا أريد بك سوءاً ، إنما أريد أن أركع لحظة ، هناك أمامك على الأرض ، أريد أن أركع لحظة ، لحظة واحدة ، أتسمحين ؟ لا ، لا ، لن أفعل ذلك ، أراك تخافينني ، لن أفعل ذلك ، أتسمعينني ؟ لن أفعل ذلك! يا إلهي ، لماذا تخافين كل هذا الخوف ؟ أنا واقف مكاني هادئاً ، لا أحرك ساكناً ، إنما كنت أود أن أركع لحظة واحدة على البساط ، هناك على الدائرة الحمراء عند قدميك! ولكنك تخافين ، فأنا رأيت في عينيك أنك قد خفت ، ولذلك بقيت مكاني ولم أخط إليك خطوة واحدة وأنا أسألك هذا الرجاء ، أليس كذلك ؟ ووقفت مكاني حيث أقف الآن وأنا أريك المكان الذي كنت أود أن أركع فيه . هناك على الوردة الحمراء

القائمة في البساط ، ولا أشير إليها بإصبعي ، لا ، لا أشير إليها... سأدع ذلك حتى لا أخيفك ، بل أشير إليها برأسي فقط وأنظر إليها بعيني ، هكذا... وإنك تعلمين جيداً أية وردة أعني ، ولكنك لا تريدين أن تسمحي لي بالركوع هناك . إنك تخافينني ولا تتجاسرين على الاقتراب مني ، وأنا لا أصدق أن نفسك اطمأنت لدعوتك إياي بالمخبول . أليس كذلك ؟ ألم تعودي تعتقدين ذلك ؟ حدث ذات مرة في الصيف - هذا منذ زمن بعيد - أن جننت ، فقد كنت أشتغل فوق طاقتي ، فكنت أنسى أن أذهب في الأوقات المناسبة لتناول غدائي عندما يكون لديَّ كثير من الأعمال التي تستلزم التفكير . وقد حدث هذا يوماً بعد يوم ، وكان عليَّ أن أذكر أوقات الطعام ، ولكني كنت أعود فأنسى ، وأقسم بالله في سمائه أن هذا حق لا ريب فيه! وليمتني الله في مكاني إن أنا كذبت! فأنت ترين كيف ظلمتني ، ولم يحدث لي ما حدث نتيجة فاقة ، فقد كان لي حساب كبير في انجيبرت وغرافيسن ، وكثيراً ما كنت أحمل في جيبي نقوداً كثيرة ، ولم أكن مع ذلك لأشتري شيئاً للغذاء لأني كنت أنسى ، أتسمعين لي ؟ أنت لا تقولين شيئاً ولا تجيبين ، ولا تبتعدين عن الموقد ، بل تقفين وتنتظرين رحيلي...

فأسرعت إليَّ بحماسة ومدّت لي يدها ، فنظرت إليها مستريباً . ترى ، هل فعلت ما فعلت عن طيب خاطر ؟ أو أنها فعلته لمجرد التخلص مني ؟ وطوّقت عنقي بذراعها والدمع يترقرق في عينيها . ووقفت مكاني أنظر إليها ، فقدمت لي فمها ، فلم أستطع تصديقها ، إنها تضحية منها ولا ريب... مجرد وسيلة لوضع حد لهذا الأمر .

فقالت شيئاً سمعته كأنه : «أحبك على الرغم من كل ذلك!» قالته همساً وفي غير وضوح ، وربما لم أسمعها جيداً . ومن الجائز أنها لم تقل

هذه الكلمات بعينها ، ولكنها ألقت بنفسها بشدة على صدري وطوّقت رقبتي بذراعها مدة قصيرة ، وانتصبت قليلاً على أصابع قدميها حتى تتمكن من بلوغي ، وربما بقيت كذلك واقفة دقيقة كاملة .

فخفت أن تكون قد اضطرت نفسها إلى إظهار مثل هذه العواطف الرقيقة ، فلم أقل لها أكثر من العبارة الآتية :

ـ ما أجملك الآن!

ولم أزد على ذلك حرفاً واحداً . ورجعت خطوات إلى الوراء ، وبلغت الباب ، وخرجت متقهقراً . وبقيت هي في الداخل .

الفصل الرابع

أقبل الشتاء ، وكان فصلاً قاسياً مشبعاً بالرطوبة ، ويكاد يكون عديم الثلج . وخيّم ظلام قاتم يملأه الضباب مدة أسبوع كامل لم تهب فيه ريح . وبقيت مصابيح الشوارع مشعلة طوال النهار ، وكانت الناس على الرغم من ذلك تتصادم بالشوارع وجهاً لوجه في الضباب القاتم . وكان للأصوات جميعاً من رنّات أجراس الكنائس ، وصلصلة خيل العربات ، وضوضاء الناس ، ووقع حوافر الحيوانات على بلاط الشوارع ، كان لها أصوات مبهمة تختنق في الهواء المثقل . وانصرم أسبوع بعد آخر والجو على حاله .

وكنت لا أزال مقيماً في «فاتر لاند» .

وازداد تقيدي يوماً بعد يوم بهذا النزل ، «دار إقامة المسافرين» ، الذي سمح لي بالإقامة فيه بالرغم من أنني لا أملك قرشاً إذ أن نقودي كانت قد نفدت منذ زمن طويل ، ومع ذلك بقيت أروح من ذلك المكان وأعود إليه كما لو كان لي حق في ذلك ، وكما لو كنت أحد أصحاب النزل ، ولم تكن صاحبة الدار قد قالت لي شيئاً بعد ، ولكن عدم مقدرتي على الدفع كانت تؤلمني على الرغم من ذلك . وانسلخت ثلاثة أسابيع على هذه الحال .

وكنت قد عدت إلى الكتابة منذ عدة أيام ، ولكنني لم أوفق لكتابة شيء يرضيني ، فإن الحظ لم يواتني بالرغم من جهدي المستمر ومحاولاتي الدائمة . وقد حاولت معالجة شتى المواضيع فلم أوفق في أي منها ، وعبثاً كانت محاولاتي .

وكنت أقوم بهذه المحاولات في حجرة من الطبقة الثانية هي أفضل غرف المستأجرين . وقد لزمتها لا يضايقني فيها أحد منذ المساء الأول الذي كنت أملك فيه نقوداً وأتمكن من دفع الحساب .

وعللت النفس طول الوقت بإنجاز مقال بالنهاية في هذا الموضوع أو ذاك لأدفع كراء الغرفة وما عليَّ من ديون أخرى ، ولذلك أجهدت نفسي في الكتابة ، وابتدأت بصفة خاصة في كتابة شيء كنت أتوقع منه الكثير ، وكان مقالاً رمزياً في وصف نار مشتعلة في إحدى المكتبات . فكرة عميقة كنت أشتغل فيها بكل ما أوتيت من جد ، لأقدمها «للمدير» كدفعة من ديني ، إذ كان لزاماً أن يعلم «المدير» أنه قد ساعد في هذه المرة رجلاً موهوباً . ولم أشك في أنه سيعلمه ، وما علينا إلا أن ننتظر حتى تواتيني الفكرة ، ولِمَ لا تواتيني الفكرة ؟ ولِمَ لا تواتيني في أقرب وقت ؟ لم يعد ينقصني شيء ، فإني أحصل كل يوم من صاحبة النزل على قليل من الطعام في الصباح والمساء : على قطعتين من الخبز المطلي بالزبد . وقد زالت عصبيتي أو كادت ، ولم أعد في حاجة لعصب يدي عند الكتابة ، كما كان في استطاعتي أن أطل على الشارع من نوافذ الدور الثاني بدون أن أصاب بدوار . لقد تحسنت الأمور في كل النواحي ، ولذا تعجبت من أني لم أنته بعد من تحضير هذا المقال الوصفي ، ولم أدرك كيف يتّفق لي هذا .

وأخيراً كان لا بد من أن يأتي اليوم الذي أدرك فيه مقدار ما وصلت إليه

من الضعف ، وكيف يعمل رأسي ببطء واضطراب . وكان ذلك يوم جاءت إليّ صاحبة الدار بالحساب وسألتني أن أراجعه لها ، إذ أنه لا بد أن يكون به خطأ في الجمع ، كما قالت ، وهذا لا يتفق مع دفاترها ، وليس في استطاعتها استخراج الغلطة .

فأخذت مجلسي وأخذت أحسب ، وقد جلست صاحبة الدار قبالتي تنظر إليّ . فحسبت العشرين رقماً أولَ من أسفل إلى أعلى ، فوجدت المبلغ مضبوطاً . ثم حسبتها من أعلى إلى أسفل ، فوصلت للنتيجة عينها . فنظرت للمرأة ، وكانت تجلس أمامي وجهاً لوجه تنتظر النتيجة . فلاحظت في الحال أنها حامل ، وعلى الرغم من ذلك لم أوجه إليها نظرة فاحصة .

وقلت : المبلغ مضبوط .

فقالت : لا ، إفحص كل رقم على حدة ، فإن المبلغ لا يمكن أن يكون كثيراً بهذا المقدار . إنني متأكدة من ذلك .

فراجعت كل عدد :

٢ خبز	٢٥
١ زجاجة مصباح	١٨
١ صابونة	٢٠
١ زبد	٣٢

ولم تكن تلك الأرقام في حاجة إلى رأس مفكر لحسابها ، فهي فاتورة دكاني ليس فيها شيء من التعقيد . وحاولت مخلصاً أن أجد الغلطة التي قالت عنها المرأة ، ولكني لم أجدها . وبعد صراع طويل مع هذه الأرقام دام بضع دقائق ، شعرت بأن كل شيء أخذ يرقص في رأسي ، ولم أعد أستطيع

التفريق بين حساب الدائن والمدين ، واختلط الأمر عليَّ . وأخيراً توقفت بغتة أمام المادة : التالية $\frac{٥}{١٦}$ جبن ، سعر ١٦ . وتبلّد ذهني تماماً ، فحدّقت إلى كلمة الجبن بعينين فارغتين ولم أدرِ لي مدخلاً ولا مخرجاً ، وقلت يائساً : «يا للعنة! ما هذا الخلط في التعقيد! فهنا مكتوب فقط $\frac{٥}{١٦}$ ، ها! ها! هل سمع أحد بمثل هذا! انظري هنا!» .

فقالت المرأة : نعم هكذا تعودوا أن يكتبوا . هذا هو الجبن الهولندي الحار . نعم ، هذا مضبوط ، $\frac{٥}{١٦}$ تعني خمسة أنصاف الأوقية .

فصحت بها : «نعم ، هذا أفهمه جيداً» وإن كنت في الحقيقة لم أفهم شيئاً .

وحاولت من جديد أن أنتهي من عمل هذا الحساب البسيط الذي كنت قبل شهرين أستطيع إنهاءه في بضع دقائق ، لا بل في دقيقة واحدة ، فتصببت عرقاً ، وبذلت كل مجهود في حل طلاسم هذه الأعداد ، وغمزت بعيني عاصراً ذهني كما لو كنت أتعمق في درس المسألة ، ولكني اضطررت للتسليم ، فخمسة أنصاف الأوقية هذه قد أجهزت عليَّ ، فكان كأن شيئاً وراء جبيني قد تحطم .

ولكي أظهر مع ذلك على الدوام بمظهر المشغول بالحساب ، أخذت أحرّك شفتي ، وألفظ بين الفينة والفينة عدداً من الأعداد بصوت عال كما أفعل عندما أصل إلى الحاصل ، والمرأة جالسة تنتظر . وأخيراً قلت :

ـ الآن قد راجعتها من الأول للآخر وأرى ، بقدر ما أستطيع الحكم ، أن لا خطأ فيها .

فأجابت المرأة : أليس فيها خطأ ؟ أحقاً ليس فيها خطأ ؟

ولكني لاحظت أنها لم تصدقني ، وفجأة أحسست شيئاً في كلامها من

قلة التقدير لي . سمعت نغمة عدم اكتراث لم أعرفها فيها من قبل . قالت ربما إني لم أتعوّد حساب الأعشار بعد ... وقالت أيضاً إنها لا بدّ أن تلجأ إلى بعضهم ممن يفهمون ذلك ليراجع لها الحساب بدقّة ، ولم تقل كل هذا بأسلوب جارح لتخجلني إنما قالته بتأنّ وجدّ ، ولما بلغت الباب تريد الخروج قالت لي بدون أن تلتفت إليّ :

ـ أرجو المعذرة لأنني أزعجتك .

وانصرفت .

وعاد الباب على الفور ففُتح ، وولجته صاحبة الدار ثانية ، فإنها ما كادت تبلغ المدخل حتى عادت ، وقالت

ـ قبل أن أنسى ـ أرجو المعذرة ـ ألا يستحق لي عندك شيء ؟ ألم يمض أمس على قدومك إلينا ثلاثة أسابيع ؟ نعم ، أظن ذلك . ليس من الهيّن الكفاح في الحياة لعول أسرة كبيرة كأسرتنا ، ولذا أراني مضطرة أن لا أقبل أحداً عندي يسكن على الحساب ، أنا متأسفة...

فقاطعتها قائلاً :

ـ أنا مكبّ الآن على تحبير مقال سبق أن حدّثتك عنه . وبمجرد الانتهاء منه ستحصلين على نقودك . عليك أن تطمئني .

ـ نعم ، ولكن مقالك هذا لن ينتهي .

ـ هل تعتقدين ذلك ؟ من الجائز أن تواتيني الأفكار غداً ، بل ربما تواتيني هذه الليلة . نعم ليس من المستحيل مؤاتاتها لي فجأة في هذه الليلة... وإذ ذاك أفرغ من كتابة مقالي في ربع ساعة على الأكثر . أصغي إليّ : إن عملي يختلف عن عمل الناس الآخرين ، فليس في استطاعتي أن آخذ مجلسي وأنتج كمية معينة من العمل . عليّ أن أترقب اللحظة المؤاتية . وليس في

استطاعة أحد أن يعرف اليوم والساعة التي تجود عليه فيهما قريحته . هذا العمل لا بد من أن يسير سيره الطبيعي .

وانصرفت صاحبة الدار ، ولكن ثقتها فيَّ قد تزعزعت بدون شك .

ولما صرت وحدي وثبت واقفاً وجذبت شعري من شدة اليأس . لا ، لا طمأنينة لي على الرغم من كل شيء! لا ، لا طمأنينة! هل أفلس ذهني ، أم بلغت نهاية البلاهة حتى أني لم أستطع أن أحسب قيمة قطعة صغيرة من الجبن الهولندي ؟ ولكن ، هل فقدت صوابي حتى أسأل نفسي أمثال هذه الأسئلة ؟ أوَ لم ألحظ بجلاء ، رغم اضطرابي ، أن صاحبة الدار حامل ؟ وكيف لي تفسير ذلك ولما تسنح لي فرصة للعلم به ؟ فما حدثني أحد عنه شيئاً ولا خطر لي عفواً ، بل رأيته بعيني وأدركته في الحال . وفوق هذا ، فقد لحظته في ساعة يأسي وأنا جالس أحسب الحساب العشري...

وذهبت إلى النافذة وأطللت منها على شارع بوغنماند ، فرأيت بضعة أولاد يلعبون على بلاط الشارع ، بضعة أولاد يلبسون ثياباً رثة في شارع فقير . وكانوا يترامون فيما بينهم بزجاجة فارغة ويتصارخون بصوت عال . ومرّت بهم عربة عليها أدوات منزلية ، فخطر لي في الحال أنه لا بد أن يكون هذا لأسرة أكرهت على الانتقال من مسكنها في غير مواعيد الانتقال . وكان على العربة فرش وأثاث ، وسرر نخرة وخزانات صغيرة ، وكراسي حمراء ذات ثلاث أرجل ، وحصر ، وأدوات حديد وأوعية مطبخ مصنوعة من الصفيح . وجلست على العربة ابنة صغيرة تكاد تكون طفلة ، قبيحة جداً ، ذات أنف مخبوط ، وقد أمسكت نفسها جيداً بيديها الهزيلتين الصغيرتين المزرقتين حتى لا تسقط . وكانت تجلس على كومة فظيعة من فرش مبللة نام عليها أطفال صغار ، وراحت تتطلع إلى تحت ، إلى الصغار الذين يترامون بالزجاجة...

رأيت كل هذا الذي مر بي وأدركته بدون عناء . وبينما أنا واقف هناك عند النافذة أنعم النظر ، سمعت خادمة صاحبة الدار تغني بجواري في المطبخ ، وكنت أعرف اللحن الذي تغنيه ، فأصغيت حذر أن تخطىء في أدائه ، ثم قلت لنفسي : « إن المخبول لا يستطيع أن يدرك كل هذا ، فأنا والحمد لله أتمتع بالذهن السليم ككل إنسان آخر » .

وفجأة رأيت ولدين من الأولاد على الطريق يتصايحان ، ويتشاتمان ، وكانا صبيين فعرفت أحدهما ، فهو ابن صاحبة الدار ، ففتحت النافذة لأسمع ما يقوله الواحد للآخر ، وسرعان ما تجمع الأطفال تحت نافذتي ورفعوا أبصارهم متشوّفين . ترى ، أي شيء ينتظرون ؟ أن يلقي أحد لهم شيئاً ؟ زهوراً ذابلة ، أو عظاماً ، أو بقايا لفائف ، أو أي شيء يقضمونه أو يتسلون به ؟ وكانوا يتطلعون إلى نافذتي بوجوه زرق مقرورة ، وعيون محملقة . وفي غضون ذلك استأنف الخصمان نزاعهما ، وقذف فم هذين الطفلين كلمات ما أكبرها وأهولها! سباب بلغة البغايا ، ومهاترات بلغة البحارة ربما تعلماها هناك على أرصفة الميناء . وانهمكا في السباب حتى أنهما لم يلحظا إسراع صاحبة الدار بالنزول إليهما لترى ماذا حدث .

فقال ابنها : « نعم ، لقد قبض على عنقي حتى انقطع نفسي! » والتفت عند ذلك إلى المجرم الصغير الذي كان يحدجه بحقد ، وصاح به وهو يتميز من الغيظ :

ـ فلتذهب إلى الجحيم أيها العجل الأخرق! ولد حقير كهذا يمسك الناس من أعناقهم! ليأخذني الشيطان إذا أنا لم...

وحاولت الأم ، تلك المرأة الحامل التي تكاد تسد الطريق ، أن تأخذ معها طفلها البالغ عشر سنوات ، فأمسكته بذراعه قائلة :

ـ إخرس وأغلق فمك! إنك لتعرف كيف تسب! إنك تستخدم طلاقة لسانك في السباب كما لو كنت قد عشت أعواماً في بؤرة البغايا . امش أمامي إلى البيت .

ـ لا ، لن أمشي إلى البيت!

ـ بلى ، سوف تمشي .

ـ لا ، لن أمشي!

كنت عند النافذة فوق ، ورأيت أن غضب الأم يزداد ، فأثار هذا المنظر القبيح ثائرتي ولم أطق عليه صبراً ، فناديت الغلام أن يأتي إليّ لحظة . ناديته مرتين لا لقصد إلا لأضع حداً لهذا المشهد . ورفعت صوتي في المرة الأخيرة ، فتلفتت الأم مدهوشة ورفعت بصرها إليّ ، فعاد إليها صوابها في الحال ونظرت إليّ بوقاحة ، وتأملتني بدقة وكبرياء ، ثم انسحبت وهي تعنف ابنها ، وقد تكلمت بصوت عال حتى أسمعها ، فقالت له :

ـ أف لك! فلتستح من أن تدع الناس يرون مقدار ما أنت عليه من الشراسة .

ولم يغب عني أتفه شيء من كل هذا الذي شاهدته على تلك الصورة . كانت مشاعري متيقظة تماماً ، فقد أدركت كل صغيرة ، وعلى ذلك يستحيل أن يكون في ذهني مس ، ومن أين له أن يأتيه المس ؟

وفجأة قلت : « إستمع ، أنت تعرف أنك شغلت نفسك طويلاً بقواك الذهنية ، واهتممت بها كثيراً . والآن يلزم وضع حد لهذه المهازل! ترى من علامات الخبل أن يدرك الإنسان تمام الإدراك كل شيء ، ويلاحظه ، كما فعلت ؟ إني أوشك أن أضحك منك! إنه يحق لك أن تتحقق أن الأمر لا يخلو من فكاهة كما أرى . وبالاختصار ، إنه يحدث لكل الناس أنهم يفقدون زمامهم

مرة ، وهذا يحدث دائماً في أبسط المسائل ، هذا يعني أن الأمر ليس مجرد مصادفة . وكما قلت لك ، إنه ليصعب عليَّ ألاّ أضحك منك . أما ما يختص بحساب الفاتورة ، بهذه الخمسة أعشار من جبن الفقراء المخلوط بالقرنفل والفلفل ، فإنه يحدث لأمهر الحاسبين أن يخطئوا فيه . ولا شك أن هذا الجبن يجعل من أفضل الناس غبياً ، وحسبك رائحته ، فإنها تقضي على الواحد القضاء الأخير... » وأخذت أضحك من جميع صنوف الجبن الحار... واستأنفت القول : « لا ، ضع أمامي شيئاً يؤكل بشهوة . ضع أمامي إذا شئت $\frac{٦}{١٠}$ من الزبد الطازج ، فهذا شيء آخر! »

وأخذت أضحك بعصبية من سخافاتي ووجدتها غريبة في بابها . الحق أني لا أشكو شيئاً فأنا بخير .

وأخذت البهجة تنمو في نفسي وأنا أروح وأجيء في غرفتي متحدثاً إلى نفسي ، وأقهقه ، وقد شعرت بغبطة عظيمة . والواقع أن بهجتي قد تعاظمت وكأني لم أكن في حاجة إلا إلى هذه اللحظة المرحة القصيرة ، لحظة الطرب الخالية من الهموم ، لأعيد لرأسي قواه العملية . وجلست إلى المائدة وأكببت على مقالي الوصفي . وسار العمل على خير ما يرام ، خيراً منه في أي وقت مضى . ولم أعمل بسرعة ، ولكن بدا لي أن القليل الذي كتبته كان ممتازاً . واشتغلت ساعة كاملة بدون أن أحس تعباً .

وبلغت نقطة مهمة في هذا المقال الوصفي « حريق في مكتبة » . وبدا لي أن كل ما كتبته قبل ذلك لا يعد شيئاً بالنسبة لهذه النقطة . وأردت أن اتعمَّق بصفة خاصة في تكوين هذه الفكرة ، وهي أن ما احترق ليس كتباً ، بل أدمغة ، أدمغة آدمية . وأردت أن أجعل من هذه الأدمغة المحترقة ليلة بارتولومية[١] حقيقة .

---

(١) نسبة إلى سان بارتيلمي ، وهي المذبحة الشهيرة التي أمرت بها ملكة فرنسا كاترين دي مدسيس ، وعمت المملكة بأسرها ، وجرت فيها أرهب المجازر .

وانفتح بابي فجأة وبسرعة زائدة على مصراعيه ، ودخلت صاحبة الدار وتغلغلت إلى وسط الغرفة دون أن تقف لحظة واحدة عند عتبة الباب . فعلت مني صرخة قصيرة بحَاء ، فالحق أني كنت كمن أصيب بلطمة . وقالت :

ـ ماذا ؟ حسبتك تقول شيئاً ؟ لقد جاءنا مسافر ، ونحن في حاجة إلى غرفتك من أجله ، ولا بدّ لك من أن تنام عندنا في الدور الأدنى هذه الليلة . فهناك أيضاً لك سرير .

وبدون أن تنتظر جوابي ابتدأت تجمع أوراقي من على الطاولة ، وشوشت كل شيء .

فتبخّر مزاجي المرح ، وبلغ مني الغضب واليأس مبلغهما ، فنهضت في الحال وتركتها تنظف الطاولة وحدها ، ولم أقل شيئاً حتى ولا كلمة واحدة . وأعطتني الأوراق في يدي .

ولم يبق أمامي إلا أن أغادر الغرفة ، فإن هذه اللحظة الثمينة كانت أيضاً قد ذهبت! والتقيت بالمسافر الجديد على السلم ، وهو رجل في مقتبل الشباب يحمل شارة البحارة الزرقاء على ذراعه ، وقد تبعه حمّال يحمل على كتفيه صندوقاً من صناديق البحرية ، فلا شك أن هذا الغريب كان ملاحاً ، وعليه فهو مجرّد طارق يقيم ليلة واحدة . ومؤكد أنه لن يشغل غرفتي أكثر من ذلك ، وربما واتتني بعد ارتحاله لحظة سعيدة ، فأنا لا ينقصني غير وحي خمس دقائق ، وبذلك يتم عملي . وعليه لا بد لي أن أخضع للقضاء...

لم أكن حتى الساعة قد دخلت مسكن الأسرة ، تلك الغرفة الوحيدة التي يقيمون فيها ليل نهار ، أعني الرجل ، والزوجة ووالدها ، والأطفال الأربعة . أما الخادمة فكانت تقيم في المطبخ وتنام فيه الليل أيضاً . اقتربت من الباب وبالنفس غصة ، وقرعته . ولكن أحداً لم يجب ، وإن كنت سمعت أصواتاً في الداخل .

وحينما دخلت لم ينبس الرجل ببنت شفة ، حتى ولم يرد تحيتي ، وإنما نظر إليَّ نظرة عدم اكتراث كما لو كنت لا أعنيه . وكان يلعب الورق مع رجل كنت رأيته عند مخازن الغلال على أرصفة المرفأ ، وهو سمسار بضائع سمعتهمَ ينادونه باسم غلاسشيبا «لوح الزجاج» . وكان طفل رضيع يجمجم وحده في سريره ، فيما جلس الرجل العجوز والد صاحبة الدار منزوياً في نفسه على مقعد كالسرير ، ورأسه في يديه ، وقد انحنى كما لو كان يشكو ألماً في صدره أو معدته ، وقد أبيضَ شعره أو كاد ، وكانت هيئته وهو منزوٍ تشبه هيئة الحيوان الزحاف المنقبض الذي يرهف أذنه نحو شيء ما .

فقلت للرجل : أتيت ، للأسف ، لأسألكم الليلة سكناً معكم .

فقال : هل قالت ذلك زوجتي ؟

ـ نعم ، فإن مسافراً آخر قد أخذ غرفتي .

فلم يجب الرجل عن ذلك ، وعاد فاشتغل بورق اللعب .

وهكذا كان هذا الرجل يجلس يوماً بعد يوم يلعب الورق مع كل صديق يلج غرفته . يلعب لا لشيء ، ولكن قطعاً للوقت ولكي يمسك شيئاً في يديه . وما عدا ذلك فإنه لم يكن يعمل عملاً ،يتحرك بقدر ما تسمح له أعضاؤه المتراخية ، بينما ترى امرأته صاعدة نازلة في السلم ، ناظرة حواليها يميناً وشمالاً ، باذلة جهدها لجلب الزوار إلى دارها ، كما أنها كانت كذلك على اتصال بالحمالين والمتسكعين على نواحي الطرقات ، فكانوا يتناولون منها أجراً معلوماً عن كل ضيف جديد يأتون به إليها ، وكثيراً ما قدمت لهؤلاء الحمالين مأوى في ليلتهم ، وفي هذه المرة قاد غلاسشيبا المسافر الجديد إليها .

ودخل اثنان من أولاد البيت هما بنتان صغيرتان لهما وجهان نحيلان

كوجوه أولاد الأزقة وبهما نمش . وكانتا لابستين ملابس رثة . وعلى أثرهما دخلت صاحبة الدار ، فسألتها في أي مكان ستنزلني في ليلتي ، فردت عليَّ باقتضاب أني أستطيع أن أرقد هنا في الغرفة مع الآخرين ، أو في الخارج عند مدخل الغرفة على التخت ، حسبما أرى . وكانت في أثناء إجابتها لي تروح وتجيء في الغرفة تشتغل بمختلف الأشياء تعيدها إلى نظامها ، ولم تلتفت إليَّ مرة واحدة .

فقص جوابها يدي ورجلي ، وانقبضت ووقفت بجوار الباب وأصغرت من نفسي بقدر المستطاع ، وتظاهرت بالرضا لتركي غرفتي ليلة لآخر ، وهششت عامداً كي لا أغضبها ، أو كي لا أطرد من الدار جميعها ، وقلت : «سنجد لهذا الأمر حلاً» . ثم صمت .

وكانت لا تزال مكبة على عملها في الغرفة ، وقالت :

ـ عدا ذلك أحب أن أقول لك إنه ليس في استطاعتي أن أقبل عندي أناساً نفقاتهم وسكنهم على الحساب . وهذا ما سبق أن قلته لك .

فرددت عليها : نعم ، ولكنك تعلمين أنها مسألة بضعة أيام وينتهي مقالي ، وستجديني إذن مستعداً لإعطائك خمسة ريالات فوق المبلغ المطلوب مني .

ولكن كان واضحاً أنها لم تؤمن مرة واحدة بمقالي هذا ، وقد لاحظت ذلك صريحاً في عينيها . ولم يكن في مكنتي أن أحافظ على كبريائي وأترك الدار لمجرد أني أوذيت بعض الإيذاء في كرامتي ، فقد كنت أعلم ما ينتظرني إذا أنا خرجت .

ومضت عدة أيام .

وواصلت الإقامة تحت مع الأسرة لأن مدخل الغرفة لم يكن به موقد ،

وكان الجو بارداً ، وكنت في الليل أفترش أرض الغرفة . وطالت إقامة البحّار الغريب في الغرفة التي كنت أشغلها ولم تبد أية علامة على قرب سفره . وفي موعد الغداء جاءت صاحبة الدار وقالت إنه دفع لها أجرة شهر مقدماً ، فإنه يريد أن يتقدم لامتحان البحرية قبل سفره ، ولهذا يقيم في المدينة . سمعت كل هذا فأدركت منه أني قد فقدت غرفتي إلى الأبد .

خرجت إلى مدخل الغرفة وأخذت مجلسي ، فإني لو وفقت إلى التمكن من الكتابة فلن يكون ذلك إلا خارج الغرفة ، حيث يسود السكون . ولم يعد يشغلني المقال الوصفي ، فقد خطرت لي فكرة جديدة ، موضوع آية في الإبداع . لقد أردت كتابة مسرحية من فصل واحد هي مأساة بعنوان « علامة الصليب » مادتها ترجع للعصور الوسطى . وقد فكرت بصورة خاصة في موضوع بطلتها من جميع الوجوه ، وهي بغي ظريفة متعصبة كانت ترتكب الخطيئة في الهيكل ، لا عن ضعف ولا عن شهوة ، بل لشدة بغضائها للسماوات . ارتكبت خطاياها على سفح المذبح لاحتقارها العظيم للسماوات .

وأخذ إعجابي بشخصها يتزايد بمرور الوقت ، فأراها رأي العين واقفة أمامي بلحمها ودمها على الصورة التي تخيلتها عليها ، كما لو كانت حية تُرزق . جسد معيب منفر ، طويل شديد الهزال ، ضارب لونه إلى السمرة . وإذا هي سارت أبدت ثيابها للعيان ساقيها الطويلتين عند كل خطوة تخطوها . وهي ذات أذنين كبيرتين متباعدتين . وبالاختصار ، لا بد أن يكون أذى للعين لا يطاق النظر إليها ، وكل ما يهمني فيها هو قحتها العجيبة ، وتلك الخطيئات المتعمدة الوفيرة التي ارتكبتها .

والحق أني اشتغلت بها كثيراً . وقد فتّقت هذه الصورة المشوهة للطبيعة البشرية ذهني ، فأخذت أكتب ساعتين في المسرحية بدون انقطاع .

ولما انتهيت بعد عناء شديد من كتابة عشر صفحات أو أثنتي عشرة صفحة كانت تتخللها فترات راحة طويلة حاولت عبثاً فيها الكتابة فكنت أضطر إلى تمزيق الورق ، بدا عليَّ التعب ، وجمدت من البرد والإجهاد ، فنهضت من مكاني وخرجت إلى الشارع . وكنت في خلال نصف الساعة الأخيرة قد اضطربت من صياح الأطفال في غرفة الأسرة ، وعلى ذلك لم يكن في الطاقة على أية حال استئناف الكتابة ، فقمت بنزهة طويلة مخترقاً شارع درمنسفين ، وبقيت بعيداً حتى المساء . وكنت طول الوقت أفكر بدون انقطاع في طريقة استئناف مسرحيتي . وعند عودتي في ذلك المساء إلى الدار حدث لي ما يأتي :

وقفت أمام دكان إسكاف في نهاية شارع كارل جوهان على مقربة من ميدان محطة سكة الحديد ، والله وحده يعلم لأي سبب بقيت واقفاً أمام دكان الإسكاف . وأخذت أنظر إلى ما في داخل النافذة ، ولم يدر بخلدي لحظة واحدة حاجتي الماسة إلى حذاء ، فإن أفكاري كانت قد نأت بي إلى نواح أخرى من الدنيا . ومرّ بي سرب من الناس يتحدثون ولم أسمع شيئاً من حديثهم . وهنا حياني بعضهم بصوتٍ عالٍ :

ـ مساء الخير .

فرددت التحية : «مساء الخير!» وحدقت إلى الرقيع لحظة قبل أن أتعرفه . فسألني :

ـ كيف حالك ؟

ـ على غاية ما يرام... كالعادة!

ـ قل لي... ألا تزال عند كرستي ؟

ـ كرستي ؟

ـ أذكر أنك قلت لي مرة من المرات إنك كاتب حسابات عند كرستي تاجر الجملة ، أليس كذلك ؟

ـ أي نعم . ولكن عملي عنده كان في زمن مضى وانقضى . يستحيل العمل مع هذا الرجل ، لقد انقطعت العلاقات بيننا بسرعة من نفسها .

ـ ولماذا ؟

ـ لقد أتيت إحدى المرات زلة في الكتابة ، وعلى ذلك...

ـ زورت ؟

زورت ؟ الآن يقف «الرقيع» يوجه إليَّ السؤال إذا كنت قد ارتكبت تزويراً! وقد طوح سؤاله كذلك في سعة واهتمام كبير ، فنظرت إليه متأثراً من أعماق قلبي ولم أجبه . فقال لي معزياً :

ـ نعم ، نعم ، يا لله! قد يحدث هذا لأفضل الناس...

فكأنه كان لا يزال يعتقد أني ارتكبت تزويراً . فسألته :

ـ ماذا ؟ نعم ، نعم ، يا لله! قد يحدث هذا لأفضل الناس ؟ ارتكاب التزوير ؟ استمع إليَّ يا عزيزي . أتعتقد حقاً أني ارتكبت مثل هذه الرذيلة ؟ أنا ؟

ـ ولكن يا سيدي ، بدا لي في وضوح أنك قلت...

وأرجعت رأسي إلى الوراء وأشحت بوجهي عن «الرقيع» ونظرت أمامي إلى الشارع فوقع بصري على ثوب أحمر مقبل صاحبه علينا ، وكانت ترتديه امرأة تسير إلى جانب أحد الرجال . ولو لم أكن ساعتئذ اتجاذب الحديث مع «الرقيع» ، ولو لم تجرحني ظنونه السيئة ، ولو لم ألق برأسي إلى الوراء في تلك اللحظة وأتراجع خطوة شاعراً بالإهانة ، لمرت بي صاحبة الثوب الأحمر على الغالب بدون أن ألتفت إليها . ولكن ماذا يعنيني من كل ذلك في الواقع ؟

وماذا يهمني هذا الثوب حتى ولو كان ثوب الآنسة «ناجل» وصيفة الملكة ؟

وظل «الرقيع» واقفاً يتكلم محاولاً إصلاح غلطه ، ولم أستمع له بالمرة بل ظللت أحدق إلى هذا الثوب الأحمر الذي كان يقترب مني . وسرت هزة في صدري ، وخزة خفية عابرة ، فهمست في سري همسة بدون أن أحرك فمي .

ـ يلاليالي!

وهنا التفت أيضاً «الرقيع» وتبين كل منا السيدة والرجل ، وسلّم عليهما وتابعهما بنظره . وأما أنا فلم أسلم ـ أو ربما سلمت غير واعٍ . وسار هذا الثوب الأحمر مصعداً في شارع كارل جوهان ، ثم اختفى . فسألني الرقيع :

ـ من هذا الذي يسير معها ؟

ـ الدوق ، ألم تر ؟ إنه يدعى بالدوق . أتعرف السيدة ؟

ـ نعم ، بمجرد النظر . وأنت ، ألا تعرفها ؟

فأجبته : لا .

ـ أظنك سلمت عليها بانحناء شديد .

ـ أنا ؟

فقال الرقيع : ها ، ها! ربما لم تسلم عليها... ها ؟ يا للعجب! إنها لم تنظر إلآ إليك وحدك طول الوقت .

فسألته : من أين تعرفها ؟

الواقع أنه لا يعرفها ، وترجع القصة إلى إحدى أمسيات هذا الخريف . كان الوقت متأخراً ، وكانوا عصبة من ثلاثة أشخاص مرحين ، خرجوا ساعتئذ من «الفندق الكبير» فالتقوا بها وهي تتنزه وحدها على مقربة من مكتبة «كمار ماير» . فتحدثوا إليها ، فردتهم في أول الأمر في تمنع ولطف . ولكن أحد هؤلاء المرحين كان شخصاً لا يخاف الله ولا الشيطان ، فتوسل إليها أن

تسمح لهم بمرافقتها حتى بيتها ، وأقسم لها بعظمة الآلهة أنه لن يمس شعرة في رأسها ، كما جاء في التوراة ، وأنه لا يرغب إلا في أن يشيعها إلى البيت لكي يطمئن إلى بلوغها الدار سالمة ، وإلا فإنه سيظل ليلته قلقاً . وأخذ يتكلم بدون انقطاع ، وخرج من موضوع ودخل في موضوع ، وادعى أن اسمه فلاديمير أترداغ ، وادعى أنه مصور . وأخيراً لم تملك نفسها من الضحك من هذا الشاب المرح الذي لم تخدعه برودتها ، وانتهى الأمر أن رافقها .

فسألته وقد أمسكت نفسي :

ـ حسناً ، ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ ماذا حدث بعد ذلك ؟ آه! لا مجال للافتراضات ؟ إنها سيدة .

وصمت كلانا لحظة . ثم قال وهو يفكر :

ـ لا ، أعوذ بالله من الشيطان! هذا إذن هو الدوق! كذلك هو ؟ وإذا هي سارت مع هذا الشخص ، فلست مطالباً بالإجابة عنها .

وبقيت صامتاً . طبعاً سيذهب معها الدوق! وليكن ذلك! فماذا يعني هذا ؟ لن أهتم بعد الآن بها وبسحرها . وأخذت أعزي نفسي ، فافترضت فيها أسوأ الفروض . وسُرِّي عني أن أراها تسف إلى الحضيض وتتمرغ في الوحل . ولم يؤلمني إلا شيء واحد وهو أن أكون قد رفعت قبعتي لهما ، ولو صح أني فعلت ذلك . فلماذا أرفع القبعة أمام أمثال هذين الشخصين ؟ ولم أعد آبه لها بالمرة ، فإنها لم تعد على شيء من الجمال ، فقد هوت إلى الحضيض ، أف للشيطان! ما أشد ذبولها! يجوز أنها نظرت إليَّ وحدي... وهذا لا يدهشني ، فربما أخذها الندم . ولكن هذا لا يحملني على أن أسقط أمامها على قدمي فأحييها كالمخبول ، وعلى الأخص وهي تبدو شوهاء في الأيام الأخيرة... ليختطفها الدوق! ليهنأ بها! وسيجيء اليوم الذي تسول لي فيه نفسي أن أمر بها في

كبرياء دون أن أتلفت ناحيتها . وليس بعيداً أن أسمح لنفسي بذلك ، حتى ولو دققت النظر إليّ وكانت ، فوق ذلك ، ترتدي ثوباً أحمر بلون الدم . نعم ، قد يحدث ذلك . ها ، ها! إن هذا لو حدث يكون نصراً لي . ولو أني آمنت بنفسي لاستطعت أن أتم مسرحيتي في بحر الليلة البارحة ، ولأجبرت هذه الفتاة قبل مضي ثمانية أيام أن تركع أمامي بكل مفاتنها! ها ، ها! نعم بكل مفاتنها...

وقلت في اختصار : الوداع .

ولكن «الرقيع» عاد فاستوقفني وقال :

ـ بأي شيء تشتغل الآن ؟

ـ ماذا أشتغل ؟ طبعاً أكتب . وماذا عساي أعمل غير الكتابة ؟ فمنها أعيش . وفي الوقت الحاضر أؤلف مسرحية عظيمة بعنوان « علامة الصليب » مادتها مأخوذة من العصور الوسطى .

فقال «الرقيع» مخلصاً : «إلى الشيطان! وإذا أنهيتها ؟...»

فأجبته : لست أخشى شيئاً من هذه الناحية! في غضون ثمانية أيام تقريباً أعتقد أنك ستسمع عني الشيء الكثير .

وعلى هذا انصرفت .

ولما بلغت المنزل قصدت رأساً صاحبة الدار وسألتها مصباحاً ، فقد كان الحصول على مصباح أمراً عظيم الأهمية بالنسبة لي ، فقد اعتزمت أن لا أنام هذه الليلة إذ تحركت المسرحية في رأسي ، وكنت قوي الرجاء في كتابة جزء كبير منها . وقد حملت لصاحبة الدار رغبتي في تواضع جم لأنني لاحظت تقطيبة السخط على وجهها عند عودتي للغرفة ، فقلت لها : إني على وشك الفراغ من كتابة مسرحية غير عادية ، وينقصني فقط بعض المشاهد

لإتمامها . ولمحت لها أنها قد تمثل على أحد المسارح في طرفة عين ، فإذا هي قدمت لي هذه الخدمة العظيمة فإني...

ولم يكن لدى المرأة مصباح . فقد فكرت ، ولكنها لم تذكر أنه يوجد عندها أي مصباح . وإذا أنا صبرت لما بعد منتصف الليل ، فربما استطعت الحصول على مصباح المطبخ ، ولعل الأفضل لي شراء شمعة .

فصمت . لم أكن أملك عشر «أورات» ثمناً لشمعة ، وكانت هي تعلم ذلك . ولذلك فإنه من الطبيعي أن أفشل من جديد . وكانت الخادمة معنا ، تحت . كانت في الغرفة لا في المطبخ ، إذن فالمصباح لم يكن مشعلاً فوق . فكّرت في هذا ولم أقل حرفاً .

وفجأة قالت الخادمة لي :

ـ كنت أظن أنك آتٍ من القصر! هل كنت فيه في حفلة العشاء ؟

ثم قهقهت من هذا المزاح .

جلست وأخرجت أوراقي ، وأردت أن أحاول هنا كتابة شيء ، وأنتظر . ونشرت أوراقي على ركبتي وعيناي مثبتتان على الأرض بدون انقطاع كي لا يذهب تفكيري إلى غير العمل . ولكن هذا لم يفد ، ولم أتقدم خطوة في موقفي . ودخلت ابنتا صاحبة الدار الصغيرتان وهما تشاكسان قطة مريضة عجيبة لا يكاد يكون فيها شعر ، وإذا نفختا في عينيها سال منهما ماء وجرى فوق أنفها . وكان صاحب الدار مع آخرين يجلسون إلى الطاولة يلعبون لعبة « مائة وواحد » . أما المرأة فكانت جادة كعادتها تشتغل بالخياطة .

وقد لاحظت هذه المرأة تماماً أني لا أستطيع الكتابة وسط هذه الحركة ، ولكنها لم تعد تعنى بي ، لا بل ابتسمت عندما سألتني الخادمة إذا كنت مساء اليوم في حفلة العشاء في القصر . خاصمني كل من في الدار ، فكان اضطراري

للتنازل عن غرفتي لآخر مرة يستلزم أن أعامل كغريب ، وحتى هذه الخادمة البغي القصيرة السوداء العينين ، وذات الناصية الجعدة والثدي المبطوح ، كانت تهزأ بي في المساء عندما تجيئني بالخبز والزبد ، فقد استمرت تسألني أين تعودت أن أتناول طعام العشاء ، مع أنها لم ترني قط أمام «الفندق الكبير» أتمشى وفي يدي مسواك! لقد كان واضحاً أنها تعرف سوء حالي ، وكانت تجد لذة في إبداء ما تعرفه لي .

وقد خطر لي فجأة كل ذلك ، ولم أعد أستطيع أن أجد محاورة واحدة لمسرحيتي . وعبثاً حاولت من جديد ، فقد أحسست طنيناً عجيباً في رأسي ، واستسلمت في النهاية للأمر ودسست الورق في جيبي . ورفعت عينيّ . وكانت الخادمة جالسة أمامي فنظرت إليها ، فرأيت ظهراً ضيقاً مركباً عليه كتفان منخفضتان لم ينموا النمو الطبيعي ، إذن فمن أين لها أن تهزأ بي ؟ وماذا يكون من أمر لو أني بالفعل جئت من القصر ؟ أفي ذلك أذى لها ؟ لقد كانت تضحك مني في الأيام الأخيرة بوقاحة إذا أصابني سوء الحظ فعثرت فوق السلم ، أو اصطدمت بمسمار علق بسترتي فمزقها . وأمس قامت فجمعت أوراق مسرحيتي المسودة التي كنت ألقيت بها عند مدخل الغرفة ، سرقت هذه القصاصات وأخذت تقرأها بصوتٍ عالٍ في حضرة الجميع لكي تسخر مني . ولا أذكر أني أهنتها يوماً ما ، لا ولا سألتها قضاء حاجة لي ، فقد كنت على العكس أهيء في المساء فراشي بنفسي في الرواق حتى لا أثقل عليها . وكذلك كانت تهزأ بي لتساقط شعري . ففي الصباح كان يتبقى مني شعر في المغسل . وحذائي كان قد ساء ، ولا سيما بعد أن مرت عليه عربة الخبز ، فكانت تضحك منه كذلك فتقول : «وقاك الله ووقى حذاءك! أنظر إليه مرة واحدة ، إنه كبير كوجار الكلب!» والحق عندها ، فحذائي كان قد بلي ، ولم يكن في طاقتي في ذلك الوقت أن أحصل على غيره .

وبينما أنا أفكر في كل ذلك وأعجب لعداوة الخادمة المكشوفة ، أخذت الطفلتان تغضبان الرجل العجوز الجالس على مؤخر السرير فكانتا تتواثبان حواليه . وانشغلتا بعملهما هذا عما عداه ، وكان مع كل واحدة منهما عود من قش أخذت تنخسه به في أذنه . وبقيت فترة طويلة أنظر إليهما بدون أن أتدخل في الأمر . ولم يحرك الشيخ ساكناً للدفاع عن نفسه ، ولكنه كان يكتفي في كل مرة تخزانه فيها بأن يرسل نظرات ثائرة ، ويهز رأسه ليتخلص من عود القش كلما سكن في أذنه .

وأخذ هذا المنظر يثير ثائرتي باستمرار . ولم أستطع أن أبتعد بنظري عنه . وكان والد الصغيرتين ينظر اليهما من فوق ورق اللعب ويضحك من عملهما ، بل إنه لفت نظر زملائه في اللعب إلى ما هو جارٍ . ترى ، لماذا لم يحرك العجوز ساكناً ؟ ولماذا لم يدفع الطفلتين بعيداً عنه بذراعيه ؟

وتقدمت خطوة إلى السرير .

ونادى صاحب الدار : خلياه! خلياه ، إنه كسيح .

ثم عدت إلى مكاني الأول صامتاً وضبطت نفسي خوفاً من أن يطردني الرجل عند مقتبل الليل إذا أنا أثرت غضبه فلماذا أعرض مأواي وخبزي المطلي بالزبد للخطر بتدخلي في شؤون الأسرة ؟ كل شيء إلا ارتكاب سخافة من أجل شيخ نصف ميت! وشعرت ، بلذة ، أني قاسٍ كحجر من الصوان!

واستمرت الخبيثتان في تعذيبهما للشيخ ، فقد استفزهما تحريك رأسه ، فأخذتا كذلك تخزانه في عينيه وفي أنفه ، فكان ينظر إليهما نظراً فارغاً دون أن يقول شيئاً ، ودون أن يقوى على تحريك ذراعيه . وفجأة نصب قامته قليلاً وبصق في وجه إحداهما ، ثم اعتدل مرة أخرى وبصق في وجه الثانية ، ولكنه لم يصبها ، فرأيت عند ذاك كيف ألقى صاحب الدار

بورق اللعب على المائدة وجرى إلى السرير يصرخ وقد أحمر من الغضب :

ـ ماذا ؟ تبصق في عيون الصغيرتين أيها الخنزير العجوز!

فصرخت من شدة الغضب :

ـ ولكن يا لله العظيم! إنهما لم تتركاه دقيقة واحدة في سلام!

ولم تكن صرختي عالية لأنني كنت خائفاً بصورة دائمة من أن أطرد ، إلا أن فرانصي كانت ترتعد من شدة التأثر .

فالتفت إليَّ صاحب الدار ، وقال :

ـ لا ، إستمع! وما يعنيك هذا أيها الشيطان! ابلع لسانك واقفل فمك... وهذا كل ما أسألك إياه... وهو خير ما يمكنك أن تفعله!

وعندئذ رفعت المرأة صوتها فرنَّ صراخها في أنحاء البيت :

ـ وكان الله في عوني! أعتقد أن كليكما مخبول مفتون ، إذا شئتما البقاء هنا فاسلكا طريق الهدوء هذا ما أقوله لكما! أوَ لا يكفي الواحد أن يعطي الأشرار مأوى ومطعماً... لا ، بل لا بد لهم أن يقيموا هنا في الغرفة حومة للوغى ، وأعمالاً شيطانية ، وينصبوا الميزان! ولكني أحرم هذا ، أتسمعان ؟ وأنتما أيتها الصغيرتان الخبيثتان ، أغلقا فميكما ، وامسحا أنفيكما أيضاً ، وإلا جئت بنفسي وقمت بذلك . ولم أر شيئاً في حياتي مثل هذا بين الناس! يفرون من الشوارع إلينا وليس معهم فلس واحد ، ثم يعجّون في ساعات النوم في بيوت الناس! لا لا أريد أن أرى شيئاً من هذا ، أسمعتم ؟ يمكن كل من هو ليس من أهل البيت أن يغادر هذا المكان ، إن من حقي أن أنشد سلاماً في داري!

فلم أقل شيئاً ، ولا حاولت فتح فمي ، بل أخذت مجلسي عند الباب وأصغيت لهذه الضجة . وعلا صراخ الجميع في وقت واحد ، حتى الطفلتين

والخادمة ، يريد كل أن يوضح كيف بدأ هذا النزاع . مؤكد لو أمكنني أن أضبط نفسي فلا بد أن ينتهي الأمر عند هذا الحد ، ولن تتحرج الأمور إذا أنا لم أتلفظ بلفظ واحد . وليت شعري ، أي لفظ كان يجب عليَّ أن أقوله ؟ ألم يكن شتاء في الخارج ؟ وفوق ذلك ، فقد أسدل الليل ستاره! ترى أهذا هو الوقت المناسب لأضرب بيدي على المائدة ولأحتج بشدة ؟ كل شيء إلا هذه السخافة! وبقيت مكاني ساكناً ، ولم أغادر الدار ، ولا استحييت من البقاء ، لا ولا أحمر وجهي لحظة واحدة من الخجل بالرغم من أن الجماعة طردوني أو كادوا . وحدقت في لا مبالاة إلى الحائط ، حيث توجد صورة للمسيح ، وصممت على السكوت على سفالات صاحبة الدار .

وقال أحد لاعبي الورق : «أي نعم ، إذا كنت تريدين التخلص مني أيتها السيدة ، فليس هناك ما يحول دون ذلك» .

ونهض واقفاً ، وتبعه الآخر .

فأجابتهما صاحبة الدار : «لا ، لا أقصدك أنت ، ولا أعنيك أنت الآخر كذلك . وإذا كان لا بد من معرفة من أعني ، فسأريكما من هو هذا الذي...» .

وكانت تتكلم بعبارات متقطعة ، فوخزتني بهذه الوخزات على دفعات ، واسترسلت في ذلك كي تعرفني في صراحة أنها تعنيني ، فقلت في نفسي : «هدوءاً وصمتاً! إنها لم تطلب إليَّ لا في صراحة ولا بعبارات جلية أن أغادر الدار . كل شيء إلا الكبرياء! كل شيء إلا العظمة السخيفة التي لا محل لها هنا! ولأحتفظ بشجاعتي... ما أبدع شعر المسيح الأخضر الذي أراه في الصورة! إن لون شعره لا يكاد يفترق عن لون العشب الأخضر أو هو بعبارة أدق ، يشبه عشب المروج الكثيفة... ها ؟ إنها ملاحظة في غاية الدقة وفقت إليها... عشب المروج الكثيف... وتواردت عليَّ في هذه اللحظة سلسلة من الخواطر ، أو

تداعي الأفكار العابرة . فمن المرج الأخضر ، إلى مقطع من التوراة يقول إن الحياة كلها منذ نشأتها الأولى إلى يوم الدين أشبه بالحشيش الذي يضطرم ، ومن هذا المقطع إلى يوم الدين الذي سيحترق فيه كل شيء ، ثم انتقلت إلى زلزال «لشبونة» وأخيراً ترجحت أمامي مبصقة من النحاس الإسباني ، وريشة من خشب الأبنوس كنت رأيتها عند يلايالي! آه نعم ، كل شيء للفناء! كل شيء كالحشيش الذي يضطرم ، وسيخرج الجميع محملين على أربعة ألواح ، مدثرين في أكفان... «أكفان الموتى عند الفتاة أندرسن... على يمين الداخل...» .

كل هذا دار في رأسي في ساعة يأسي ، بينما كانت صاحبة الدار على وشك طردي .

وصاحت بي : إنه لا يسمع! أنا أقول لك : غادر الدار! لعلك فهمت الآن! أظنك فهمت ، وليأخذني الشيطان إن لم يكن صاحبنا هذا مخبولاً! تهيأ للانصراف ، وبذلك ينتهي الأمر!

فنظرت إلى الباب لا لأنصرف ، كلا ، فقد دار في خلدي خاطر جديد : أن أدير المفتاح في القفل فأغلق الباب عليَّ وعلى الآخرين حتى لا أكره على الخروج ، فقد تولاني رعب هستيري من أن يُلقى بي مرة أخرى في الشارع . ولكن المفتاح لم يكن بالباب ، فنهضت واقفاً ، فليس لي قبس من رجاء بعد هذا .

وفجأة تخلل صوت صاحب الدار صراخ المرأة ، فبقيت مكاني مندهشاً ، فالرجل عينه الذي سبق أن أنذرني يقف الآن في جانبي ويقول :

ـ لا ، هذا لن يكون . ليس في قوة أحد أن يطرد الناس ليلاً من المنازل . هذا أمر يعاقب عليه القانون .

ولم أكن أدري أن القانون يعاقب على هذا الأمر . ولكن ربما كان الأمر كذا ، فقد عادت المرأة إلى صوابها وهدأ ثائرها ولم تقل شيئاً بعد ذلك ، بل قدمت لي قطعتين من الخبز مع الزبد لآكلهما . ولكني لم أتناول منهما شيئاً . لم أقبل ما قُدِّمَ إليَّ شكراً خالصاً مني للرجل ، وادعيت أنني أكلت في المدينة .

وأخيراً لما بلغت الرواق لأذهب للفراش ، جاءت هذه المرأة خلفي ووقفت على عتبة الباب وقالت بصوت مرتفع ، وقد انتفخ بطنها من الحمل ، وتكورت أمامي :

ـ ولكن هذه الليلة هي الأخيرة التي تنام فيها هنا . إفهم هذا .

فأجبتها : نعم ، نعم .

وغداً إذا أنا بذلت مجهوداً صادقاً ، سأجد لي طريقاً إلى مأوى . ولا بد أن أجد لي مخبأ من المخابىء في أي مكان ، وقد سرني في تلك الساعة أني لم أعد محتاجاً لقضاء تلك الليلة في الخارج .

ونمت حتى الساعة الخامسة أو السادسة صباحاً . ولما تيقظت من نومي لم يكن الصباح قد تنفس ، ولكني نهضت على الرغم من ذلك . واتقاء للبرد كنت قد رقدت في فراشي بكامل لباسي ، فلم أحتج الآن لارتدائه . وبعد أن شربت قليلاً من الماء فتحت الباب بخفة وانصرفت ، فقد كنت أخشى أن ألقى صاحبة الدار مرة أخرى .

وكان بعض الشرطة الذين يعملون ليلاً ، هم الوحيدين من الأحياء الذين قابلتهم في الطريق . وبعد قليل جاء رجلان وأخذا يطفئان مصابيح الغاز في كل مكان .

وأخذت أتنقل بدون قصد أو غاية ، فبلغت شارع « كركا » ثم سرت إلى

القلعة ، وكنت جائعاً مقروراً يغالبني النوم وأغالبه ، فأخذت طريقاً نائياً برغم ضعف ركبتي وظهري ، ثم جلست على أحد المقاعد وسرحت أفكاري بعيداً... هأنذا الآن أعيش منذ ثلاثة أسابيع على الخبز والزبد الذي تقدمه لي صاحبة الدار صباحاً ومساءً ، وقد مضى عليَّ الآن أربع وعشرون ساعة كاملة منذ هنئت بآخر طعام ، وها هو الجوع عاد يعضني بقسوة ، فلا بد لي أن أجد طريقاً للنجاة بأسرع ما يمكن . وعلى هذه الأفكار غلبني النوم مرة أخرى وأنا على مقعدي .

ونبهني من نومي لغط جمع من الناس كانوا على مقربة مني ولما عدت إلى وعيي رأيت النهار قد انبلج ، والناس قائمين على قدم وساق .

فنهضت من مكاني ومضيت في طريقي . وعلت الشمس التل ، وكانت السماء بيضاء رقيقة الأديم ، فنسيت كل أحزاني اغتباطاً بهذا الصباح الصافي بعد هذه الأسابيع الطويلة الغائمة . وبدا لي أن حالي كانت في كثير من الظروف أسوأ بكثير مما هي عليه الآن ، فدققت على صدري وغنيت لحناً بصوت منخفض ، فكان لصوتي رنين عليل ، كما كان في غاية الضعف . وأثر في نفسي ذاك اليوم العظيم ، وهذه السماء البيضاء المشبعة بالنور ، تأثيراً هائلاً ، فأخذت أجهش بالبكاء .

فسألني أحد الناس : ما بك ؟

فلم أجبه ، وأسرعت بالانصراف ، وأخفيت وجهي عن الناس جميعاً . وبلغت رصيف الميناء حيث تقف سفينة شراعية عليها علم روسي ، تفرغ فحماً ، فقرأت على أحد جوانبها اسم كوبيغورو . وتشردت أفكاري مدة طويلة . فلم ألحظ ما هو جارٍ فوق ظهر هذه السفينة الأجنبية ، ولا بد أن تكون على وشك الانتهاء من تفريغ حمولتها ، فقد كانت ترتفع عن الماء تسعة أقدام

برغم ما وسق عليها ، وكان لأحذية حمّالي الفحم الثقيلة على ظهر السفينة صوت أجوف يرنّ في السفينة كلها .

فالشمس والضوء وأنفاس البحر المالحة ، والحياة الممتلئة بالعمل والمرح ، كل هذا مدّني بقوة وجعل الدم ينبض في عروقي من جديد ، فخطر لي فجأة أثناء جلوسي أني ربما استطعت أن أكتب بعض المشاهد لمسرحيتي ، وعلى ذلك سحبت الورق من جيبي .

وحاولت تكوين محاورة على لسان أحد الرهبان تفيض قوة وتعصبا ، ولكني لم أوفق . فتخطيت الراهب وأردت أن أؤلف خطاب القاضي عن البغي التي انتهكت حرمة الهيكل ، فكتبت في هذا الخطاب نصف صفحة فقط ، ثم توقفت بعد ذلك . ولم يشأ الجو المناسب أن ينتشر فوق كلماتي . فالحركة القائمة حولي ، وغناء الملاحين ، وضجيج الآلات ، وقعقعة السلاسل الحديد المتواصلة ، لم تتناسب إلا قليلاً مع جو العصور الوسطى المظلم العفن الذي كان لا بد له أن يغمر مسرحيتي كالضباب . فجمعت أوراقي وانصرفت .

لو أن لي الآن مأوى آوي إليه! فكّرت وأنعمت النظر ، ولكن لم تخطر لي بقعة صغيرة في المدينة كلها أتمكن فيها من الإقامة ولو ساعة قصيرة ، فلم يبق أمامي إلا العودة إلى الفندق في شارع «فاترلاند» . غير أني نفرت من فكرة الرجوع إلى هذا المكان وأخذت أحدث نفسي طيلة الوقت قائلاً : إن هذا لن يكون . ولكني مع ذلك جددت في السير وكأنني أنزلق انزلاقاً حتى اقتربت من المحلة الحرام . ولقد كان رجوعي هذا شيئاً مزرياً ، ولكن ما العمل ؟... لم يبقَ لديَّ ذرة من الكرامة ، وحق لي أن أقول دون أن يكون في قولي شيء من المبالغة : إني أقل الناس كبرياء في زماننا! ومضيت .

ووقفت أمام باب الدار الخارجي أفكر في الأمر مرة أخرى . نعم ، ليكن

ما يكون ، فلا مفر من المجازفة . إن المسألة كلها تدور حول أمر تافه ، فأولاً لن أقيم هنا إلا بضع ساعات فقط ، وثانياً لن أتخذ سكني مرة أخرى في هذه الدار إن قدر الله لي ذلك! ودخلت في صحن الدار ، ولم أكن قد قطعت في أمر وأنا أسير على الحجارة الخشنة في وسط الفناء ، وكنت على وشك العودة من عند الباب ، فعضضت على أسناني . لا ، كل شيء الآن إلا الكبرياء التي لا محل لها هنا ، وأذا افترضنا الفروض كلها ، فعذري أني جئت لأقول لهم وداعاً وأستأذن منهم بالانصراف حسب الأصول ، ثم لأتفق معهم بشأن ديوني . وفتحت الباب المؤدي إلى الرواق .

وبقيت واقفاً بدون حراك ، فرأيت على بعد خطوتين مني صاحب الدار نفسه بدون سترة ولا قبعة ، وهو يطل من ثقب القفل إلى غرفة الأسرة ، فأشار لي بيده إشارة خفية لأبقى ساكناً . وظل يطل من ثقب الباب ، ثم أخذ يضحك . وهمس لي قائلاً :

ـ تعال إليَّ .

فاقتربت منه ماشياً على أطراف قدمي . فقال وهو يضحك ضحكات مضطربة مكبوتة :

ـ أنظر! أنظر هناك! هيهي! إنهما يرقدان هناك! هل رأيت العجوز ؟ ألم تره ؟ أتستطيع أن ترى العجوز ؟

في داخل السرير ، وتحت صورة المسيح وعلى مقربة منه ، وقبالتي تماماً ، رأيت شخصين : صاحبة الدار والملاح الأجنبي ، وكانت ساقا المرأة تشعان بياضاً بالنسبة لسمرة غطاء الفراش القطني ، وقد جلس أبوها ، الشيخ المقعد ، على السرير عند الحائط المقابل ينظر إليهما وهو يستند إلى يديه ويمد رأسه إلى الأمام ، مقوصراً كالعادة ، لا يستطيع حراكاً...

والتفت إلى صاحب الدار فرأيت أنه يبذل كل جهده حتى لا يعلو ضحكه .

وهمس قائلاً :

ـ أرأيت العجوز ؟ يا لله! هل رأيت العجوز ؟ إنه يجلس على السرير ينظر إليهما!

ثم عاد فانحنى على ثقب القفل .

فسرت من أمامه إلى النافذة وجلست هناك ، وقد شوش هذا المنظر كل أفكاري أشنع تشويش ، ونسف مزاجي الفني . ولكن ماذا يعنيني من الأمر ما دام زوجها راضياً عن ذلك ، بل إنه ليجد فيه فكاهة له ، فالحق أني لا أجد لي سبباً لاستبشاعه . وأما الشيخ ، فلا يكون إلا شيخاً ، فربما لم يرَ شيئاً البتة ، وقد يكون نائماً ، والله وحده يعلم إذا كان ميتاً ، وليس لي أن أعجب إذا كان قد مات . وعلى أية حال ، فأنا لست مسؤولاً عنها .

وتناولت أوراقي ثانية في يدي وأردت أن أطرد عني كل الآثار الطارئة ، فتوقفت في وسط جملة من خطاب القاضي : «هكذا يأمرني الله والقانون . هكذا يأمرني قرار رجالي الحصفاء . هكذا يأمرني ضميري...» وأطللت من داخل النافذة .ولكن هذا لم يكن يعنيني ، لم يكن يعنيني البتة! فالهدوء ، الهدوء!

«هكذا يأمرني ضميري...»

ولكن كل شيء بدا كأنه قد تآمر عليَّ ، فقد وقف الرجل عند ثقب القفل غير قادر على ضبط نفسه ، فكنت أسمع بين وقت وآخر ضحكاته المكبوتة ، وأراه يرتعد . وحدث في الشارع كذلك ما لفت انتباهي . فعلى الرصيف المقابل جلس طفل فيْ ضوء الشمس يلعب غير مفكر في سوء . كان يعقد

قصاصات مستطيلة من الورق ولا يؤذي أحداً . وبغتة هبَّ واقفاً وهو يسب ، وخطا في الطريق إلى الوراء فلمح رجلاً ، رجلاً كبيراً ذا لحية حمراء ، بصق على رأسه وهو مستند إلى نافذته في الطبقة الثانية . وبكى الصغير من الغضب وأخذ يرسل بسباب عاجز إلى النافذة بينما كان الرجل يضحك في وجهه . وعلى هذا النحو انقضى نحو خمس دقائق فتحولت عن النافذة حتى لا أرى دموع الصبي .

« هكذا يأمرني ضميري... »

واستحال عليَّ استئناف الكتابة . وأخيراً أخذ كل شيء يختلط عليَّ ، وبدا لي أن كل ما كتبته لا يصلح لشيء . نعم ، كأن الفكرة كلها كانت تفاهة خالصة . ففي العصور الوسطى لم يكن أحد يتكلم عن الضمير ، وأول من اكتشف الضمير هو شكسبير معلم الرقص . وعلى ذلك فإن الخطاب كله خطأ . ولكن ألا تشتمل هذه الأوراق على شيء جيد ؟ وقلبت الأوراق من جديد ، فعادت شكوكي تتبدد ، فقد عثرت فيها على مواقف عظيمة ، قطع مطولة ذات أصالة كبيرة ، فأحسست في صدري برغبة قاهرة مسكرة في أن أعود إلى العمل مرة أخرى لأنجز مسرحيتي .

فنهضت وسرت إلى الباب بدون أن أهتم لإشارة صاحب الدار الخرقاء التي يقصد بها أن أبقى هادئاً ، وسرت بعزيمة ثابتة في الرواق ، وصعدت في السلم إلى الطبقة الثانية ، وولجت غرفتي القديمة ، ولم يكن الملاح فيها ، فقد كان عند المرأة في غرفة الأسرة . وعليه فما الذي يحول بيني وبين الجلوس هنا لحظة ؟لم أمس أمتعته ، ولن أستخدم حتى طاولته ، بل سأجلس على الكرسي بجوار الباب راضياً بذلك كل الرضا . ونشرت في عجلة الأوراق على ركبتي .

وسارت الأمور على أحسن ما يرام بضع دقائق ، وقامت في رأسي محاورة بعد محاورة ، فكنت أكتب بدون انقطاع . وملأت صحيفة بعد الأخرى ، وأخذت أتنقل من فكرة إلى فكرة ، وأدندن من فرط الجذل لصفاء مزاجي وقد نسيت كل شيء آخر ، فلم أكن لأسمع في تلك اللحظة سوى صوت دندنتي . وخطرت لي فكرة طيبة عن جرس الكنيسة ، هي أن أجعل دقاته تسمع عند نقطة معينة من مسرحيتي ، فسيكون لذلك وقع عظيم .

وإذ ذاك سمعت خطوات في السلم ، فاضطربت وأوشكت أن لا أتمالك نفسي ، وجلست استعداداً للتحفز متوحشاً متيقظاً وقد امتلأت نفسي بقصة مبهمة وضاعف الجوع غضبي ، وأنصتُ في حالة عصبية ، وأمسكت بيدي قلمي الرصاص وأرهفت أذني عاجزاً عن كتابة كلمة أخرى . وفتح الباب ، ودخل الاثنان آتيين من الغرفة التي تحت .

وقبل أن أجد متسعاً من الوقت لأعتذر عن صنيعي ، صرخت صاحبة الدار كصاعقة نزلت من السماء :

ـ لا ، ليقف الله إلى جانبي! ها هو قد عاد إلى الجلوس هنا!

فقلت وكان بودي أن أقول كثيراً ، ولكن القول لم يسعفني :

ـ أرجو المعذرة!

ففتحت صاحبة الدار الباب على مصراعيه وصرخت :

ـ إذا أنت لم تذهب في الحال ، فليأخذني الشيطان إن أنا لم أرسل إلى الشرطة في طلبك .

فنهضت واقفاً ، وتمتمت :

ـ إنما أردت أن أودعك ، ولذا اضطررت لانتظارك ، ولم أمس شيئاً ، وجلست هنا فقط فوق الكرسي...

فقال الملاح : لا بأس ، يا للشيطان! وماذا يهم هذا ؟ دعي الرجل بالله!

وثارت ثائرة غضبي وأنا أنزل في السلم ضد هذه المرأة الوقحة السمينة التي تبعتني على أعقابي لكي تبعدني بأسرع ما يمكن . فوقفت لحظة ساكناً وعلى شفتي أشنع ألفاظ السباب . ولكني فكرت وصمت حتى لا يسمعها ذلك الرجل الغريب الذي جاء خلف المرأة . صمت فقط من باب الشكر له . وبقيت المرأة تتعقبني مواصلة السباب ، بينما كان غضبي يشتد مع كل خطوة أخطوها .

وبلغنا الفناء ، فسرت متباطئاً وأنا لا أزال أفكر : هل أكيل لصاحبة الدار بكيلها ؟ فقد جن جنوني في تلك اللحظة ورحت أفكر في جريمة سفك الدم الفظيعة ، أفكر في صدمها في بطنها صدمة تجعلها تتمدد ميتة لساعتها . ومر بي أحد السعاة عند الباب الخارجي ، وحيّاني فلم أرد عليه ، فقصد المرأة من خلفي ، فسمعته يسأل عني ، فلم ألتفت ورائي على الرغم من ذلك . فلحق بي الساعي على بعد خطوتين من الباب ، وحيّاني وخاطبني ، ثم أعطاني كتاباً ، ففضضت غلافه بعنف وعلى كره مني ، فسقطت منه ورقة مالية بعشرة ريالات ، ولا خطاب ، ولا كلمة واحدة .

فنظرت إلى الرجل وقلت :

ـ ما هذه السخافات ؟ ممن تكون هذه الرسالة ؟

فوقفت ساكناً في مكاني وانصرف الرجل . فوضعت الورقة المالية ثانية في الغلاف وقبضت عليهما معاً بشدة ، وكورتهما ، وعدت فدخلت على صاحبة الدار التي كانت لا تفتأ تنظر إليَّ ، فألقيت بالورقة في وجهها ولم أزد على ذلك شيئاً . لم أتلفظ بحرف واحد . ولاحظتها تفحص الورقة المغضنة قبل انصرافي .

هذا هو مسلك الشرف في الحياة الدنيا! لا كلام ولا حديث مع حثالة الناس ، بل تَغْضِيْن الورقة المالية العظيمة بكل هدوء ، ثم إلقاؤها في وجوه الملحّين الجفاة . هذا هو التصرف بمقتضى الكرامة! وكذا يلزم أن يعامل الإنسان الوحوش!

ولما وصلت إلى ملتقى شارع تومتغادن وميدان محطة سكة الحديد ، دار بي الطريق فجأة عدة دورات ، وطَن ذلك في رأسي الفارغ ، فترنَحت بقرب جدار إحدى الدور . ولم يعد في طاقتي استئناف السير على أية حال ، لا ، ولا أن أعود فأنصب قامتي بعد انحنائها ، فبقيت إلى جانب الحائط حيث سقطت ، وأخذت أحس أنني أغيب عن رشدي ، فاشتدت ثورة غضبي لنوبة الضعف هذه ، فرفعت قدمي وضربت بها الرصيف ، وأتيت بأشياء أخرى مختلفة لأسترجع قواي ، وعضضت على أسناني ، وقطبت حاجبي ، وقلبت عينيَّ في يأس ، فبدأ ذلك يفعل فعله . وصفا ذهني ، فأدركت أن هذا هو بداية السقوط . فمددت يديَّ ودفعت بهما نفسي عن الحائط ، والشارع لا يزال يتراقص ويدور بي . وطفقت أبلع ريقي من الحنق وأجاهد من صميم قلبي ضد تعسي . ووقفت موقف الشجاعة حتى لا أزل عن موقفي ، فإني لم أشأ أن أخرَّ على الأرض صريعاً ، بل أردت أن ألفظ النفس الأخير واقفاً . ومرت بي عربة تسير ببطء ، فإذا هي محملة بالبطاطا ، فخطر لي من شدة الحنق ولمجرد المشاكسة والعناد أن أقول إن ما عليها ليس بطاطا ، بل هو ملفوف . وأقسمت وأغلظت القسم أنه ملفوف . وسمعت مقالي كلمة كلمة ، وظللت أؤكد هذا الكذب بالقسم وأنا واعٍ أنني أكذب وأقسم ، لا شيء إلا لأشفي غليلاً في نفسي بارتكاب إثم اليمين الكاذبة . وأحسست بنشوة لإتياني هذا الذنب الذي لا مثيل له ، فرفعت ثلاث أصابع وأقسمت بشفتين مضطربتين ، باسم الأب والابن والروح القدس ، أن ما أراه هو ملفوف لا بطاطا .

وانقضى الوقت . وسقطت على درجة سلم قريب مني ، وجففت عرق جبيني ورقبتي ، وتنشقت الهواء بعمق ، واضطررت نفسي للهدوء . ومالت الشمس في الأفق وأصبح الوقت عصراً وابتدأت من جديد أفكر في موقفي : لقد أخذ الجوع يعضني بصورة لا تطاق ، وبعد ساعات قليلة يقبل الليل من جديد ، فلا بدّ من البحث عن وسيلة للخلاص ما بقي هناك متسع من الوقت . وعادت أفكاري تحوم من جديد حول النزل الذي طردت منه ، ولم تكن لديَّ أية رغبة في العودة إليه ، ولكني لم أقوَ على الامتناع عن التفكير فيه . والواقع أنه كان من حق المرأة أن تطردني منه ، فكيف يحق لي أن أنتظر السكن عند بعض الناس إذا أنا لم أدفع لهم الكراء ؟ ولقد كانت تعطيني فوق ذلك من وقت لآخر طعاماً ، وحتى ليلة أمس بعد أن أغضبتها قدمت لي خبزاً بزبد ، وقدمته عن طيب خاطر لأنها عرفت حاجتي إلى الطعام . وعليه ، لا أرى لي حقاً في الشكوى . وابتدأت ، وأنا جالس على درجة السلم ، أسألها في دخيلة نفسي الاعتذار عن مسلكي . وندمت على الأخص مُرَّ الندم أني أظهرت في النهاية كفري بأياديها عليَّ ، وألقيت الورقة المالية في وجهها...

الورقة المالية ذات العشرة ريالات! وصفرت تصفيرة ضعيفة . من أين جاء هذا الكتاب الذي أتى به الرسول ؟ ولم أفكر في مسألة الكتاب ومصدره تفكيراً جلياً إلا في هذه اللحظة ، وذكرت فجأة كل مناسباته ، فمرضت من الألم والخجل ، وهمست عدة مرات بصوت أجش وأنا أهز رأسي : « يلاياليي! » أوَ لم أفكر أمس أن أمر عليها في خيلاء إذا هي لقيتني ، وأريها أقصى ما يكون من عدم الاكتراث بها ؟ ولكني عوضاً عن ذلك أيقظت شفقتها واستدررت إحسانها . لا ، لا ، إن انحطاطي لم يعد يعرف له حداً ، فإني لم أستطع مرة واحدة أن أقف منها موقفاً مشرفاً . لقد انحدرت أيان وأين وليت وجهي! لقد سقطت على ركبتي ، وانحدرت حتى الموت ، وغرقت في قرارة السفالات ولن

أخرج منها! لا علوّ بعد ذلك! فهذه هي النهاية التي ليس بعدها نهاية! قبول عشرة ريالات كصدقة ، والعجز عن ردها لمعطيها المستتر ، وإنفاق هذه النقود من حيث أتت ، والاحتفاظ بها ، واستخدامها في دفع كراء السكن بالرغم من القرف الحقيقي ...

ترى ، هل في المقدور أن أجمع هذه الريالات العشرة بأية وسيلة ؟ أأعود إلى صاحبة الدار وأطلب منها رد الورقة المالية ؟ ولكن هذا لا يجدي نفعاً ولا يؤدي إلى شيء .

ولكن لا بدّ لي من إيجاد حل آخر ، لو أني فكرت في الأمر وأجهدت نفسي بحق في التفكير . وأقسم بالله أن التفكير العادي في مثل هذا الموقف لا يكفي ، فلا بد لي أن أعصر ذهني حتى أجهد شخصي لأجمع ثانية العشرة ريالات ، وعلى ذلك عدت فأخذت مجلسي لأتدبر الأمر .

الساعة الآن حوالي الرابعة . ولقد كان في الإمكان مقابلة مدير المسرح بعد ساعتين لو فرغت من كتابة المسرحية . وسحبت الأوراق وحاولت بكل ما فيَّ من قوة أن أُنهي كتابة الفصول الثلاثة الباقية . وفكرت ، وتصبب مني العرق ، وقرأت ما كتبته مرة أخرى من البداية . ولكني لم أتقدم خطوة . وقلت في نفسي : «لا مجال للسخافات الآن ، فليس الوقت وقت معاندة!» واندفعت في مسرحيتي ، وكتبت كل ما مر بخاطري لكي أنتهي منها بسرعة وأستطيع الانصراف . وأردت أن أقنع نفسي أن ساعتي العظيمة قد دقت ، فأخذت أكذب عليها وأخدعها علناً . استرسلت في الكتابة كما لو لم أكن في حاجة للبحث عن ألفاظ للكتابة ، وكنت أهمس في نفسي من وقت لآخر : «هذا حسن! إن هذا للقية! سأكتب هذا في مسرحيتي!»

وأخيراً بدت لي محاورات المسرحية غير مرضية ، فقد كانت شديدة

التناقض مع محاورات الفصل الأول . وعدا ذلك فلم يكن في عبارات الراهب شيء من روح العصور الوسطى ، فكسرت قلمي الرصاص بين أسناني ، ووثبت في الهواء ومزقت أوراقي ، مزقت كل ورقة منها قطعاً صغيرة ، ورميت قبعتي على الأرض ودستها بقدمي . «سيداتي وسادتي ، قد ضعت ، وغلبت!» ولم أنطق بغير هذه الكلمات طيلة المدة التي ظللت فيها أدوس قبعتي بقدمي .

وقد وقف على بضع خطوات مني شرطي يرقبني . وقف في وسط الطريق لا ينظر إلا إليَّ . ولما رفعت نظري تلاقى النظران ، وربما طال وقوفه هناك وهو يلحظني بنظره . فأخذت قبعتي ووضعتها على رأسي واتجهت نحوه مباشرة .

وسألته . هل تقدر أن تقول لي كم الساعة الآن ؟

فتردد لحظة قبل أن يخرج ساعته ودون أن يفارقني بنظره وقال :

ـ حوالي الرابعة .

ـ بالضبط حوالي الرابعة . هذا صحيح . إنك تحذق أمورك كما أرى وسأذكرك .

وعلى ذلك سرت وبقي مكانه بعد أن أخذت منه الدهشة مأخذها ، ونظر إليَّ فاغراً فمه وهو لا يزال ممسكاً الساعة في يده . ولما أصبحت أمام فندق « رويال » التفت ورائي وأخذت أتطلع ، فرأيته لا يزال واقفاً في مكانه ينظر إليَّ .

ها ، ها! هكذا يلزم الواحد أن يعامل هؤلاء الحيوانات! بقحة لا مثيل لها! إن هذا مما يؤثر في الحيوانات ويرعبهم... وكنت مغتبطاً من نفسي فأخذت أغني طرفاً من أغنية . وكنت متوتر الأعصاب من شدة الاضطراب والهياج فمضيت خفيفاً كالريشة لا أحس ألماً ولا أشعر بأي لون من ألوان الضيق .

واجتزت السوق الكبيرة واتجهت ناحية سوق اللحوم ، وجلست على مقعد بجوار كنيسة المخلص .

وفي النتيجة ، ماذا يهمّني إن أنا رددت العشرة ريالات أو لم أردّها ؟ فمنذ أن وقعت الورقة في يدي باتت من نصيبي . ولا شك أن من أرسلها إليَّ ليس في حاجة إليها ، ولا بؤس ولا تعاسة في المصدر الذي أتت منه . ولذلك كان من واجبي أن أقبلها لأنها مرسلة إليَّ أنا . ولم يكن هناك من معنى لأن أريها للساعي ، وليس مناسباً كذلك أن أعيد ورقة أخرى ، كتلك التي تسلمتها ، إلى من أرسل بها إليَّ . إذن فليس في هذا الأمر ما يستحق التفكير والاهتمام .

وحاولت أن أراقب الزحام القائم أمامي في السوق بحركة البيع والشراء ، وأن أشغل ذهني بأمور ليست بذات شأن ، ولكنني لم أوفق إلى ذلك ، واضطررت إلى أن أفكر على الدوام في العشرة ريالات . وأخيراً كورت يدي وقد تولاني الغضب وحدثت نفسي أقول : «إني إذا أعدت إليها الريالات العشر ، أجرح عواطفها ، إذن فلماذا أعيدها إليها ؟ أوَ أحسب نفسي دائماً من اللياقة بحيث أرفض هذا أو ذاك مما يقدم إليَّ ، وأهز رأسي بأنفه وكبرياء وأقول : «لا ، شكراً!» ها أنذا أرى الآن إلى أين يقودني ذلك . ها أنا على أرض الشارع ، وقد تركت بملء الزهو حتى مخدعي الدافىء الذي سنحت لي الفرصة للاحتفاظ به . لقد أخذتني الكبرياء ، فغضبت لأول كلمة سمعتها من صاحبة الدار ، وركبت خيول الفخار ، ورميت من يدي عشرة ريالات وانصرفت...» وحاسبت نفسي حساباً عسيراً على مغادرتي المسكن ومواجهتي الحرج والضيق من جديد .

ومهما يكن من أمر ، فإلى الشيطان كل هذا! فأنا ما سألت أحداً هذه الورقة المالية ذات العشرة ريالات ، وهي ما كادت تصل إلى يدي حتى أعطيتها

حالاً لقوم غرباء عني لن أراهم إلى الأبد بعد الآن . وهكذا أنا! أمنح دائماً آخر فلس بيدي متى لزم الأمر . ولو عرفت يلايالي ذلك ، لمّا ندمت أبداً على إرسالها هذه النقود إليّ ، فلماذا يا ترى أعذب نفسي كل هذا العذاب ؟ أن ترسل إليّ يلايالي بورقة عشرة ريالات من وقت لآخر ، ذلك أقل ما عليها أن تفعل! إن المسكينة واقعة في غرامي... وربما كانت واقعة في غرامي حتى الموت... وأفرطتُ بالزهو بمثل هذه الأفكار فلا ريب أن الفتاة المسكينة قد فُتنت بي...

وكانت الساعة الخامسة فغشي عليّ مرة أخرى بعد اضطراب وإجهاد عظيمين ، وشعرت من جديد بالطنين يعود إلى رأسي الفارغ . فنظرت أمامي ، وظللت فاتحاً عينيّ محدقاً إلى صيدلية «الفيل» . الجوع! فلقد كان الجوع يفترسني بقسوة فعانيت منه آلاماً شديدة . وفيما أنا أنظر كذا في الفضاء ، بدا لي شخص أخذت صورته تتضح شيئاً فشيئاً أمام أبصاري الشاخصة . وانتهى بي الأمر أن تحققت منه وتعرّفته فإذا هو شخص بائعة الفطير قرب صيدلية الفيل .

فانتفضت ، ونصبت قامتي ، وأخذت أعمل فكري في الرؤية . لا ، لست مخطئاً . إنها لحقيقة . فالمرأة نفسها خلف المائدة نفسها ، في المكان نفسه! وصفرت عدة مرات وفرقعت بأصابعي ، ثم نهضت وسرت إلى الصيدلية في الجهة المقابلة . كل شيء إلا الهزل! وماذا يهمني أكان مال موظف أو مال عطّار نرويجياً من فضة كونسبرغ الممتازة! لا أريد أن أكون هُزأة فقد يموت الواحد من الافراط في الزهو...

تقدمت إلى الناصية واتجهت ناحية المرأة ووقفت أمامها . ابتسمت لها ، ثم حييتها برأسي تحية الأهل للأهل ، ووجهت إليها الكلام كما لو كانت عودتي إليها في أحد الأيام أمراً طبيعياً وقلت :

ـ نهارك سعيد . أوَ تعرفينني ؟

فقالت في بطء وهي تنظر إليَّ : لا .

فازددت تبسماً كما لو كان عدم تعرفها إليَّ مزاحاً مستملحاً ، وقلت :

ـ أوَ لا تذكرين أني أعطيتك مرة من المرات بضعة ريالات ؟ وعلى ما أذكر ، لم أقلٍ لك يومئذ شيئاً ، فإني لم أتعودَ ذلك . وما دام الإنسان يتعامل مع أشراف الناس فلا حاجة للارتباط معهم ، أو بعبارة أخرى للتعاقد على كل تافه . ها ، ها! نعم ، أنا هو الذي أعطاك في ذلك الوقت ذلك المال الوفير .

ـ كلا! أحقاً هو أنت ؟ بلى ، الآن أعود فأتعرّفك بعد أن استجمعت ذاكرتي...

وأردت أن أحول بينها وبين شكري على هذه النقود ، فقلت لها في عجلة ، وأنا أقلب النظر في الأطعمة التي على المائدة :

ـ أنا آتٍ الساعة لأخذ الفطائر .

فلم تعِ ما قلت ، فأعدت عليها :

ـ الفطائر ... أريد الآن أخذها . لن آخذ الآن إلا الدفعة الأولى مما يحق لي ، فلست اليوم بحاجة لتصفية الحساب كله!

فسألتني :

ـ أنت آتٍ لتأخذها ؟

ـ طبعاً . إني آتٍ لآخذها .

قلت لها ذلك وأنا أقهقه عالياً كما لو كان عليها أن تدرك في الحال ، وفي وضوح يشبه وضوح النهار ، أنني أرغب في أخذ الفطائر .

وتناولت عن المائدة فطيرة من نوع الفرانزبروت وأخذت أقضمها .

وما كادت المرأة ترى ذلك حتى انتصبت في كشكها واقفة وأتت بحركة آلية كي تحمي بضاعتها ، وكي تفهمني أنها لم تكن تتوقع عودتي لسلبها .

وعندئذ قلت :

ـ ألا تريدين ؟ أحقاً لا تريدين ؟

لقد وجدت أن المرأة الجليلة لا تريد حقاً أن تدفع دينها . أتراها رأت في حياتها إنساناً يعطيها قبضة ريالات ، ولا يعود لاستردادها ؟ لا . وعليه ، أرأيت ؟ أو لعَلها اعتقدت أنه مال مسروق لأنني أعطيتها إياه على هذه الصورة ؟ لا ، فهذا أيضاً لم تكن تعتقده ، وهو من حسن حظي! وإنه لطف منها أن تعدني رجلاً شريفاً . ها ها! أي نعم ، إنها امرأة مليحة حقاً!

ـ ولماذا إذن أعطيتك هذه النقود ؟

فثارت ثائرة المرأة وصرخت بصوت عال .

فبينت لها سبب إعطائي إياها النقود بهدوء وتوكيد : تلك هي طريقتي في معاملة الناس لأنني أعتقد فيهم الطيبة وأثق بهم . وكنت دائماً إذا قدم لي بعضهم عقداً ، أهز رأسي وأقول : «لا ، أشكرك» . وأقسم لك بالله على ذلك!

ولكن المرأة لم تع شيئاً مما قلت .

فلجأت إلى وسائل أخرى وتكلمت في شدة ، وأبيت على نفسي كل هزل . وقلت :

ـ ألم يحدث أن دفع لك بعضهم عربوناً على هذه الصورة ؟ وبالطبع أعني سراة الناس ، كبعض القناصل ، على سبيل التمثيل . أبداً ؟ إذا كان هذا النوع من التصرف بالنسبة إليك أمراً جديداً ، فليس في طاقتي أن أعوضك عنه . وهذا أمر طبيعي ومألوف في خارج هذه البلاد ، وأظنك لم تتخطي الحدود في حياتك ؟ لا . وعليه ، أرأيت! إذن ليس في مقدورك أن تتحدثي معي في هذه الشؤون...

وعلى ذلك أخذت عدة فطائر من على المائدة .

فزمجرت المرأة غاضبة ، ورفضت بشدة أن تعطيني شيئاً مما على المائدة بل اختطفت واحدة من الفطائر التي في يدي وأعادتها إلى مكانها ، فثارت ثائرتي وضربت المائدة بيدي ، وهددتها بالشرطة ، وقلت إنني سأصفح عنها إذا أنا استوفيت كل حقي ، وإلا فسأقضي على دكانها القضاء المبرم . فقد سبق أن أعطيتها مبلغاً كبيراً من النقود ، ومع كل ذلك فلن أطمع في شيء كثير ، سأكتفي بنصف القيمة . وعدا ذلك فلن أعود إليها فيما بعد ، وأعوذ بالله أن أعود بعد أن رأيت فيها ذلك الشخص...

وأخيراً قدمت لي بعض الفطائر ، خمساً أو ستاً ، قدرتها بثمن باهظ لا يخطر إلا ببالها ، ثم أمرتني بالانصراف . فظللت أنازعها ، مدّعياً أنها خدعتني في ريال ، وأنها بأسعارها الفاحشة قد امتصت دمي ، وقلت لها :

ـ أتعرفين أنه يوجد عقوبة على مثل هذه الجريمة ؟ ليكن اللّه في عونك ، فلقد كان من الجائز أن تقضي حياتك في الأشغال الشاقة من أجل ذلك أيتها الأتان العتيقة!

فألقت إليّ بقطعة فطير أخرى ورجتني ، وهي تصرف بأسنانها ، أن أنصرف .

وعلى ذلك تركتها .

هل رأى أحد في حياته بائعة فطائر خالية من الوجدان كهذه المرأة! ولقد بقيت طول مدة تنقلي في السوق ، آكل من الفطير وأتحدث بصوت عال عن المرأة وقحتها ، وأعيد حديثنا وكل ما قاله أحدنا للآخر . فتبيّن لي أنني كنت متفوقاً عليها . وكنت آكل الفطير وأتكلم مع نفسي بصوت عال ، بمرأى من الناس ومسمع .

واختفت قطع الفطير واحدة بعد الأخرى . ولم يذهب بجوعي كل ما أكلته . يا لله ، لم يغن كل هذا من جوع! وقد بلغ مني الشره حداً كدت معه أن آتي على الفطيرة الأخيرة التي كنت من مبدأ الأمر أفكر في الاحتفاظ بها لغلام شارع بوغنماند الذي كان يلعب بقصاصات الورق ، والذي بصق الرجل ذو اللحية الحمراء على رأسه . فقد كنت لا أزال أذكره بدون انقطاع ، ولا أتمكن من أن أنسى هيئته حينما وثب باكياً شاتماً ، فإنه تطلع إلى نافذتي ينظر إليَّ حينما بصق الرجل عليه ، ليرى إذا كنت أنا أيضاً أضحك منه . آه ، ليتني أجده عندما أذهب إلى هناك!

وبذلت كل ما في طاقتي لأصل إلى شارع بوغنماند بأسرع ما يمكن ، فمررت على المكان الذي مزقت فيه مسرحيتي إلى قطع صغيرة ، وحيث لا يزال باقياً منها على الأرض جزء قليل . ودرت حول الشرطي الذي كنت قد أدهشته قبل الآن بحركاتي وتصرفاتي المستهجنة . وفي النهاية وقفت عند السلم الذي كان الغلام جالساً عليه .

ولم يكن هناك . وكان الشارع خالياً أو يكاد ، وقد أخذ الليل يسدل ستاره ، ولم أستطع العثور على أثر للغلام في أي مكان ، فربما يكون قد عاد إلى بيته . فوضعت الفطير بحذر عند حافة الباب ، وقرعت الباب بشدة وأسرعت مهرولاً في الحال . وقلت في نفسي : «سيجدها بلا شك! سيجدها عندما يخرج من الباب!» ونديت عيناي من الفرح لفكرة أن الصغير سيجد الفطيرة .

ثم عدت إلى رصيف محطة السكة الحديد .

ولم أعد جائعاً بعد ، ولكن الفطير المحلى الذي أكلته سبب لي غثياناً .

وثارت في رأسي من جديد أفكار حمقاء . ماذا لو أني قطعت حبل إحدى

السفن خفية ؟ أو لو صرخت فجأة «حريق ؟» وتقدمت في الرصيف بحثاً عن صندوق آخذ مجلسي عليه ، وضممت يدي وأحسست أن رأسي يزداد على الدوام اضطراباً ، فبقيت ساكناً في مكاني لا أقوم بأية حركة لأستجمع قواي .

وحدّقت إلى السفينة الشراعية كوبيغورو التي تحمل العلم الروسي ، فلمحت رجلاً عند حاجزها ، وكانت المصابيح الحمراء تلقي من فوق مؤخرة السفينة ضوءها على رأسه ، فنهضت ووجهت إليه الكلام . ولم أرمِ بذلك إلى غاية معينة ، بل إنني لم أتوقع منه جواباً .

ـ أمقلعة السفينة الليلة أيها الربان ؟

ـ نعم ، بعد لحظات .

وكان يتكلم السويدية ، وهو على ما ظننت فنلندي .

ـ حسناً ، أوَ لستم في حاجة إلى رجل ؟

ولم يكن يهمّني في تلك الساعة أن يكون جوابه نفياً أو قبولاً ، فجوابه لم يكن يعنيني . وبقيت أنظر إليه وأنتظر .

فأجاب : لا ، إلا إذا كان في مقتبل الشباب .

في مقتبل الشباب! وانتفضت ورفعت نظارتي خلسة ووضعتها في جيبي ، ثم وطئت المعبر وسرت إلى ظهر السفينة . وقلت :

ـ لست من أصحاب هذا العمل ، ولكني أستطيع أن أقوم بكل ما تأمرني به . إلى أين أنتم مزمعون ؟

ـ سنتجه شرقاً إلى ليدز فنأخذ منها فحماً لقادس .

فقلت للرجل ملحاً عليه :

ـ حسناً! لا فرق عندي بين جهة تسيرون إليها ، وأية جهة . وسأقوم بعملي كيفما اتجهتم .

فبقي مدة ينظر إليَّ ويفكر . وسألني :

ـ ألم تبحر قبل الآن ؟

ـ لا ، ولكن كما قلت لك ، مرني بأي عمل أقم به . إني متعود كل شيء .

فعاد يفكر . وصممت في تلك اللحظة على السفر معه ، فقد كنت أخشى العودة إلى اليابسة . وأخيراً قلت له :

ـ وعليه ، فماذا ترى أيها الربان ؟ الحق أني أستطيع القيام بكل شيء ، وهذا ما أقوله! وما أتعسني من فتى إذا أنا لم أقم بما أكلف به . ولو استلزم الأمر أن أقوم بنوبتين متواصلتين من الحراسة لفعلت ، فلن يضرني هذا ، وإني أستطيع احتماله .

فقال وقد افترّ ثغره قليلاً لكلماتي الأخيرة .

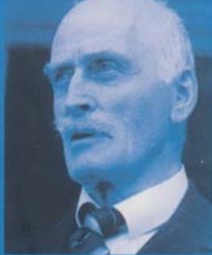
ـ فلنجرب! وإذا تعذر الأمر افترقنا في انكلترا .

فقلت فرحاً : « طبعاً » . ثم كررت عبارته وقلت إننا نستطيع الافتراق في انكلترا إذا تعذر الأمر .

ثم كلَّفني العمل...

ونظرت إلى البر وودعت المدينة هذه المرة ، مدينة كريستيانا حيث تسطع نوافذ كل هذه المنازل بالنور ـ كل هذه المساكن!

تمت



كنوت هامسون Knut Hamsun، نروجي الجنسيّة، وُلد في ٤ أغسطس ١٨٥٩، وهو يُعتبر واحداً من أعظم الكتّاب الذين عرفهم العالم خلال القرن العشرين. ولا تزال روايته "الجوع" تعتبر من الروائع الأدبية في القرن المذكور.

ينتمي كنوت هامسون الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٠، إلى عائلة ريفية فقيرة، وقد عاش طفولة قاسية في رعاية عمّه.

في عام ١٨٩٠، أصدر كنوت هامسون روايته «الجوع» التي حقّقت له شهرة عالمية واسعة. وفي هذه الرواية يدين «الحضارة المادية» وجميع مظاهرها التي «لوّثت الحياة الإنسانية» وجعلتها «غير محتملة». وهذا ما فعله أيضاً في جلّ الروايات التي أصدرها خلال مسيرته الإبداعية الطويلة. وكان كنوت هامسون يؤمن بأنّ البشر درجات، وأنهم ليسوا متساوين في الذكاء، لذا كان يقول بأنّه ينتمي إلى ما كان يسمّيه بـ«ارستقراطية الحسّ والذكاء».

أثناء الحرب العالمية الثانية، ناصر النازية، واعتبر أنّ هتلر قادر على أن «يقيم في ألمانيا مجتمعاً جديداً، متحرّراً من كل الأمراض التي جلبتها الحضارة المادية».

وقد أصيب كنوت هامسون أكثر من مرّة بنوبة عصبية حادّة، وفي أواخر حياته اشتدّت عليه هذه النوبات حتى لم يعد يعي ما يقول وما يفعل.

بعد نهاية الحرب الكونيّة الثانيّة، حُوكم وأودع مصحّة الأمراض العقلية. وفي السنوات الأخيرة من حياته، عاش كنوت هامسون العزلة، وكان أهل بلاده يتعاملون معه كما لو أنّه «خائن للوطن». أمّا الروايات التي ألّفها فلا تزال إلى حدّ هذه الساعة تفتن الملايين من القرّاء في جميع أنحاء العالم. توفي في ١٩ فبراير ١٩٥٢.

مكتبة نوبل ١٩٢٠

ISBN 284305195-9
9 782843 051951

لوحة الغلاف: بابلو بيكاسو

تصميم الغلاف ماجد الماجدي